

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

التاريخ الأندلسي من خلال النصوص

د . محمد رزوق
د . ابراهيم القادري بوتشيش
د . احمد الطاهري

د . محمد المنوني
د . امحمد بن عبود
د . السعدية فاغية



شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني - الدار البيضاء



رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

التاريخ الأندلسي من خلال النصوص

د . محمد رزوق
د . ابراهيم القادري بوتشيش
د . أحمد الطاهري

د . محمد المنوني
د . أمحمد بن عبود
د . السعدية فاغية



شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني — الدار البيضاء



الطبعة الأولى 1412-1991

جميع الحقوق محفوظة

الإيداع القانوني رقم 1991/801

تقديم

يسعدنا أن نقدم لجمهور القراء والمهتمين بالتاريخ الاندلسي هذه المجموعة من النصوص التي تعكس جوانب وقضايا ترتبط بمختلف المراحل التاريخية التي مرت بها الاندلس ، ابتداء من الفتح الاسلامي الى غاية الهجرة الكبرى خلال القرن الحادي عشر الهجري ، شارك في اعدادها مجموعة من الاساتذة الجامعيين المغاربة المتخصصين في تاريخ الاندلس أو في جوانب من تاريخ المغرب ذات الارتباط بالتاريخ الاندلسي . ولقد ساهم كل باحث بنصوص تهم المرحلة التاريخية المرتبطة بمجال اهتماماته كالتالي :

أولا : عصر الولاة والإمارة : ابراهيم القادري بوتشيش : استاذ التاريخ بكلية الآداب بمكناس.

ثانيا : عصر الخلافة : أحمد الطاهري : استاذ التاريخ بكلية الاداب بالمحمدية .

ثالثا : عصر الطوائف : الدكتور امحمد بن عبود استاذ التاريخ بكلية الآداب بتطوان.

رابعا : عصر المرابطين والموحدين : الاستاذ العلامة محمد المنوني استاذ التاريخ بكلية الاداب بالرباط

خامسا : عصر بني نصر : الدكتورة السعدية فاغية استاذة الادب العربي بالمدرسة العليا للاستاذة بمراكش .

سادسا : العصر الموريسكي الى غاية الهجرة الكبرى : الدكتور محمد رزوق استاذ التاريخ بكلية الآداب - عين الشق بالدار البيضاء - .

وأفرد كل عصر بتقديم يبرز الخصائص والملامح الأساسية التي تميزه ، قصد تمكين القارئ من تكوين تصور عام عن المجال التاريخي الذي ترتبط به النصوص المنتقاة . كما حدد مجال الاختيار في إبراز البعد السياسي ثم البعد الاقتصادي الاجتماعي . واقتصرت المساهمات على اختيار النصوص وتقديمها دون شرحها وتحليلها وذلك للأسباب التالية :

- أ- تقديم أكبر عدد من النصوص في حدود كتاب في متناول الجميع .
- ب- التعريف بهذه النصوص قصد انعاش اهتمام القراء والباحثين بالمصادر التاريخية الاندلسية ، خصوصا المنشورة منها .
- ج- تقديم مادة يمكن استغلالها في اطار عمليات تحليلية مختلفة وفي مجال واسع .

ونعتقد أنه بقدر ما تساهم شمولية هذه النصوص لكل مراحل التاريخ الاندلسي في إبراز تكاملها وتطور حلقاتها على المستوى السياسي من جهة ، ثم الاجتماعي والاقتصادي من جهة أخرى ، بقدر ما تبين الاختلاف والتنوع الذي يطبعها ، فضلا عن الخصوصيات التي تميزها .

ويمكن الاعتماد على هذه المجموعة مرجعا جامعا أساسيا لدراسة النصوص التاريخية الاندلسية ، كما يمكن الاعتماد عليها من طرف عموم القراء المهتمين بالدراسات الاندلسية ، واتخاذها مدخلا لدراسة وتحليل النصوص ، ومقدمة لتناول اشكالية التوثيق في مجال التاريخ الاندلسي .

والله ولي التوفيق

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم الأول



عصر الولاية والإمارة

عصر الولاة والإمارة

يجمع المؤرخون على أن بداية تاريخ عصري الولاة والإمارة تقتزن باللحظة التي أصبحت فيها الأندلس خاضعة لسلطة «دار الاسلام» بعد إتمام عمليات الفتح ، وتعيين أول والٍ عليها سنة 95 هـ وتنتهي بإعلان الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر قيام الخلافة سنة 316 هـ .

ومع اقتناعنا بأن تقسيم هذه العصور ذو بعد تقني يستهدف تبسيط الدراسات المرحلية أكثر من كونه مؤسسا على قواعد موضوعية ، فإننا قمشيا مع ماهو متعارف عليه ، سنحاول تحليل معطيات كل عصر على حدة .

I- عصر الولاة

يبتدئ هذا العصر زمنيا منذ أن غادر موسى بن نصير الأندلس متوجها إلى المشرق لمواجهة محتته تاركا ابنه عبد العزيز بن موسى واليا عليها سنة 95 هـ ، وينتهي بوصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتأسيس إمارة بها سنة 138 هـ . وقد تعاقب عليها خلال هذه الحقبة 22 واليا كان آخرهم هو الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

تميز عصر الولاة بعدة خصائص بعضها مرتبط بطبيعة التأسيس وبداية التواجد الإسلامي في هذا البلد ، والبعض الآخر يرجع إلى التطور الحاصل في مسار القوى المتواجدة على الساحة نتيجة تناقض أو تقارب المصالح والأهداف .

لقد كان عصر الولاة نقطة انطلاق وبداية تأسيس الكيان الاسلامي في الجزيرة الاندلسية ولذلك كان من الطبيعي أن تطفو على المجتمع الاسلامي في هذه البقعة كثير من الصعوبات ، فهي تعد أقصى نقطة تبعد عن مركز الخلافة في الشرق ، مما عمق صعوبة التواصل لحل المعضلات المطروحة . وكانت الوضعية تحتم تغييرا جذريا في البنى السياسية

والإدارية والتنظيمية في بلد أصبح يشكل قطيعة مع ماضيه وإرثه الحضاري ، فضلا عن الضعف الذي كان قد خلخل بنياته العتيقة وأصبح يشكل عبئا ثقيلا ورثه المسلمون عن الحكم القوطي !

ومع ذلك سجل عصر الولاة إنجازات تعد ضخمة إذا ماقيست بظرفية المرحلة حيث تم إقرار الأوضاع ، وبدأت التنظيمات الإدارية وإصلاح أحوال البلاد تأخذ مجراها كما بدأ المجتمع الأندلسي في هذه الفترة ينمو بطبقاته وطوائفه الاجتماعية . ولعل أبرز ماميز المجتمع في هذه الحقبة دخول عدد كبير من الإسبان في الديانة الاسلامية التي اجتذبتهم بشورتها ، وماتحملة للإنسان من قيم كانت تفتقر إليها في مجتمعها القوطي القديم وتحفظ لنا المصادر بأسماء كثير من الأسر التي اعتنقت الإسلام بعد أن عانت من مظاهر الجور ماجعلها ترحب بالفاتحين الجدد . فكان عصر الولاة إذن عصر تحرير الإنسان المقيم في شبه الجزيرة الإيبيرية .

والملاحظ أن الأندلس في هذا العصر كانت تتبع إداريا خلافة دمشق أو الشمال الافريقي حيث كان الوالي يعين إما مباشرة من طرف الخلافة أو بواسطة وليها في المغرب الاسلامي .

ورغم أن العصر كان في بدايته ، فإنه لم يخل من منجزات اجتماعية وعمرانية تجلت في بناء القناطر وشبكات الري ، فضلا عن المساجد بغية تقوية الروح الإسلامية .

ولا جدال في أن عصر الولاة كان عصر جهاد واستمرار للفتوحات الإسلامية في البلاد الأوربية وخاصة بلاد الغال (فرنسا) ، فعبر بذلك عن قوة الدفع الإسلامي الذي لم يوقفه سوى معركة بلاط الشهداء (114 هـ / 732 م) التي انحسر فيها المد العربي أمام تكتل صليبي متعصب ومع ذلك فإن مثل هذا التقدم العسكري إلى أعماق فرنسا الحالية يعد إنجازا رائعا ونقطة هامة وصل إليها تاريخ الجهاد العربي .

ونحن في غنى عن القول أن هذا العصر يعتبر كذلك عهد تجدد الإسلام وتفقيه الشرائع

الاجتماعية سواء تلك التي كانت حديثة العهد بالإسلام أو تلك التي سارعت إلى اعتناقه من أبناء الإسبان ، فقد دخل عدد من التابعين بمعية جملة من الفقهاء لتبصير الجمهور بأحكام الدين وشرائعه . أما العلوم فمن إنصاف القول أنها ظلت في طورها الجنيني ، ولم تظهر ثمارها إلا في فترات لاحقة في حين ظل مذهب الإمام الأوزاعي هو السائد في الأندلس خلال الحقبة ذاتها .

غير أن هذا الوجه المشرق يجب ألا يحجب عنا بعض الصور السلبية التي عرفتھا الأندلس خلال عصر الولاة . ذلك أن هذا الأخير قفز بعدم الاستقرار السياسي والفوضى التي استشرت في طول بلاد الأندلس وعرضها . مصداق ذلك تغير الولاة بين الفينة والأخرى حتى أن متوسط المدة التي قضاها كل وال في الحكم لم تتجاوز السنتين .

وبالإضافة إلى ذلك ، استعرت النعرات القبلية التي لم تكن سوى انعكاس طبيعي لما كان يجري في المشرق الإسلامي : فخلافة دمشق تلوئت بسياسة التعصب القبلي ، وغرقت فيها بكل مؤسساتها وأجهزتها ، فكان بديهي أن يترك ذلك أثره على المناخ السياسي في الأندلس حيث وجدت التناقضات القبلية والعنصرية طريقها إلى الانفجار ، وتشكلت أحزاب و « محاور » متعددة الانتماءات لا يجمع بينها سوى الصراع على السلطة : فالعرب البلديون وهو بواكير الشرائع التي جاءت مع الفتح أو بعده مباشرة كانت قد ضربت في سهول الأندلس الخضراء ، وعاشت في ترف إلى أن جاء العرب الشاميون ففرضوا أنفسهم عليهم بعدما ساعدوهم في سحق ثورة البربر . وامتد الصراع ليشمل هؤلاء كذلك إذ أرادوا تأكيد دورهم في فتح الأندلس والحوار من موقع الطرف القوي ، وليس من موقع التبعية للعرب .

وبكلمة مختصرة يمكن القول أن عصر الولاة كان بداية تثبيت الوجود الإسلامي في الأندلس وإرساء دعائم المجتمع عن طريق سن التنظيمات والتوسع على حساب « دار الحرب » غير أنه عرف في نفس الوقت جوا من التشاحن والاضطرابات السياسية والتوترات الاجتماعية

وهي مسألة طبيعية لمجتمع لا زال في طور المخاض ولعل هذه المظاهر ستبدو بوضوح من خلال النصوص التي سنعرضها .

هذا عن عصر الولاة فماذا عن عصر الإمارة ؟

II - عصر الإمارة

يمتد عصر الإمارة من سنة 138 هـ (755 م) وهي السنة التي تمكن فيها الأمير الأموي عبد الرحمن المعروف بالداخل من تحقيق مشروعه السياسي الطموح والاستيلاء على السلطة في الأندلس بعد أن أفلت بنجاح من مذابح العباسيين ، إلى سنة 316 هـ ، وهي السنة التي أعلن فيها عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر نفسه خليفة في الأندلس وتسمى بأمير المؤمنين .

وتستلزم قراءة أحداث هذا العصر استحضار مجموعة من المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية البارزة بغية تأطير النصوص الواردة بعد في إطارها الصحيح .

غير أنه من الضروري التمييز داخل عصر الإمارة هذا بين مرحلتين تختلفان حسب معطياتها التاريخية .

1- فترة الإمارة الأولى :

من أبرز مميزات هذه المرحلة دخول الأندلس في قطيعة سياسية مع خلافة الشرق وإن لم تتجسد هذه القطيعة على المستوى الروحي والحضاري ، فبعد أن كان الولاة مرتبطين بالخلافة الأموية ثم العباسية بعدها ، قام عبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ) بجرأة قل نظيرها بإعلان إمارة أموية مستقلة في الأندلس تناصب العداء للعباسيين ، بل وتحالف خصومهم من الأفرنجية نكاية فيهم ، وبالمثل حاول العباسيون زرع البلبلة والاضطراب وتأييد الحركات الموالية لهم في الأندلس ولولا بعد المسافة لتحولت هذه المناوشات إلى حرب ضروس قد تغير مسار التاريخ الإسلامي .

ومع ذلك فإن العلاقات الحضارية استمرت على قدم وساق ، بل إن «التقليد الشامي» وجد تربة خصبة في الأندلس ، فتأثرت مظاهر الحياة الاجتماعية بحضارة الشرق خاصة بعد وفود جماعات شامية في عصر عبد الرحمن الأوسط الذي أصبحت قرطبة في عهده مشرعة الأبواب في وجه التيارات المشرقية وحسبنا دليلا على ذلك وفود المغني زرياب الذي مثل شخصية طريفة جاءت بمادة جديدة من الترف الاجتماعي فأثرت في المجتمع الأندلسي برمته .

وتميزت الفترة الأولى من عصر الإمارة كذلك بنوع من الاستقرار السياسي خاصة في البداية حيث اختفت الصراعات الحزبية وخفت النعرات العصبية . ومع مواجهة الاستقرار أخذت العلوم تأخذ مكانها داخل الأندلس التي أصبحت وعاء اختصرت فيه الثقافات المتنوعة ، فتفجرت العطاءات ، وأزهر حقل العلوم وغدت قرطبة مركز إشعاع علمي واسع . وسطع نجم بعض الشخصيات العلمية كعباس بن فرناس الذي كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة .

وعرفت النظم الإدارية بدورها تقدما هاما في هذه المرحلة إذ وجد منصب الوزارة والحجابه كما عرف صاحب المدينة وصاحب الشرطة وغيرها من الخطط .

وصاحب هذا التقدم العلمي والإداري نهضة عمرانية ملحوظة قائمة على رقة الذوق والأناقة التي شملت المنشآت العامة من مساجد وقناطر وأسوار .

ومن المعلوم أن عناصر المجتمع الأندلسي تعددت في هذه المرحلة ، فإلى جانب العرب والبربر والمستعربين والمولدين انضافت أفواج أخرى من الصقالبة المجلوين من بلاد البلغار ، فضلا عن بيوتات أموية وردت على الأندلس بعد أن تمت الغلبة لبني جلدتهم .

وتمتعت جل هذه العناصر إلى حد ما بسياسة الانصاف والتسامح بما في ذلك طائفة المستعربين الذين بهرتهم الثقافة العربية ، وتمكن بعضهم من الوصول إلى المناصب القيادية وإذا كان ثمة تمردات بين صفوفهم فهي تمرات غير مسؤولة .

وعلى المستوى المذهبي يعد عصر الإمارة انعطافة هامة في التاريخ المذهبي للأندلس فبعد أن كان مذهب الأوزاعي هو السائد في عصر الولاة كما سبق الذكر ، دخل المذهب المالكي الأندلس بفضل جهود مجموعة من الفقهاء من أمثال زياد بن عبد الرحمان ويحيى بن يحيى الليثي.

أما من النواحي الاقتصادية فقد عرفت الزراعة في هذه المرحلة الأولى تقدما ملموسا إذ تعددت وسائل الري ، وجلبت أشجار الفواكه من الشرق وعرفت حركة البستنة فوا كبيرا وبدأ الاعتناء بالضيعات . والشيء نفسه يقال عن الصناعة خاصة صناعتي السفن والبناء وكذلك التجارة وإن كان المجال لا يسمع بتتبعها .

كذلك تميز هذا العصر بربط علاقات دبلوماسية ودية مع بعض الأمم المجاورة حيث تذكر المصادر سفارة يحيى الغزال من قبل عبد الرحمن الأوسط إلى مملكة النورمان كما تذكر زيارة سفير الامبراطور البيزنطي "تيوفيل" إلى قرطبة سنة 225 هـ / 839 م . إلا أن سياسية الانفتاح هذه لم تحل دون تخرشات بعض التوى المسيحية الواقعة في الشمال وكذلك هجوم النورمان.

تلك هي الخصائص الإيجابية التي ميزت عصر الإمارة في طوره الأول الذي استمر إلى غاية منتصف القرن الثالث الهجري غير أن هذه الصورة المشرقة سرعان ما عرفت تقلبا كبيرا في عصر الإمارة الثاني .

2- فترة الإمارة الثانية :

على الساحة السياسية ، تميزت هذه الفترة بمجموعة من الضوابط التي تختلف مع الفترة الأولى ، إذ فقدت السلطة المركزية هيبتها ، فانفجر الوضع السياسي ، وظهرت كيانات قزمية انفصالية في غمار الفوضى السياسية السائدة ، فأصبح كل زعيم من قادة العسكر الذين أقطعهم الأمير مناطق معينة ، يستقلون بها ، ويجبون ضرائبها ، ويؤسسون إمارات على

النمط الاقطاعي ، وبذلك انقرضت وحدة الأندلس السياسية .

وعلى المستوى الاقتصادي أصبح الإقطاع هو نمط الإنتاج السائد اذ ظلت الأرض محور العلاقات الاجتماعية ، نفوت عن طريق الإقطاع إما للأمرأ أو لقادة الجند والفقهاء وكذا بيوتات الأعيان . وقد أثرت عملية إقطاع الأراضي في مظاهر النشاط الاقتصادي حيث ظلت الزراعة قوة الإنتاج الرئيسية إلا أنها عانت من التدهور ، بينما ظلت الصناعة منحطة وتابعة للعمل الزراعي ، ولم يجر تطويرها ، في الوقت الذي تدهورت طرق التجارة نتيجة الحروب الاقطاعية التي استمرت بين زعماء الإمارات المستقلة ، كما تدهورت التجارة الخارجية نتيجة ضعف الإمارة والبحرية الأندلسية .

وانعكست هذه الوضعية الاقتصادية التمردية على الفئات الاجتماعية غير أن أكثر من تضرر هي فئة التجار الذين عانوا من انعدام الأمن كما انحطت وضعية الحرفيين نتيجة كساد الاقتصاد المحلي وارتفاع تكاليف المعيشة . كما شهدت الفترة كثرة المجاعات والأوبئة . وباختصار فد كانت الفترة الثانية من عصر الإمارة فترة أزمة متعددة الجوانب .

تلك إذن - في عجالة- أهم ما ميز عصري الولاة والإمارة بشقيها وهي ميزات كان الهدف من إبرازها تكوين الإطار العام الذي تندرج فيه النصوص التي سنوردها .

نصوص حول عصر الولاية

I- نصوص سياسية

فتح الأندلس

نص رقم 1

قال الواقدي : غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير وهو أول من غزاها وذلك في سنة اثنتين وتسعين ، فلتيه أليان وهو والٍ على مجاز الأندلس فأمنه طارق على حملة وأصحابه إلى الأندلس في السفن ، فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها وذلك في سنة اثنتين وتسعين ، وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبان وأصلهم من أصبهان . ثم إن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابا غليظا لتغريبه بالمسلمين وافتنانه عليه بالرأي في غزوه وأمر أن لا يجاوز قرطبة وسار موسى إلى قرطبة من الأندلس فترضاها طارق فرضي عنه فافتتح طارق مدينة طليطة وهي مدينة مملكة الأندلس وهي مما يلي فرنجية وأصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق حيث قفل سنة ست وتسعين والوليد مريض . فلما ولي سليمان بن عبد الملك أخذ موسى بن نصير بمائة ألف دينار فكلمه فيه يزيد بن المهلب فأمسك عنه . ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولي المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب عمر بن عبد العزيز كتباً يدعوهم بعد إلى ذلك فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب .

(البلاذري : فتوح البلدان. بيروت 1978 . ص 232 - 233) .

نصفي رقم 2 : خطبة طارق بن زياد أمام الجيوش الاسلامية يحثهم على الجهاد

لما بلغ طارق اقتراب لذريرق بجيشه القوطي الكثيف « قام في أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد أَلَقَتْ به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبداً بنفسي .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالألفة الألد طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفى من خطي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولي إنجازكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين .

واعلموا أنني أول مجيب إلى مادعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي

على طاعة القوم لئذريق فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون» .

(المقري : نفع الطيب بيروت 1968 ج 1 ص 240 - 241)

الجهاد في بلاد الغال

بعض وقوم 3

في هذه السنة وهي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أمير الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وكان هشام بن عبد الملك قد استعمل عبيدة على افريقية والأندلس سنة ست عشر ومائة . فلما قدم افريقية رأى المستنير بن الحرث الحريشي غازيا بصقلية وأقام هناك حتى هجم عليه الشتاء ثم قفل راجعا ففرق من معه وسلم المستنير في مركبه فحبسه عبيدة عقوبة له وجلده وشهره بالقيروان . ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله فغزا افريقية وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبا شديدا فكتب إليه يتهدده فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا . أما بعد فإن السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله منها للمتقين مخرجا ثم خرج غازيا ببلاد الفرنج هذه السنة وقيل سنة أربع عشرة وهو الصحيح فقتل هو ومن معه شهداء ثم إن عبيدة سار من افريقية إلى الشام ومعه من الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغير ذلك كثير واستعفى هشاما فأجابه إلى ذلك وعزله وكان قد استعمل على الأندلس بعد قتل عبد الرحمن عبد الملك بن قطن ثم إن هشاما استعمل على افريقية بعد عبيدة عبد الله بن الحبحاب وكان على مصر فسار عبيد الله إلى افريقية سنة ست عشرة ومائة فأخرج المستنير من الحبس وولاه تونس ثم إن عبيد

الله جهز جيشا مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفرا لم يظفر
أحد مثله وأصاب ماشاء ثم غزا البحر ثم انصرف .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت 1978 ، ج 4 ص 214 - 215)

الصراعات السياسية بين الولاة

نص رقم 4

« وكان كلثوم قد كتب إلى أهل الأندلس وعليها عبد الملك بن قطن الفهري يأمرهم
بإمداده والخروج إليه ، فوافاهم بلج وقد وقعوا إلى مجاز الخضراء . وتقدم عبد الرحمن بن
حبيب أمام بلج إلى الأندلس ، فقدمها وأمر عبد الملك بن قطن ألا يسمع لبلج ولا يطيعه ثم قدم
بلج فأقام بالجزيرة وكتب إلى عبد الملك بن قطن يعلمه أنه خليفة كلثوم وشهد له بذلك ثعلبة
الجدامي وأصحابه وكان الرسول فيما بينهما قاضي الأندلس فسلم عبد الملك بن قطن الولاية
لبلج على كره من عبد الرحمن بن حبيب ، فخرج عبد الرحمن من قرطبة كازها لولاية بلج ثم
إن بلجا لما قدم قرطبة حبس عبد الملك بن قطن في السجن وثار عبد الرحمن بن حبيب ومعه
أمية بن عبد الملك بن قطن فجمعا لقتال بلج فأخرج بلج بن عبد الملك من السجن وقال له :
« قم في المسجد فأخبر الناس أن كلثوما كتب إليك أنني خليفته » فقال عبد الملك : « أيها
الناس إني والي كلثوم وإني محبوس بغير حق » ف ضرب بلج عنقه ثم قدم عبد الرحمن بن حبيب
بجموع فخرج إليه بلج ومن معه من أهل الشام وكان بينهم نهر فلما كان الليل عبر عبد الرحمن
إلى قرطبة وخليفة بلج بها القاضي وقد كان القاضي اتهم بدم عبد الملك بن قطن ، فأخذه عبد
الرحمن بن حبيب فسلم عينه وقطع يديه ورجليه وضرب عنقه وصلبه على شجرة وجعل على
جثته رأس خنزير وبلج لا يشعر ثم خرج من قرطبة فقاتله بلج فانهزم عبد الرحمن بن حبيب ، ثم
جمع جمعا آخر فقتل بلج ومن معه ويقال إن بلجا لم يقتل وإنما مات موتا . حدثنا يحيى بن
بكير عن الليث بن سعد قال : « مات بلج سنة خمس وعشرين ومائة بعد قتله ابن قطن
بشهر » .

ثم افترق أهل الأندلس على أربعة أمراء حتى أرسل حنظلة بن صفوان الكلبي بأبي الخطار الكلبي فجمعهم وسأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله .

(ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والأندلس . بيروت 1964 ص 99 - 101)

II- نصوص اقتصادية - اجتماعية

فتوى الفقيه الداودي حول عدم شرعية ملكية الأرض في الأندلس في عصر الولاة

نص رقم 5

"وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام ولم تترك لمن يأتي من المسلمين فإن كان الأمر على هذا ، فالواجب على من بيده شيء من ذلك أن يعتبراً منه فيكون في مصالح المسلمين وله أن يؤدي كراه إلى المساكين فيستعملها إذا لم يكن ممن يجري في ذلك على وجهه . وقيل إن قوماً من البربر من الجيش الذين افتتحوها البلد ، عمدوا إلى موضع من الأرض التي فتحو فسألوا فيه واليهم على أن يسلموا له نصيبهم من الغنيمة فأعطاهم إياه ، فاقتطعوه فأقاموا الزمان الطويل ، ثم طولبوا بعد ذلك مع سلطان آخر فامتنعوا وحاربوا عليها حتى جلوا منها هل يحل سكناها أو شراء مارع من طعامها قال إن كان صاحب الجيش قسم باقي ما افتتح على سائر أهل الجيش وكان أعطاها ولا قدر حقوقهم أو أقل أو كثيراً بما يتغلب الناس بمثله ."

(الداودي : كتاب الأموال (مخطوط) ص 17)

« هذا ولم نزل نسمع سماع استفادة توجب العلم الضروري أن أرض الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله ، ولا استطيع أنفس الفاتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح لكن نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت ، ووقعت فيها غلبة ، قم دخل البربر الأفارقة فغلبوا على كثير من القوى دون قسمة ، ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب المعروفين بالبلدين كلما كان بأيديهم » .

(ابن حزم : الرد على ابن النغيلة اليهودي . طبعة 1960 ص 176)

« فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد منها ولدان : ابراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجي وعمير بن سعيد اللخمي ، فعني ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب ابن عمير جد بن سيد و بني حجاج وبني مسلمة وبني حجاز الجزر وهؤلاء أشراف ولد عمير بإشبيلية إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا هؤلاء وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة قام بن علقمة الوزير أو أكثره » .

(ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس طبعة ص 6)

«ولما فتحت جزيرة الأندلس ، صرف أهل الإسلام وغيرهم من اليهود همهم الى الحلول بها ، فنزل بها من سادات الناس وجرائيمهم الجم الغفير ، وأورثوها أعقابهم الى أن كان من أمرهم ماكان ، وأهلها على أربعة أجناس ، الجنس الأول بنو هاشم دخل اليها منهم الجم الغفير من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وافريقية والمغرب الأقصى ، الجنس الثاني دخل اليها من سادات العرب وجرائيمهم ومواليهم الجم الغفير من جميع البلاد التي ذكرنا ، الجنس الثالث دخل اليها من برابر المغرب وافريقية الجم الغفير ، الجنس الرابع أهلها الذين دخل عليهم المسلمون ، منهم من أسلم واستقر بموضعه ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها وبها بقية عقبه ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما ، وهذا الصنف على أجناس ، منهم الروم ، والجلالقة ، وقشتالة ، وراغون البرمدي والغريقين والينير ، والطوطين ، من الأهم القديمة ، ومنهم أهل باريس مدينة مستقر طاغية افرانصيص المنسوب الى فرنسية ، ومنهم عجم رومية ، ومنهم من كان من اليهود مستقرا بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده أو دخل اليها بعد الفتح وأسلم .

ثم ان أوصاف أحوال أهلها في استقرارهم بها ، أما بنو هاشم وفريش وبنو اسماعيل وبنو قحطان فانهم احترفوا في الحلول بها الحرف التي ليست بخاملة نحو تدريس العلم والتوريق على الكراسي وتحمل الشهادة والنساخة للكتب وتعليم الصبيان وامامة المساجد والوقوف عليها من نحو اصلاح قبض كراء ولولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة ولولاية الأمور الصالحة ، ومن احترف منهم فاحترف الفلاحة وخدمة أجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطيه وبيع بز ، وتسبب بجلبه ، وبيع عطر ، وسبك شمع ، ونسج غزل الكتان ، وبيع لبن البقر لمن يمحضه ، ومن تدقع منهم ببيع الفاكهة والخبز والخضر ، وهذا

يخص منهم أهل الحسب والحياء ، وأما أهل التصرف والشورا فانهم يدخلون في عداد الجيوش من أهل الحل والعقد .

وأما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك ، وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة ، وخدمة الأوعية أي السلل للزرع ، وقتل القنب والمحارث والبرازع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل ، والحملان في الأسواق ، وحملان الزرع الى الديار وبيعه في الأسواق ، وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذلك .

وأما من أسلم من أهلها فمن كان منهم في البادية فاكسبوا البقر والغنم والحرث والعسل ، وأهل الجبال منهم كانوا يفرسون الأجناد والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ، ومن ولي البحر منهم كان يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتها الى غير ذلك .

وأما الموالي فأما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخرازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتى وحفر قبورهم ودواء المرضى وعلاج الجرح والمرض وطحن برحا وخرط عود والقيام بالمساجد والأذان بها ورصد وقت ، وبيع لحم ، ونجارة خشب وعظم سرج ، وصنع كسوة جياد ، وسرير مكحلة ، وخدمة فخار وغيره ، وسبك حديد وآلة الحرب ، وصناعة نحاس ، ومبيت بالأسواق بالليل ، وحرس الفنادق ، وتسمير البهائم ، وحمل السلوع من بلد الى بلد .

وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يخط مع الثياب ، ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصنيفها ، وحجامة ، وبلاجة ، ودلالة بالأسواق وبيع لبن مخض وبيع واصلاح نعل مخروز .

وأما الموالي منهم فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصناعة القدور للطبخ وبيعها

وعصر الزيت وحمله ، والصابون ، وبيع ملح وحث وشحم ، وصناعة فانيذ ، وبيع أدوية وعشب وتسفير كتب ، وتجهيز الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع وصناعة منسج للحياكة ، وصناعة الصفر ، وصباغة ، وخدمة حمام ، وسقي ماء ، وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط ورغائف بقصد البيع ، وبيع صوف وكتان والات الطرب والتغني بها ، والضرب للدنانير والدرهم وحلي النساء . وخرط مرجان وبيعه ، وكراء أواني البنائين وحفر بير وتصفية معدن ، وخدمة الرخام .

والعرب الذين دخلوا اليها استقر أكثرهم بالحواضر ، وأما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن ، ومن كان من البادية استقر في القرى ، وأكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا اليها الى أن رجع أمرهم الى أمراء المغرب فأقرهم يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي على ما كانوا عليه وأيدهم بجيوش الشورا فكانوا مددا لأهل الشغور الى أن غلب الموحدون على اللمتوني فردوا أهلها نائبة لأهل المغرب ، فضعف أهل الاتدلس بسبب ذلك ، وكان عمر بن عبد العزيز نفذ فيها جباياتها لانقطاع أهلها عن أرض المسلمين وجوارهم لأهل الكفر خوفا على أهلها أن يضعفوا عن مقاومة الكفار .

(ابن الأحمر. بيوتات فاس الكبرى . الرباط 1972 ص 22 - 25)

نصوص حول عصر الإمارة

I- نصوص سياسية

نص رقم 9 دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس وقيام الإمارة الأموية بها

«لما نزل ببني أمية بالمشرق وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة وتبع بنو مروان بالقتل فطلبوا من بعدها ببطن الأرض وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب ونزل على أخواله نفرة من برايرة طرابلس وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قتل ابني الوليد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية من قبله فلقق عبد الرحمن ببغيلة ويقال بمكناسة ويقال نزل على قوم من زناتة فاحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بملييلة وبعث بدرا . موله إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأتباعهم فاجتمع بهم وشوا له بالأندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق ذلك ما قدمناه من الفتنة بين اليمانية والمضرية فاجتمعت اليمانية على أمره ورجع اليه بدر موله بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين في خلافة أبي جعفر المنصور ونزل بساحل السند وأتاه قوم من أهل اشبيلية فبايعوه ثم انتقل الى كورة رحب فبايعه عاملها عيسى بن مسور ثم رجع الى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ثم أتى مورور فبايعه ابن الصباح و نهز الى قرطبة واجتمعت عليه اليمانية وفي خبره الى والي الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا بجليقة فانفض عسكره وسار الى قرطبة وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم بالتلطف له

والمكر به فلم يتم له مراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها ثم برتدة فبايعه جندها ثم بشرش كذلك ثم باشبيلية فتوافت عليه الامداد والامصار وتسايلت المضرة اليه حتى اذا لم يبق مع يوسف ابن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصميل منه زحف اليه حينئذ عبد الرحمن بن معاوية وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف ورجع الى غرناطة فتحصن بها وأتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله ثم رغب اليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وأقنله معه ثم نقض يوسف عهده وخرج سنة احدى وأربعين ولحق بطليطلة واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر وقدم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني كان وفد عليه من المشرق وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بمصر فلما هلك سنة خمس عشرة بقي عبد الملك بمصر فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يوم الاندلس في عشرة رجال من بيته مشهورين بالبأس والتجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة احدى وأربعين فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مرور وسار يوسف اليهما وخرجا اليه فلقياه وتناجز الفريقان فكانت الدبرة على يوسف وأبعد الفز واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به الى الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وبني القصر والمسجد الجامع أنفق ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبني مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس ومهد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها ، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوار في نواحيها ، وقطع دعوة العباسيين من منابرهم وسد المذاهب منهم دونها وهلك سنة اثنتين وسبعين ومائة وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لأن أول داخل من ملوك بني مروان هو وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر بني أمية لما رأى ما فعل بالأندلس وماركب إليها من الأخطار وأنه صمد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابه ولا قوة ولا أنصار فغلب على أهلها وعلى أميرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة وإمضاء عزم ثم تحلى وأطبع وأوثق عقبه. وكان عبد الرحمن هذا يلقب بالأمير ، وعليه جرى بنوه من بعده فلم يُدعَ أحد منهم بأمير المؤمنين إذ بايع الخلافة بمقر الإسلام ومبتدأ العرب . . . » .

(ابن خلدون : كتاب العبر . طبعة بيروت 1979 ج 4 ص 120 - 122)

« ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكنى أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها زخرف ، وكان طاغيا مسرفا وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذي أوقع بأهل الریض الواقعة المشهورة فقتلهم ، وهدم ديارهم ومساجدهم . وكان الریض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل بهم ذلك فسمي الحكم الریضي لذلك .

وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاء أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع أعني صوامع المسجد وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتعادي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك ... » وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس أنه لما تُسور عليه القصر وأحس بالشر ، قال لأخص غلماناه اذهب إلى فلاة إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية . فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه فقال : يامولاي ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويليک يا ابن الفاعلة ، يَمَ يعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم ، فانهزموا وقتلوا قتلا قبيحا ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت ، وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل بعضهم إلى الاسكندرية .

(المعجب في تلخيص أخبار المغرب. طبعة البيضاء 1978 ص 33 - 35)

الموقف السياسي للفقهاء : يحيى بن يحيى الليثي

نص رقم 11

« أما بعد ، فقد بلغني كتابك عما سألت من أمانك ورجائك ، وقد بعثنا إليك بأمانك ، وأمرنا برد مالك عليك ، وتقدمنا إلى أصبغ إلحاق صاحبك بك إذا وافق ذلك حسن عائدة عليك والله المستعين »

(الحشني : أخبار الفقهاء والمحدثين (مخطوط) ورقة 38 وجه)

الموقف السياسي للفقهاء : عيسى بن دينار

نص رقم 12

« كتاب من الحكم بن هشام لعيسى بن دينار أنى أمنتته على دمه وماله وشعره وبشره ، وأذنت له في إلحاق ببلده أوجبت أحب المقام من جميع كورنا وجعلت له بذلك عهد الله جل وعز ، وذمته وذمة النبيين وذمة محمد صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء رضي الله عنهم الا أتعبه بمكرهه ، ولا أقدم له في سوء ولا أؤخر ما وفى واستقام وناصح ولم يحدث حدثا ينقص مافعلت له والله عز وجل على ذلك شهيد وبه وكيل » .

(الحشني : نفس المصدر ورقة 162 وجه)

دخول المجوس إشبيلية في سنة 220

نص رقم 13

فخرج المجوس في نحو ثمانين مركبا ، كأنما ملأت البحر طيرا جونا ، كما ملأت القلوب شجرا وشجونا . فحلوا بأشبونة ، ثم أقبلوا الى قادس ، الى شذونة ، ثم قدموا على إشبيلية ، فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا ، الى أن دخلوها قسرا ، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا . فبقوا بها سبعة أيام ، يستقون أهلها كأس الحمام . واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن ؛ فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب واتصل المسلمون به اتصال العين بالحاجب . وتوجه بالخيل عبد الله ابن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرف . وكتب الى

عمال الكور في استنفار الناس فحلوا بقرطبة ، ونفر بهم نصر الفتى . وتوافت للمجوس مراكب على مراكب ، وجعلوا يقتلون الرجال ، ويسبون النساء ، ويأخذون الصبيان ، وذلك بطول ثلاثة عشر يوما . ذكر ذلك في « بهجة النفس » وفي كتاب « دور القلائد » سبعة أيام ، كما تقدم . وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم ثم نهضوا الى قبطيل ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ودخلوا فورة على اثني عشر ميلا من اشبيلية ، فقتلوا من المسلمين عددا كثيرا ، ثم دخلوا الى طلياطة ، على ميلين من اشبيلية ، فنزلوها ليلا ، وظهرها بالغداة بموضع بالفخارين ، ثم مضوا بمراكبهم ، واعتكروا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى ثم عادوا الى مراكبهم . ثم نهضوا الى شذونة ، ومنها الى قادس ، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده ، فدافعهم ودافعوه ، ونصبت المجانيق عليهم ، وتوافت الأمداد من قرطبة اليهم . فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة عالج ، وأصيب لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها من الفياء . ثم كانت الوقعة عليهم بقرية طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة ، قتل فيها منهم خلق كثير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا . وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير ، ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها ، وركب سائرهم مراكبهم ، وساروا الى ليلة ؛ ثم توجهوا منها الى الأشبونة فانقطع خبرهم .

وكان احتلالهم بإشبيلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة 220 وكان بين دخولهم الى اشبيلية وخروج من بقي منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما ، فقتلهم الله وأبادهم ، ويزد عددهم وأعدادهم ، وقتل أميرهم نقمة من الله وعذاها ، وجزاء بما كسبوا وعقابا . ولما قتل الله أميرهم ، وأفنى عبيدهم ، وفتح فيهم ، خرجت الكتب الى الآفاق بخيرهم . وكتب الأمير عبد الرحمن الى من بطنجة من صنهاجة ، يعلمهم بما كان صنع الله في المجوس ، وما أنزل فيهم من النعمة والهلكة ، وبعث اليهم برأس أميرهم ويمائتي رأس من أنجأدهم.

(ابن عذاري :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .طبعة بيروت 1980 ص87-88)

II- نصوص اقتصادية - اجتماعية

الملكية العقارية لبعض الفقهاء في مجريط

نص رقم 14

« قال أحمد : ففعلت ذلك ، فلما نزل بمجريط لحقته بها ، فاجتمع الناس عليه لقراءة العلم حتى شكى إلي ذلك . وقال : كنت خرجت وأنا أرجو أن أخلو في هذا الموضع للقرآن بأمر من هؤلاء فقلت له هذا أمر يأجرك الله فيه قال أحمد وكان مبتذلاً متواضعاً يحترث بيده ويحصد وينقل الزبل ويخدم في خدمته كلها . وكنا نقرأ عليه في فدادينه وأندره . وكان من أحفظ الناس للمدونة وأضبطهم لها .

(مؤلف مجهول : كتاب طبقات المالكية (مخطوط) ص 97)

التملص من كتابة عقود ملكية الأرض

نص رقم 15

« . . . وطن (1) أن الوصية إليه خرجت فدخل عليه ، فلما جلس قال له بحدّة أنتي ابتعت جنانا من هذا وأحببت أن تعقد لي الوثيقة ، فقال له قاسم فأنت بعثت في لهذا . قال نعم فقال قاسم إنا لله وإنا إليه راجعون على ما رجعنا إليه بالله الذي لا إله إلا هو وعلى المشي إلى مكة أو كيف حلف متى كتبت لك وثيقة أو لأحد من خلق الله حتى أموت ثم خرج فترك كتابة الوثائق فأخذته بإثر ذلك علة » .

(مؤلف مجهول : نفس المصدر : ص 103)

1- الإشارة هنا إلى اللقبه قاسم بن محمد بن قاسم الذي عاش في أواخر عصر الإمارة .

«اشبيلية : بالكسر ثم السكون ، وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة : مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضا ، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريه ، وبها كان بنو عباد ، ولقاهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا . وكانت قديما فيمايزعم بعضهم قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيهم الأعظم وأما الآن فهو بطليطلة واشبيلية قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه وما فاقت به على غيرها من نواحي الأندلس زراعة القطن فإنه يحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب ، وهي على شاطئ نهر عظيم قريب في العظم من دجلة أو النيل ، تسير فيه المراكب المثقلة يقال له وادي الكبير ، وفي كورتها مدن وأقاليم تذكر في مواضعها ، ينسب إليها خلق كثير من أهل العلم منهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب الإشبيلي وهو قاضيا . مات سنة 267 هـ .»

(ياقوت : معجم البلدان . طبعة بيروت (دون تاريخ) ج 1 ص : 195)

«ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها ، وأنهار جارية مخترقه ، ودواليب دائرة ، وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية في آخر المغرب وفي هذا الجبل من البقر والغنم الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولا ، بل في نهاية من السمن ويضرب بها في ذلك المثل في جميع أقطار الأندلس

الإدريسي : القارة الافريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق. طبعة

الجزائر 1983 ص 276 .

الصراع بين العرب والمولدين من خلال نازلة فقهية

نص رقم 18

« قال أحمد بن خالد دخلت عليه أعوده وهو مريض إذ أتاه رسول الوزراء فذكر علقته وما هو فيه فعادت الرسل وقيل له لا بد من المسير إلى الوزراء ولو حملت على الأعناق فمضى إليهم عن الأمير عبد الله بالخروج إلى جيان فاعتذر بعلته فلم يعذر وكان أهل جيان قد أخرجوا وقتلوا منهم فأمروا بالخروج لامتحان خبرهم وسماع حججهم فخرج وهو بتلك الحال من العلة فأتى جيان فناظر القوم لما أخرجوا العرب وسفكوا دماءهم فلم تكن عندهم حجة غير أن قالوا إنهم كانوا يسعون بنا إلى العمال فانصرف إلى الوزراء وأعملهم أنهم لاجحة لهم فقالوا له قد حلت لنا أبا محمد حربهم فما تقول في ذلك فقال لهم قاسم ياهؤلاء إن كنتم تحاربون من خرج عنكم برأي أهل العلم أعلمناكم بما يجب وإن كنتم تحاربون على تدبير ملككم وإقامة سلطانكم فلا معنى لسؤالنا نحن عن هذا فأما رأينا نحن ومذهب العلماء وإجماعهم أن من حارب فمن وجبت حربه لشقه العصا وخروجه أن لا يجهز على جريح ولا يتبع مدبر ولا يأخذ مال مسلم فإن حاربتهم على هذه الشروط فذاك .

(مجهول : كتاب طبقات المالكية (مخطوط) ص 104)

ثورة عمر بن حفصون

نص رقم 19

« ثم ولي المنذر بن محمد يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومات يوم السبت في غزاة له على ببشر لثلاث عشر بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أشد الناس شكيمة وأمضاهم عزيمة . ولما ولي

الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة فردها عليهم وقال : استعينوا بها في حركم فأننا سائر إليكم إن شاء الله . ثم غزا المارق المرتد عمر بن حفصون وهو بحصن قامرة فأحرق به ويخيله ورجله فلم يجد الفاسق منفذا ولا متنفسا فأعمل الحيلة ولاذ بالمكر والخديعة ، وأظهر الإنابة والإجابة وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده ، وسأل إلحاق أولاده في الموالي فأجابه الأمير إلى كل ما سأل وكتب لهم الأمانات ، وقطعت لأولاده الثياب ، وخزنت لهم الخفاف ، ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله ومتاعه إلى قرطبة ، فأمر الأمير بها وطلبت البغال ومضت إلى ببشتر وعليها عشرة من العرفاء ، وانحل العسكر عن الحصن بعض الانحلال وعكف القاضي وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما حسبوا فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها ففسق ليلا وخرج فلقى العرفاء بالبغال فقتلهم وأخذ البغال وعاد إلى سيرته الأولى . فعقد المنذر على نفسه عقدا أن لا أعطاه صلحا ولا عهدا إلا أن يلقي بيده وينزل على عهده وحكمه ثم غزاه الغزاة التي توفي فيها ، فأمر بالبنيان والسكنى عليه وأن يرد سوق قرطبة عليه فعاجله أجله عن ذلك .

(ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد. طبعة القاهرة 1962 ج 4 ص 496 - 497)

حركة ابن القط

نصه رقم 20

«أحمد بن معاوية بن محمد بن هشام بن معاوية بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أبو القاسم المعروف بابن القط . ومحمد بن هشام جده هو المنبئ بذلك وكان جميل الوجه فيه يقول ابن أيوب القرشي :

أعجوبة ما سمعت قط * قالوا : رشأ والده قط
قد قلدوك السيف ياسيدي * والقرط أولى بك والمِرط

وكان أحمد هذا من أهل العناية بالعلم والصناعة والنجامة ومعرفة الهيئة . وكانت له حركة وفيه شراسة . وخرج في أيام الزمير عبد الله بن محمد أوان ارتجاج الفتنة بطلب الدولة ويظهر الحسبة والرغبة في الجهاد . إلا أنه كان يتكهن ويمول .

واجتمع إليه خلق عظيم - يقال إنهم بلغوا بين خيل ورجل ستين ألفا أكثرهم من برابر الجوف والغرب ومن أهل طليطلة وطلبيرة ، قصد بهم سمورة وكتب إلى الطاغية ملك جليقية ومن معه كتابا مغلظا يدعوهم فيه إلى الإسلام وينذرهم بالصاعقة وأمر رسوله أن يستعجل منهم الجواب ، ولا يتوقف عندهم ، وإن هم أبوا من محاربتة أن يعود بالخبر إليه ونسخة كتابه ذلك مشهورة عند أهل الشجر لبلاغته فحمي الطاغية عند ذلك ونشب القتال فخذله رؤساء البربر ، وثبت هو فيمن بقي معه من أهل البصائر حتى قتل في اليوم الرابع واستوصل أصحابه إلا قليلا ، وحز رأسه وجيء به إلى الملك فنصبه على باب سمورة ، وعظمت المصيبة بكثرة من قتل من المسلمين وهذه الواقعة تعرف عند أهل الشجر بيوم سمورة . وكانت سنة ثمان وثمانين ومائتين .»

(ابن الأبار : الحلة السراء . القاهرة 1963 ج 2 ص 368 - 370)

الخطط الإدارية وأهمية العنصر الصقلبي

نص رقم 21

« عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم . قال : كان عيسى هذا منقطعا إلى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحكم مؤملا له ، فلما أفضى الأمر إليه أزلفه به ، وقدمه في عليّة خاصته ، وصرفه في عليّ مراتبها ، فولاه خطة الخيل ، ثم استوزره ، وولاه النظر في المظالم وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ، ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه ، واستحضه دون أصحابه . وكان أهلا لإيثاره إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة ، وهم متوافرون ، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والخصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة وقد قاد

بالصوائف ، فأحدثت سياسته وكانت له في التدبير آراء صائبة ، وفي الحروب مقاوم كريمة و تهيأت له على العدو وقائع مشخنة .

وكان نصر الخصي خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب عليه من بين سائر أكابر خدمه المظاهر لحظيته طروب الغالبة عليه من بين نسائه قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه ، وشرك في تدبير سلطانه وهو شاحن لحاجبه عيسى عامل في إقصائه ، فتسنى له ذلك عندما اعتل الأمير عله الطويلة التي حجه فيها نصر ، وأنفذ عليه أمورا منكرا منها صرفه لعيسى هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الأمر عن موله بصرف عيسى عن الحجابة وإقراره على خطة الوزارة وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانة .

(ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس. طبعة القاهرة 1971 . القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط ص 166)

مظاهر من خطة القضاء والحياة الاجتماعية (ملابس، أطعمة...)

سبعون رقم 22

«وأما سعيد بن سليمان الأندلسي فإنه ولاه قضاء قرطبة أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ، أحسبه في سنة أربع وثلاثين ومائتين - والشك مني - فلم يزل قاضيه إلى أن مات الأمير عبد الرحمن سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وولى الأمر بعده ابنه الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، فأقره على القضاء وعمل له نحو سنتين إلى أن مات بقرطبة ، وهو على قضائه . ولا أعلم له عقباً .

وذكر عن أحمد بن عبد الله بن أبي خالد أن الأمير عبد الرحمن اختاره لجميل الشناء عليه ، وأرسل فيه يستدعيه للقضاء ، فجلس للحكم في المسجد ، وعليه جبّة صوف بيضاء ، وفوق رأسه قلنسوة بيضاء من فضل جبّته ، فلما أن نظر إليه الوكلاء الذين يخاصمون عن

الناس عند القضاة ازدروا واستغفروا ، وطلبوا الإنذار فيه ، فجاءوا في مغيبه عن المسجد بقفة مملوءة من قشور البلوط ، ووضعوها تحت الحصر الذي كان يجلس فوقه فلما افترشه عند استواء جلوسه أقض عليه وتوحش من صوت احتكاكه ، فتحول عنه ، ونظر إلى القشور ، فأنكر مكانه ، وجلس على ملل بذلك ، وذكر له أن الوكلاء فعلوا ذلك وصح عنده ما قيل له فيهم .

فلما أتوه من بعد ذلك قال لهم : يامعشر الخصماء ، غيرتموني بأنّي بلوطي ، وذلك ما لاخفاء به ! أشهد على نفسي أنني بلوطي : عود والله صليب لا تفلون فيه . ثم حلف لهم بأثر كلامه هذا أن لا يخاصموا عنده سنة ، فكاد أن يورثهم الفقر ...» .

(ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس . القطعة الخاصة بعصر عبد الرحمن الأوسط ص 189 طبعة القاهرة 1971)

المجاعة بالأندلس عي عهد عبد الرحمن الأوسط

نص رقم 23

«وقال ابن هشام الشيبينسي : نالت أهل الأندلس مجاعة شديدة صدر أيام الأمير عبد الرحمن سنة سبع ومائتين وكان سببها انتشار الجراد بالأرض ولحسه الغلات وتردده بالجهات ، فنالت الناس مجاعة عظيمة كفى حدها الأمير بإطعام الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة فيهم باسم أيوب العابد المستجاب بعد أن تصفح وجوه الناس حوله فلم تقع عينه عليه ، فنادى باسمه مستحلفا له بالله أن يبرز إليه فلما أكثر من الإرجاف به ، برز ودنا منه ، فاجتهد يحيى في الدعاء وأيوب يؤمن وينادي ربه فسقي الناس ليومهم وغاب أيوب فلم يظهر .» .

(ابن حيان : نفس المصدر ص 225)

سبل بالأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط سنة 235 هـ

نص رقم 24

« وفيها ، كان سبل عظيم بجزيرة الأندلس حمل وادي شبل ، وخرق قوسين من حنايا قنطرة استجة ، وخرق الأسداد والأرجاء ، وذهب السبل بست عشرة قرية من قرى إشبيلية على النهر الأعظم ، وحمل وادي تاجه فأذهب ثمان عشرة قرية ، وصار عرضه ثلاثين ميلا » .

(ابن عذاري : البيان المغرب طبعة بيروت 1980 ج 2 ص 89)

ظاهرة ادعاء النبوة

نص رقم 25

« وفي سنة 237 ، قام رجل من المعلمين بشرق الأندلس ، فادعى النبوة ، وتأول القرآن على غير تأويله ، فاتبعه جماعة من الغوغاء ، وقام معه خلق كثير . وكان من بعض شرائعه النهي عن قص الشعر ، وتقليم الأظافر ويقول : لا تغيير لخلق الله فبعث إليه يحيى بن خالد ، فأتى به فلما دخل عليه كان أول ما خاطبه به أن دعاه إلى اتباعه والأخذ بما شرع ، فشاور فيه أهل العلم ، فأشاروا بأن يستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل فقال كيف أتوب من الحق الصحيح . فأمر بصلبه فلما رفع في الحشبة قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله فصلبه وكتب إلى الأمير يخبره » .

(ابن عذاري : نفس المصدر ص 90)

خطة الشرطة

نص رقم 26

« إبراهيم بن حسين بن خالد من أهل قرطبة يكنى أباه إسحاق وهو ابن عم عبد الله بن محمد بن مرتنيل . كان حافظا للفقهاء ، وولي أحكام الشرطة للأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه

الله وله رحلة إلى المشرق لقي فيها علي بن سعيد وعبد الملك بن هشام صاحب المشاهد ومطرف بن عبد الله صاحب مالِك بن أنس وله كتاب مؤلف في تفسير القرآن روي عنه وتوفي في شهر رمضان سنة تسع وأربعين ومائتين . قاله أحمد .

(ابن الفريسي : تاريخ علماء الأندلس . طبعة القاهرة القسم الأول ص 8)

الدية المفروضة على القاتل وظاهرة الصنائع

مصر رقم 27

قصة الكنانى مع هشام بن عبد الرحمن - رحمه الله

كان قبل خلافته يقعد في عليّة مظلة على النهر ، ينظر منها الى الرّيض ، وتقع عينه على من يخطر ، فنظر يوما في الهاجرة الى رجل من بني كنانة ، وكان من صنائعه ، مقبلا من باديته بجبان ، وكان أخوه سليمان واليا عليها ، فدعا فتى له وقال له : « أرى الكنانى صنيعنا مقبلا في هذه الظهيرة ، وما أحسب ذلك إلا لحطّيب أقلقته من أبي أيوب أخي . فإذا وصلك ، فأدخله على كما هو » ففعل الفتى ما أمره وكانت مع هشام جارية له . فلما دنا الكنانى ، رفع ستره كان أمامه ، فدخلت الجارية خلفه ، ثم قال له ، بعد أن سلم عليه : « يا كنانى ، لا أحسبك إلا قد دهمك أمر ! » فقال له الكنانى : « قتل رجل من بني كنانة رجلا خطأ ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخذت بنو كنانة عامة ، وحيث علي من بينهم خاصة ، لما عرف أبو أيوب مكانى منك . فعذت بك من ظلامتى ! » فقال له : « يا كنانى ! ليفرج روعك وليسكن جأشك لا جرم قد تحمل هشام عنك وعن قومك جميع الدية ! » ثم مد يده الى خلف الستر ، فأخرج عقدا كان على الجارية ، ثم ثلثة آلاف دينار ، فقال له : « خذ هذا العقد ، فأد من ثمنه عنك وعن قومك ، وتوسع في الباقي ! » فقال الكنانى : « ياسيدي ! إنه لم آتك مستجديا ولا ضاق لي مال عن أداء ما حملته ، ولا كنى أتيتك مستجيروا بك لما أصبت بالعدوان والظلم ، فأحببت أن تظهر على ماعز نصرى ! » قال له : « فما وجه نصرى ؟ »

قال له : « أن يكتب الأمير - أصلحه الله ! - الى أبي أيوب في الإمساك عن أخذي بما لم يجب على ، وأن يحملني محمل عامة أهلي ! » فقال له هشام : « خذ العقد لأهلك ولنفسك ، الى أن يبسر الله فيما ذهبت اليه من أمرك ! » . ثم أمر هشام بإسراج دابته من فوره ، وركب الى أبيه الأمير عبد الرحمن . فلما مثل بين يديه ، قال له : « رجل من بني كنانة ، هو لي صنيعة ، عدا عليه أبو أيوب بجيان في دية حملت على العاقلة ! » قال الأمير : « فما تحب في أمره ؟ » قال : « الكتب اليه بالكف عنه ، وأن لا يؤخذ بغير ما لزمه ! » فقال الأمير : « أو خير من ذلك ! يؤدي الدية عنه وعن قومه من بيت المال ، إذ هو منك بهذه المنزلة ، وإذ أنت له بهذه العناية ! » فأكثر هشام الشكر لوالده ، ثم أمر الإمام بأداء الدية من بين المال ، وبالكتب الى أبي أيوب بترك التعرض للكناني . ولما حان توديع الكناني لهشام ، قال له : « ياسيدي ، إني قد بلغت فوق الأمنية ، وجاوزت أقصى غاية العز والنصرة ! وهذا العقد النفيس قد أغنى الله عنه : » فقال له هشام « ياكناني ، إني لا سبيل الى رد شيء قد خرج عنا ، وخذه مباركا لك فيه » .

وهشام هو الذي أكمل سقائف المسجد الجامع بقرطبة ، ورفع منارته القديمة ، وبنى الميضاة العجيبة ، وعقد من الجسر ما كان تثلم بالسيل - رحمه الله ! .

(ابن عذاري : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب. بيروت 1980 ص 67 - 68)

نصي وقيم 28 إقطاع الأراضي لبعض العناصر الأموية القادمة من المشرق

« زهير بن مالك البلوي من أهل قرطبة يكنى أبا كنانة . كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية رحمهم الله . وذكر ابن حارث أن عبد الملك بن حبيب كان يعذل أبا كنانة على انحرافه عن مذهب أهل المدينة وتقسكه برأي الأوزاعي فكان يقول له : حسدتنني إذا انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد . وكان زهير بن مالك

مضطربا في السكنى بين باجة وفحص البلوط إذ كان لجده عدي بن خزيمة إقطاع من قبل عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله لفحص البلوط وهي تنسب إليه وولده يعرفون : بني أبي الأفلاح . توفي زهير بن مالك رحمه الله في صدر أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه الله من كتاب ابن حارث بخطه . .

(ابن الفرزي : نفس المصدر ص 153)

نازلة حول تحول الأحرار إلى عبيد وبيعهم في الأسواق إبان
عصر الإمارة الأخير

نص رقم . 29

« وفي مسائل ابن زرب في ذلك في عبد بيد رجل من كان له ملكا وجعل الإثبات على السيد وقال : قد ائتميت بهذا فيما بيع في بلاد الغش إذ كان الغالب فيه بيع الأحرار وبذلك كان شيوخ بلدنا يفتنون فيما بيع ببلد ابن حفصون كانوا يكلفون إقام البيئة على صحة ابتياعه بأن المملوك كان ملكا لبائعه . وقد ذكر ابن عتاب هذا من اتفاق الشيوخ على ذلك أنه كثر بيع الأحرار في فتنة ابن حفصون قال : فنزلت بأبن عبد الرؤوف صاحب المظالم بقرطبة لعبد الله من ذلك مسألة ادعت مملوكة أنها حرة وأنها من يابرة فوقفت أياما ثم رجعت عن دعواها وقالت كذبت مملوكة فشاور في ذلك فقالت طائفة كل يسمع رجوعها كل بها قد استحقت حررتها بدعواها فليس لها أن تزور نفسها وقالت طائفة يسمع منها وتبقى مملوكة لسيدها قال وهو رأيي وبه أفتيت . »

(ابن سهل : نوازل الأحكام (مخطوط) ص 56)

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم الثاني



عصر الخلافة

عصر الخلافة

يمثل عصر الخلافة بالأندلس ذروة الازدهار الحضاري بالغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط . ففضلا عن تحقيق وحدة الأندلس ، وترسيخ المركزية السياسية ، تمكنت الخلافة الأموية من دعم نفوذها في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعبر شرايين التجارة العالمية نحو بلاد السودان جنوبا ، والبلاد الاروبية شمالا ، والجناح الشرقي لدار الاسلام . في حين أسفرت النهضة الصناعية الحرفية التي تحققت خلال هذا العصر ، وتعاظم النشاط التجاري ، وشيوع التداول النقدي عن حدوث نمو مديني يثير الانتباه . وعلى المستوى الاجتماعي أفضى انحلال الروابط القبلية والعشائرية والطائفية الى خلق شروط مجتمع أرقى واعادة صياغة العلاقات على أسس طبقيّة . وبالمثل ساهم التسامح الديني والمذهبي في توفير المناخ المناسب لنهضة ثقافية نموذجية . اغلب المؤشرات اذا تصب في اتجاه ابراز عصر الخلافة باعتباره مرحلة متميزة في سياق التاريخ الاندلسي . ويمتد هذا العصر منذ اعلان الخلافة بقرطبة من طرف عبد الرحمن الناصر سنة (316 هـ / 928م) الى حين اتفاق الجماعة على الغائها سنة (422 هـ / 1031م) قرابة قرن من الزمن .

نجح عبد الرحمن الناصر منذ اعتلائه سدة الحكم سنة (300 هـ / 912م) في القضاء على التمزق السياسي الذي كاد أن يعصف بالامارة الأموية ، كما أفلح في تعطيل دور الجند المنتزعي بالكوبر واعادة بسط سلطة قرطبة على أقاليم الاندلس وثغورها . لتدعيم هذه المنجزات وضمان استمرارية المركزية السياسية ، عمدت الخلافة الى تقوية جيش الحضرة المركزي الذي احتضن اعدادا هامة من الصقالبة ، وتغليب الارتزاق في الديوان كاسلوب للتعامل مع الجند بدل اقطاع الارض .

كما طالت الاصلاحات الجهاز الاداري الذي اختلف عن سابقه حجما وطبيعة . وبواسطة

قرارات العزل والمصادرة التي كثيرا ما مست رجال الدولة والوزراء ، والكتاب نجحت الخلافة الاموية في ترويض الخطط الادارية التي فقدت تدريجا سلطاتها التقريرية لتصبح مجرد أدوات طيعة في يد الخلفاء . على غرار العلاقة بالجند ، أصبح العطاء النقدي والمرتبات الشهرية أساس التعامل مع هذه الاجهزة المستجدة . بالموازاة لذلك اندرجت سياسة الخلافة على فصل المهام العسكرية عن المهام الادارية والجباية .

في ظل هذا المناخ ، لم يعد بمقدور القيادات العسكرية والمتنفذين في خطط الدولة تزعم حركات التمرد والانتزاع الاقليمي التي طالما اقلقت مضاجع أمراء بني أمية خلال العصر السابق .

ولتدعيم نفوذها في العالم الخارجي ، لم تتوان الخلافة الاموية عن ارسال الحملات العسكرية الى بلاد المغرب فيما عرف بالصراع الأموي - الفاطمي - للهيمنة على شمال افريقيا . وغدا انفاذ الصوائف والسترايا عنصرا ثابتا في سياسة قرطبة تجاه ممالك الشمال المسيحية . لم يكن الاسطول الحربي أقل حزما ، فلقد انطلقت الغارات على سواحل بلاد الفرنجة والمناطق المخالفة حتى غدا الحوض الغربي للبحر المتوسط منطقة نفوذ أموي بلا منازع . وتحقيقا للمزيد من النفوذ ، عمدت الخلافة الاموية الى ربط العلاقات الدبلوماسية ، ليس مع البلدان الكبرى كبيزنطة وامبراطورية الفرنجة فحسب ، بل ومع عدد من الممالك والامارات الصغيرة التي أوفدت سفاراتها الى قرطبة طلبا للصلح والالفة . هكذا تبوأ الاندلس في ظل نظام الخلافة مكانة الصدارة على الصعيد العالمي .

وخلال هذا العصر ، شهدت الاندلس تطورات هامة مست الاساليب والتقنيات الفلاحية حتى اشتهر الاندلسيون بكونهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة . بلغ الانتاج الفلاحي من الضخامة ، والمساحات المزروعة والمستقبة من الشساعة أن قيل ان الدولة الأموية بركت وسط المرعى . وعلى عكس ما ساد العصر السابق من حالات الاغتصاب والتملك الغير الشرعي

للأرض ، والاحتكام للقوة والغلبة ، لم تدخر الخلافة الأموية وسعا في ردع مختلف أشكال التجاوزات ، وفرض احترام الجميع للتشريعات الفقهية المنظمة لوضعية الأرض القانونية . إن تعطيل دور الجند والقوى المتنفة بالأقاليم ساهم في تحرير الفلاحين من الالتزامات السابقة ، وغدوا ملزمين فقط بالواجبات الشرعية تجاه بيت المال من خراج وجزية وزكاة فضلا عن المغارم والمكوس التي صدرت بشأنها مرارا قرارات التخفيف وفقا بالرعية .

كنتيجة للازدهار الاقتصادي الشامل ، بلغ النمو الحضري ذروته . تجلّى ذلك في اتساع مختلف المدن الاندلسية القائمة حجما وكثافة ونشاطا ، أصبحت قرطبة بأرياضها التي نبقت عن واحد وعشرين ريبضا ، وبضخامة ساكنتها ، حاضرة عظمى قلما يوجد لها نظير . كما أسست مدن جديدة مثل الزهراء والزاهرة وتألفت المرية التي بلغت شهرة ميناها الآفاق البعيدة . احتضنت هذه الحواضر من الدروب الحرفية والأسواق التجارية والفنادق ومصارى الكراء والحمامات والمطاعم ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نموذجية . ساهمت عملية اصلاح الطرق التي باشرتها الخلافة الأموية وشن مسالك جديدة واقامة الجسور واستصلاح ماتهدم من قناطر ، في ارساء بنية تحتية تجارية متينة ، مركزها قرطبة وشرابيينها تغطي مجموع البلاد ، لتمتد آفاقها عبر الموانئ فيما وراء البحار الى أقصى هوامش العالم . وتنشيطا للمبادلات لم تتوقف دور الضرب طوال عصر الخلافة عن اصدار الدراهم الفضية والدنانير الذهبية والتي اشتهرت بجودتها وحسن عيارها حتى غدت نموذجا للسك لدى العديد من الممالك الاسلامية والمسيحية .

على المستوى الاجتماعي ، تميز عصر الخلافة بالاندماج العميق الذي حدث فيما بين مختلف العناصر الاثنية والطائفية (العرب ، البربر ، المستعربون ، المولدون ، اليهود ، الصقالبة) فتشكلت على اثر ذلك معالم الهوية الاندلسية واتضحت . في حين أصبحت الصراعات القبلية وحركات الاستخفاف المستعربية وتمردات المولدين من ذكريات الماضي ، لتحل محلها صراعات ذات مضامين طبقية (عامة - خاصة) ومذهبية (الحركة المسرية) معبرة

عن تحولات عميقة في أسس المجتمع الاندلسي . مما ساعد على ذلك ، فضلاً عن العوامل الاقتصادية وتراجع أهمية النسب والروابط العشائرية ، مناخ التسامح والتفتح الديني والمذهبي والعربي الذي عمل الخليفين الناصر والمستنصر كل ما في وسعهما لترسيخه .

على الصعيد الفكري ، تجلّت هذه السياسة في عدة مظاهر ، أبرزها اسناد خطط ذات أهمية كبرى في الدولة للمعتزلة الذين نعموا بهطف وتقريب الخلفاء رغم سيادة السنة . كما سمح لبقية المذاهب الفقهية بالمشاركة في الحياة الدينية والسياسية رغم كون المالكية مذهباً رسمياً للدولة . لذلك تمكنت أندلس الخلافة من الاسهام بفعالية في اثراء الفكر العربي - الاسلامي ، وأصبحت قرطبة بمكتباتها الشهيرة ومثقفها ومجالسها العلمية منارا للاشعاع الثقافي والحضاري .

بوفاة الحكم المستنصر سنة (366 هـ / 976 م) بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة الاموية . فلقد تمكن محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور في خضم الصراعات التي انفجرت بين أجنحة الارستقراطية الحاكمة من اقضاء القوى المتكالبية على الحكم ، والحجر على الخليفة هشام الثاني المؤيد لفرض الدكتاتورية العامرية ، التي بقدر ما عملت على تدعيم سطوة الدولة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، بقدر ما ساهمت في توفير عوامل الانتفاض والثورة . تجلّى ذلك في محاربة الفكر المستنير ومطاردة الفلاسفة والمعتزلة واتلاف ذخائر مكتبة الحكم المستنصر الذائعة الصيت . كما فتحت أبواب الاندلس للقبائل البربرية العدوية التي اكتسحت الدواوين العسكرية وتطلعت الى المزيد من النفوذ والسطوة .

لم يتمكن عبد الملك المظفر ولا خلفه الحاجب عبد الرحمن شنجول توقيف عجلة التردّي والانكفاء ، مما عجل بانفجار الاوضاع بقرطبة على اثر ثورة العامة واسقاط الحجابة العامرية سنة (399 هـ / 1009 م) وتعتبر هذه الثورة التي حركها الباعة والحرفيون احدى أكبر وأهم الثورات المدنية في العصور الوسطى . تداخلت الصراعات بعدئذ تارة بين الخاصة والعامة ،

وتارة بين هؤلاء جميعا والجند البريري ، وطورا فيما بين الطغمت العسكرية ، وهي الفترة التي اصطلح على تسميتها بعصر الفتنة. وبعد عجز الجميع عن ايجاد حل لهذه الازمة وبأسهم من امكانية التعايش في ظل نظام الخلافة اتفق الرأي بقرطبة علي الغائه سنة (422 هـ / 1031 م) وكان ذلك ايدانا ببداية عصر الطوائف .

ولعل في هذا التقديم المقتضب ما يساعد على تكوين تصور عام عن خصائص عصر الخلافة الذي ترتبط به النصوص التي سنوردها ضمن هذا القسم .

نصوص سياسية

قرار اعلان الخلافة الاموية بالاندلس

نص رقم 1

«بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، وليس من كرامة الله ما البسه ، للذي فضلنا الله به ، وأظهر اثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، وسر على ايدينا ادراكه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الافاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، واعاد من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي النعمة والانتعاش بما انعم به ، واهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ووردها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا ان التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق اضعنائه ، واسم ثابت اسقطناه . فامر الخطيب بموضعك ان يقول به ، واجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس ليلتين خلتا من ذي الحجة سنة 316 «

(ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب : تحقيق كولان /

بروفنسال : دار الثقافة : بيروت 1980 : ج 2 : 198 - 199) .

«وقد كان المنصور بن ابي عامر ، على دقة شأنه قبل ، ولانه لم يكن من أهل بيت المملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام يداهته ومخرقته على العامة ، مع ما هيأت السعادة له وكان اقوى الاسباب في سلطانه . وقد ذكر بعض اهل العلم بالتنجيم انه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان اعظم الاسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، واظهاره الانخضاع له في جميع ما يأتي ويذر الى طاعته واقامة أوده ، وتولييه الحجابة والوزارة ، واخمائه لاهل الدولة الحكمية ، وتقصيمهم بالقتل ، متأولا في ذلك أن دولته تصفو به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وايشار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى - ولو أن أحدا اشتهر ببعض ما اتى هو به دون تعلق بسبب أو اظهار طاعة ، لكان قتل من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة - الى أن ورث الامر ابنه من بعده ، فسار المنصور باحسن سيرة وأحمد طريقة ، وكانت له في بلاد العدو فتكات نال الاسلام في ايامه عزا ما كان بالاندلس مثله ، وأذل ما كان النصارى عليه .

وتوقع المنصور من اجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، اذ كانوا صنفا واحدا ، وتألبهم على معصية أمره ، متى امر بما أجبروا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة : ان هم احد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه الى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحمايتها وأنجدها من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصلون ابن ابي عامر على العدو . وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء . وكان أدهاهم رأيا

وأبعدهم همة زاوي بن زيري عمتا ، ويعدده حبوس بن ماكسن ابن أخيه - رضي الله عنهما -
فاليهما كان الرأي والمشورة في الامر ، والحكم على من دونهم من الاجناد .

فرتب ابن ابي عامر الرتب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة
على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الاندلس ، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم
بالغزوات عن عمارة ارضهم ، ولم يكن القوم اهل حرب ، فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة
ارضهم ، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من الاجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق
ورضى منهم . فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها
عليهم وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش . فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى أن عمت الاندلس
عدة الشوار واتبعوهم على تلك الاثار . ودأبه في ذلك انما كان على ما وصفناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والمواشي ،
يقسمون ذلك على المساكين بكل بلدة ، ولم يكن الوالي يقرب من ذلك الا ما يقيم به الجيش
والدولة التي هي قيام العالم ، ولولا حماية السلاطين للرعية ، وعز دولهم وذبحهم عنهم ، ما
طاب لهم عيش ولا عز بهم قرار . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأول الخير . ولم تزل
الاندلس قديما وحديثا عامرة بالعلماء والفقهاء واهل الدين ، واليهم كانت الامور مصروفة ، الا
ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده من الاخذ من واحد ودفعه لآخر ، لينخل بذلك عسكره
ويتخير أفضله ... فيه للمسلمين كفاية وعدة ، اذ كانت الاموال التي يعطونها من غير
اصولهم ، ولا اكتسابهم ، انما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من
مظلمة أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فانما كان لقاضي البلدة .

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينة وتحصن في
حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذ العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،
وطمح كل واحد في الآخر .

(مذكرات الامير عبد الله بن بلقين المسماة بكتاب التبيان تحقيق ليفي بروفنسال:

دار المعارف : القاهرة : 1955 : 15 - 18) .

«وحدث من سمعه يوصي ابنه عبد الملك في مرضه الذي مات فيه فقال له : يا بني
لست تجد أنصح لك وأشفق عليك مني فلا تعددين وصيتي فقد جردت لك رأيي ورؤيتي على
حين اجتماع من ذهني فاجعلها مثالا بين عينيك وقد وطأت لك مهاد الدولة وعدلت لك طبقات
أوليائها وعائرت لك بين دخل المملكة وخرجها واستكثرت لك من أطعمتها وعددها وخلفت لك
جباية تزيد على ما يقويك بجيشك وينفقتك فلا تطلق يدك في الاتفاق ولا تقضي لظلمة العمال
فيختل أمرك سريعا فكل سرف راجع الى اختلال لا محالة فاقصد في أمرك واستثبت فيما
يرفع اليك أهل البطالة والرعية فقد استقصيت لك تقويمها وأعظم منهاها أن تأمن البادية
وتسكن الى لين الجنبه ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه
والآفة ممن يتولاه ويلتمس الثوب باسمه فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء
الظن والنميمة وعاجل بها من خفته على أقل تهتممع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه
فليس لك ولا لأوليائك شيء يقيم الحنث في يمين بيعته الا ما تقبمه لوليها من هذه النفقة ،
وأما الانفراد في التدبير دونه مع ما يلوته من جهله وعجزه عنه فاني أرجو اني واياك منه في
سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة ، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك وعدة حاجة
تنزل بك فاقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها الا عند الشدة تخاف منها على سائر
جسدك ، وأخوك عبد الرحمن قد صيرت له في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه
من ميراثي وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساعدا بينكما في خلاف وصيتي فيسرع
ذلك في نقض أمري ويجلب الفاقة الى دولتي وقد كفيته الحيرة فيه فأكفيني الخيف منك
عليه وكذلك سائر أهلك فيما صنعت بهم بحسب ما قررت به خلاصي من مال الله الذي بيدك
وخلاقتك بعدي أخرى مما صدقته اليهم فلا تضع أمر جميعهم والحظهم بعيني فانك أبوهم
بعدي فخرج ذكورهم باستخدامك والحق انائهم جنابك جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليهم
وان انتادت اليك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل وان اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك القاء

الامة ولا تبطر بك وباصحابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني امية وشيعهم
بقرطبة فإن قاومت من توثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم وان خفت الضعف فانتبذ
بخاصتك وغلمانك الى بعض المعازل التي حصنتها لك واختبر غذك ان نكرت يومك واياك أن
تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك فاني أعرف ذنبي اليهم» .

(لسان الدين ابن الخطيب : اعمال الاعلام
تحقيق ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934: 93-95:)

تدبير الثورة على سلطة حكم بن القزاز العامية والغاء الخلافة الأموية

نص رقم 4

«قال ابو مروان بن حيان : وضعف امر هشام ، لسوء تدبير وزيره حكم القزاز ، وبلغ من الظلم والجور ان كسدت اسواق قرطبة ولم تسلك سبلها ، واسر الناس الوثوب على وزيره هذا ، فسقط اليه ذرو من ذلك ، فانزعج وخاف على نفسه ، ورحل الى قصر السلطان باهله ورعيه ، وسكنه مدة مختلطا به ، واخذ في مداراة الناس ، وكف عن الكلف ، وكتب الى الجماعة كتابا طويلا وضع فيه العذر في شان تلك الكلف ، وحمل هشاما على الازورار عن بعض مشيخة الوزراء الاقدام وقصد منهم كبيرهم ابا الحزم بن جهور ، وطلب تعثيره فلم يستطعه ، وامله يطمح لازالته ، ليتمكن بالناس بعده ، والله يستدرجه ، الى ان امكن الله من هذا الجائر حكم ، وذلك انه لما خرق في تدبير سلطانه ، واعتسف الامور ، واساء السيرة والتدبير ، واستفسد الى الكافة ، وكان من مغرس ذني ، ومهنة مرذولة ، فاثره الخليفة ، وسما به الى المحل الذي لا يستحقه ، وتبوأ حجرة ، ورضي منه في حال الشيخوخة والحنكة ، بأهون ما رضى احداه الامراء ، ففوض اليه وعول عليه ، ثم قعد ينظر بعينه ، وينطق بلسانه ، والزم جلة الامراء طاعة الفسكل ، وهو رجل من دخلاء الجند ما فيه شيء من خصال الرجال الا ثقافة الركوب الساذج ، دون غناء ولا شجاعة ، منتقلا من الحياكة الى الذروة العليا من تقلد الوزارة ، فبدر لاول وقته بعداوة الاحرار ، وتنقص الفضلاء والميل على اولي البيوتات بالاذى والمطالبات ، وصير صناعه في اضدادهم من التوايع والحاكة ، فكانوا وزراء وانصاره ، فنالوا معه المنازل النبيلة ، واكلوا الطعوم الرقيقة ، اكثرهم صبية اغمار عيارون من نمطه ، بمن دينه حث الكاس ، وتنضيد الآس ، وطبخ الترفاس ، والتفكه باعراض الناس. ان ضج مظلوم سخروا به وحاكوه ، فالناس منهم ومن صاحبيهم في بلاء عظيم وتجهد مقعد مقيم. وعندما سولت لهذا الحائك - حكم - نفسه الخبيثة الاستيلاء على البلد ، واجتثاث مشيخة الوزراء ، بما زين له جاري القدر ، وسوء النظر ، مقت جنده البلديين لعلهم انهم صنائع الوزراء قبله ، وراى انهم لا يصلحون له ، فأخر اعطياتهم فاضطربوا ، فلما لاح له حركة الهمس والقول

فيه ، بنى القصبه المظلة على ساحة المدينة ، استظهارا على ماخافه من تحرك العامة ، فهتك بها عندهم ستره ، ودبروا القيام عليه ، وهو على ذلك مصر في غيبه ، عم في لجأته آمن مكر خالقه ، عهر الخلوات ، صريع الشهوات ، لهج بالفكاهات ، كلف بالبطالات ، كثير الكذب والايمان ، شنيع الفجور والعدوان ، وصاحبه امير المؤمنين القائم بامر الامة عالم بذلك راض من وزيره هذا الحائك باقامة وظائفه ليومه وشهره ... وارسل الله على وزيره ودولته طائفة من فتاك الجند عرفت مراد الوزراء ووجوه الجند في ازالة هذا الخائن الحائك ، فدبروا قتله تدبيرا محمكا ، خفي عن حكم مع كثرة عيونه ، وكان الناظم لهذه الجماعة ابن عم الخليفة هشام واسمه امية بن عبد العزيز العراقي ، من ابناء الناصر ، فتى شديد التهور والجهالة ، فانتظم في سلك هذه الجماعة ، وسولت له نفسه نيل الخلافة ، واطعمه في ذلك سخريه به ، بعض من نظم التدبير من المشيخة ، علما بأنه لا ينفذ في الثوب على هشام الا من ينازعه لبوسه ، ويساهمه قرياه ، فتهيأ امر القوم في ستر وخفية ، فرصدوا حكم الوزير في طريقه من القصر ، وقاموا عليه فقتلوه وصرعوه ركن الجامع الشرقي في شديد الوحل والقذر ، فغسلوه في قصرية سماك بسوق الحوت ، ونصبوه تحت العلية التي كان اعدّها لدفاعه ، فصار عبرة للمتأملين ... واجتمع الناس الى زعيمهم ابي الحزم بن جمهور عظيم القرية ، فهتف على الناس بكف الايدي ، وسمع هشام الهتف باسم الوزراء و قد الغي اسمه ، فأيس عند ذلك من نفسه ، وكع فلم يطلع بعد وجهه ، ولا تكلم بلفظ ، ودفع الوزراء بباب القصر النهاية والعامة ، فانتهوا ، وامية العراقي في كل ذلك مقيم بداخل القصر في جمهور النهاية ، قد تبوأ مجلس البائس هشام ، واستوى على فراشه ، ورتب وجوه النهاية مراتبهم في الحفوف به ، والتنفاذ في امور الامارة ، لايشك في حصولها له ، محرضا على هشام مجتهدا في اتلافه . ثم اجتمع الوزراء واتفقوا على خلع هشام ، وهتفوا بابطال الخلافة جملة لعدم الشاكلة ، ونفوا عن المروانية والناصرية السداد ، ورجعت قرطبة الى تدبير الوزراء ، وترك الدعاء لاحد» .

(ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة :

تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا -

ترنس 1981 : القسم 3 : المجلد 1 : 522 - 528)

«وأما قاعدة الوزارة بالاندلس فانها كانت في مدة بني امية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومه لذلك ، الى ان كانت ملوك الطوائف ، فكان الملك منهم - لمعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية ، وانه كان نائبا عن خليفتهم - يسمى الحاجب ، ويرى ان هذه السمة اعظم ما تنوفس فيه وظفره ، وهي موجودة في امداح شعرائهم وتواريخهم . وصار اسم الوزارة عام لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي يتوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين واكثر ما يكون فاضلا في علم الادب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالما بامور الملك خاصة .

واما الكتابة فهي على ضربين : اعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند اهل الاندلس ، واشرف اسمائه الكاتب ، وبهذه السمة يخططه من يعظمه في رسالة . واهل الاندلس كثيرو الانتقاد عل صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط اللسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الاخر كاتب انزام ، هكذا يعرفون كاتب الجهيذة ، ولا يكون بالاندلس وير العدو لا نصرانيا ولا يهوديا البتة ، اذ هذا الشغل نبیه يحتاج الى صاحبه عظماء الناس ووجوههم .

وصاحب الاشغال الخراجية في الاندلس اعظم من الوزير ، واكثر اتياغا واصحابا وأجدى منفعة ، فاليه تميل الاعناق ، ونحوه تمد الاكف ، والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأملت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نكب وصور ، وهذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفية السلطان .

وأما خطة القضاء بالاندلس فهي اعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بامور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي ، هذا وضعها في زمان بني امية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيل ان يتسمى بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جلييلة ، وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا مسدد ، خاصة ، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة وقاضي الجماعة .

واما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الان ، معروفة بهذه السمة ، ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه ، وقد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي ، وكان خطة القاضي اوقر واتقى عندهم من ذلك .

واما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في اهل العلم والفطن ، وكان صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبا على الاسواق ، واعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد احد الاعوان ، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربح من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبي الصغير او الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة سعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع باكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة ولا يكاد تخفى خيانتته ، فان المحتسب يدس عليه صبيبا او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقي ، وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الاسواق نفى من البلد .

ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه ،

لأنها تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره .

واما خطة الطوائف بالليل وما يقابل من المغرب اصحاب ارباع في المشرق فانهم يعرفون في الاندلس بالدرابين ، لان بلاد الاندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق باث فيه ، له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم ، واغياهم في امور التلصص ، الى ان يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الاغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف ان يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الاندلس تخلو من سماع "دار فلان دخلت الباحة" و "فلان ذبحه اللصوص على فراشه" وهذا يرجع الكثير منه والتقليل الى شدة الوالي ولينه ، ومع افراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دما فان ذلك لا يعدم ، وقد آل الحال عندهم الى أن قتلوا على عنقود سرقة شخص من كرم وما اشبه ذلك ، فلم ينته اللصوص» .

المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان

عباس : دار صادر بيروت : 1968 : ج 1 : 216 - 219

«بسم اله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله محمد بن اسحاق بن السليم ، ولاه به خطة القضاء ، واختاره للحكم بين جميع المسلمين ، ورفعته الى أعلى المراتب عنده في تنفيذ الاحكام ، غير مطلق يده إلا بالحق ، ولسانه الا بالعدل ، ورسم له في كتابه رسوما بدأ فيه بامانة الله عز وجل اليه ، وجعل الله الشهيد بها عليه ، أمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الاعين وماتخفي الصدور ، وان يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المتفكر المعتبر ، فانه عهد الله الذي بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم - فاحل خلاله ، وحرّم حرامه ، وأمضي أحكامه وفارق الامة . على انهم لن يضلوا ما اتبعوه ، فهو العروة الوثقى ، والطريقة المثلى والنهج المنير ، ودين الله القويم .

وأمره امير المؤمنين ان يقتدي بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي بها عملت الامة ، وعليها اتفقت الامة ، فالحق معروف ، والباطل مكشوف ، وبينهما مشتبهات فيها يحمد التوقف ، وعندها يشكر الثبوت ، ففي كتاب الله - تعالى اسمه - وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - اصل الدين ، وفرعه ، ودليله ، وتأويله ، ومن يرد الله به خيرا يوفقه للاقتداء بهما ، والاقتباس منهما .

وأمره ان يصلح سريره فيها ، يصلح الله علاقته ، وان يبرأ من الهوى ، فانه مضلة عن طريق الحق ، وأن يجعل الناس في نفسه سواء ، اذا جلس للحكم بينهم ، حتى لا يطمع فيه الشريف ، ولا ييأس منه الضعيف .

وأمره ان يعتبر امره وماقلده ، فيعلم انه راكب طريقا منتهاها الى الجنة أو الى النار : ليس عن احدهما مصرف ، ولا بينهما موقف ، فحق لمن اراد النجاة ان يستكثر من الحسنات ، ويمنع دينه ممن أراد أن يؤنسه في الشبهات ، ويعلم انه حاكم في ظاهره محكوم عليه في

باطنه ، تطوى كل يوم صحيفته على ما أودعها ، حتى ينظر فيها غدا بين يدي الله - عز وجهه - يوم « توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » فمن حاسب نفسه في الدنيا ، كان ايسر حسابا في الآخرة .

وأمره ان يتحفظ في حين وقوع الشهادات عنده ، فلا يقضي بين المسلمين منها الا بما اقامه به التحقيق على السنة العدول ، ذوي القبول ، وان استراب في شهادة احدهم وقتا ما ، ان يبحث عنها ، فان ثبت انه ارتشى ، أو شهد بالهوى ، فعليه ان يسقط شهادته ، ويخل عدالته ، تنكيلا له ، وتشديدا لمن خلفه ، وان يحمل على الناس معارضة الوكلاء على الخصومات ، وي طرح اهل اللد الظاهر منهم ، ولا يحمل فضل حجاجهم عن ان يقوم بهم .

وأمره ان يحترس باموال اليتامى ، ولا يرلي عليهم الا اهل العفاف عنها وحسن النظر فيها ، وان يجدد الكشف والامتحان عن اموال الناس والأحباس واليتامى ، ويمنع من قبالتها الا على وجوها مما لا بد منه من التنفيذ فيها ، وطلب الزيادة عند ذوي الرغبة في قبالتها . وأمره ان يختبر كاتبه وحاجبه وخدمته ، ويتفقد عليهم احوالهم اذا غابوا عن بصره .

وأمره ان لا يعجل في احكامه ، فمع العجل لا يؤمن الزلل ، وان يرفع الى امير المؤمنين ما اشكل عليه الفصل فيه ، ليصدر اليه من رأيه ما يعتمد عليه ، ان شاء الله ، والله يسأل امير المؤمنين التوفيق بمنه وفضله . وكتب يوم الاثنين للثلاثين من شعبان سنة 353 .

(النباهي : تاريخ قضاة الاندلس : دار الافاق الجديدة : بيروت 1980 : 75 - 76)

« قال الحسن بن محمد في كتابه المسمى ب "الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" :
وامتحن ابن زرب ، على فضله ، مع عوام الناس بقرطبة ، في باب ابتطائهم للسقي ، فدعا
بهم في المحل الذي توالى عليهم باعظم ما امتحن به قاض قبله ، وذلك أنه برز بهم عشرة مرة:
حضر معهم المنصور بن ابي عامر استسقاء واحدا ، ولبسوه ثياب بيض ، وعلى رأسه أقرق
وشي أغبر ، على شكل أهل المصايب بالاندلس قديما ، قد أبدى الخشوع ، وهو باك ، ودموعه
تسيل على لحيته ، فتقدم الى جناح المحراب عن يمين الامام ، وقد كان فرش له هناك حصير
ليصلي عليه ، فدفعه برجله ، وأمر بنزعه ، وجلس على الارض ، وشهد الاستسقاء ، فلما تم ،
أمر القاضي بتفريق صدقات كثيرة من مال وطعام عن خليفته وعن نفسه . ولهجت العامة بدم
القاضي ، واستبطاء الرحمة بوسيلته ، واطلقوا السنتهم بالطعن في دينه ، ووصفه بالركون الى
ابن ابي عامر ، وعابوه بالقبول لهداياه ، والاستساعة لعطيته ، فلما تكرر بالاستسقاء وبطأ
الغيث ، هاجت العامة في بعض بروزه الى الريض ، وثاروا فاجتمعوا اليه بعد اتمامه الصلاة ،
يعططون ، وينكتونه بمعايه ، ويقولون له : « بنس الوسيلة انت الى الله تعالى والشفيع في
ارسال الرحمة ، اذ اصبحت امام الدين ، وقيم الشريعة ثم لا تتورع عن قبول ما يرسل به اليك
من الهدية التي لاتليق الا بالجبايرة » وأبدوا في ذلك ، وأعادوا ، وهموا أن يبسطوا اليه ايديهم
ويعتهنوه ، حتى لاذ منهم بالتربة المنسوبة الى السيدة مرجان ، بمقبرة الريض بقرطبة ، وكانت
حصينة الابواب ، منيعة الاسوار ، فصار فيها ، واغلق ابوابها عليه ، واحتصن بها منهم ،
وارسل الى صاحب المدينة يستغيثه ، فارسل الفرسان والاشراط الى ناحيته ، فكشفوا عنه من
كان قد تلفف به من العامة ، وفرقوهم ، وانصرف الى داره سالما ، وقد لقي منهم اذى شديدا .
فلما عاود البروز الى الاستسقاء بعد ذلك ، ارسل المنصور اليه خيلا كثيرة من عنده ، أحاطت
باكناف المصلى عند تكامل الناس فيه قبل الصلاة ، استظهر بهم على شغب العامة ، فلم
يجسر أحد من السفهاء على النطق بكلمة شر ... »

(النباهي : المصدر السابق : 78 - 79)

« فلما انتهى ذلك الى الاموي الحاسر خاف الوقعة به فدرس رسولا من قبله كتب كتبنا على لسان بعض رجاله الى بعض رجال امير المؤمنين في المودعة والصلح وكف الحرب ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين . وجاء الرسول بالكتاب وأدى بلسانه عن الخائن ما لم يؤده الكتاب ، من طلب الصلح والالفة وكف الحرب والفتنة ، وذكر ذلك لامير المؤمنين (صلح) شفاهها ...

... واما ما تخوفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء ، فما ظهر له منا ما يتخوف منه ذلك ، وما نحن بمن يؤمنه منه ، لكنه بغى علينا من بغى من اهل عمله فانتصرنا بالله فنصرنا الله وبلغنا فوق آمائنا ، فقام وقعد وابرق وارعد ووالى علينا المشركين الذين رأى الان ان اشتغالنا به واشتغاله بنا داع الى ترك جهادهم وان ذلك نقص ووكف على الاسلام . فهلا رأى ذلك اذ بعث بامواله وهداياه ورسوله اليهم واستنصر علينا بهم ؟ ! فيكف رأى الله عز وجل فعل بهم وبجميعهم ؟ ! ألم يصرف الجمعيين مغلوبين خائبين خاسرين ؟ ونحن بعد فما رأى منا اليه حركة . فما هذا القلق وهذه العجلة ؟ .

وأما ما دعى اليه من السلم والكف والمودعة والصلح وهو يزعم انه أمير المؤمنين - كما يتسمى دون من سلف من آبائه - وامام الامة بدعواه وانتحاله ، ونحن نقول انا اهل ذلك دونه ودون سواه ، ونرى ان فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه ، مع ما بين اسلافنا واسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الاصلية والبغضة في الاسلام والجاهلية ، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الاسلام وطالبونا به من قديم الايام من لعن رسول الله عليه وآله آبائهم وقتل من قتله على الشرك والكفر بالله منهم ، وطلبهم بشارهم ودمائهم ، وطلبنا نحن اباهم بمن قتلوه منا كذلك في سلطانهم وايام تغليبهم ،

فكيف بالصلح الذي ذكره بعد هذا النبأ الجليل خطره ؟ يأبى لنا ذلك قول الله عز وجل : "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله وسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الآيمان" . ما انا بالمداهن في دين الله ولا بالراكن بالمودة الى اعداء الله ولا بالمخادع في امر من امور الله .

ارجع بجوابي هذا اليه فما له عندي سواء ، وما لي من الامر شيء ان الامر كله لله "عليه توكلت واليه انيب" . فان حركني الله وقذف في قلبي حربه وغزوه فلا أشك ان الله عز وجل أراد قطع دابره واستئصال شافته وتطهير الارض من رجسه وحسم ايامه ومدته ، والا يقذف ذلك في قلبي ويصرف الى من سواء وجهي فلامر هو بالغه فيه واملاء هو محتج به عليه ومدة سبقت في علمه له . قال الله عز وجل : « ولا يحسبن الذين كفروا ان ما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما » فيلنتظر احد الامرين وليتوقع وجهها من الوجهين : اما هلاكها يعجل اضطلامه واما املاء من الله يوفر آثامه . ونحن ننتظر من الله عز وجل احدى الحسينيين ونرجو منه لنا خير الامرين : اما نصر من الله يعجله لنا عليه فيشفي قلوبنا وقلوب المؤمنين به ، واما ان يملي له على ما هو عليه من معاصيه ومساوئه ومخازيه ، ففي ذلك سرور من رأى عدوه عليه . فقد كان يقال : حسبك درك امل من عدوك ان تراه عاملا بمعاصي الله ، وذلك ان المعاصي تعجل الدمار او تولج عما قليل عذاب النار .

وصرف الرسول وامر الذي ورد عليه بالكتاب ان يجيب عن كتابه اليه جوابا غليظا ويواعده فيه ، ففعل وانصرف الرسول بالجواب والكتاب » .

(القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسائرات : تحقيق الحبيب الفقهي / ابراهيم شبوح / محمد اليعلاوي : منشورات الجامعة التونسية 1978 : 167 - 169)

« وفيها (328 هـ) عقد حسداي بن اسحاق الاسرائيلي ، الكاتب ، السلم مع شنيير بن غيفريد الافرنجي ، صاحب برشلونة وأعمالها ، على الشروط التي ارتضاها الناصر لدين الله وحدها ، وأشخص حسداي الى برشلونة لتقريرها مع شنيير ، صاحبها ، واتفق أن جاء الاسطول المتحرك من مرسى المربة ، عقب رجب من هذه السنة ، مع ابراهيم بن عبد الرحمن البجاني ، على مدينة برشلونة ، يوم الجمعة لعشر خلون من شوال ، فعرفهم حسداي بما عقده من سلم شنيير ، صاحبها ، واستكفهم عن حربه ، فرحل الاسطول عن مرسى برشلونة من يومه .

ودعا حسداي عظماء برشلونة الى طاعة الناصر لدين الله وسلمه ، فاجابه جماعة من ملوكهم ، منهم أنجه ، أحد عظمائهم ، ودار قراره بارض نابل ، فارسل الى الحضرة وفدا شاهدوا عنه ، وسأل تأمين تجار أرضه على الاختلاف الى الاندلس ، فاجيب الى ذلك ، ونفذ العهد الى نصر بن أحمد القائد بفرخشنيط ، والى عمال الجزائر الشرقية والمراسي الساحلية بارض الاندلس بتأمين جميع المختلفين من بلد أنجه ، وغيره ممن سولم من هذه الامة ، على دمائهم وأموالهم وكل ما تضمنته سفنهم ، يتصرفون في تجارتهم حيث شاؤوا ، فوردت مراكبهم الى الاندلس من هذا الوقت ، وعظم الانتفاع بهم . وسلكت مركلة بنت بريل ، المملكة على قومها من الافرنج ، سبيل أنجه هذا في سلم الناصر لدين الله ، فارسلت اليه برناط الاسرائيلي ، ثقتها ، بغرائب من طرائف بلدها المستحسنة ، فقبلها الناصر لدين الله منها ، وكافأها بأنفس منها ، وأكرم رسلها .

ثم قدم حسداي بن اسحاق الاسرائيلي على الناصر لدين الله من برشلونة في عقب ذي القعدة منها ، بعد ان احكم ذلك كله ، ومعه غدمار رسول شنيير ، على الشروط التي اشترطها عليه ، واولها ان يتخلى عن امداد جميع النصرانية الذين ليسوا في سلم الناصر لدين الله ، ومؤالفتهم ، ويلزم طاعته ، ويطلب رضاه ، ويحل الصهر الذي بينه وبين غرسية بن شانجه ،

صاحب بنبلونة ، وقد كان شنيير زوجه بنته ، ففسخ نكاحها طاعة للناصر لدين الله ، وتضمن ان يدخل مع نفسه كل من يستنيم اليه من هذه المواضع التي تجاوزه ، فانفذ الناصر لدين الله لشنيير ذلك كله ، وانفذ عهوده به الى عمال السواحل وقواد الاسطول ، وامر بتحامي اعماله ومسألة اهل بلاده ، وعقد الناصر لدين الله امان شنيير ذلك كله هذا وسلمه ، وسلم سنفرید واولادهما معا لعامين كاملين . واشهد على ذلك كله في مجلس حفله يوم الاربعاء لاثنتي عشرة خلت من ذي الحجة منها » .

(ابن حيان : المقتبس : نشر شالميتا وآخرون : المعهد الاسباني العربي للثقافة :

مدريد 1979 : 454 - 455)

«بسم الله الرحمن الرحيم . اما بعد ، فان الله ، تعالى جده وعز ذكره ، جعل الاسلام افضل الاديان ، فاطهره واعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضي منهم سواه ، فقال في محكم تنزيله «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلم يقبل منه» الآية ، وقضي في محتوم امره ونفاذ حكمه ان ينسخ به الديانات ويختتم برسائله الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين واكرم الاكرمين واعز الخلائق على رب العالمين بان كتب الصلاة والسلام عليه في عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وارسله بأفضل دين سماه حنيفا الى خير امة اختارها وسطا ، كما قال ، عز من قائل ، اذ عرفنا فضل ما هدانا اليه من الدين وكرمنا به على سائر الامم "كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" الآية ، فله جل جلاله وتقدست اسمائه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمئة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى فاحسن الهداية ، وانا فابان الحجة وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمام الامة وجمع وجوه السعادة العاجلة والنجاة الآجلة في تأليف الجماعة واجتناب نزعات الفرقة ، حيث يقول عز وجهه لنبيه ، المخصوص بهداء ، صلى اله عليه وسلم ، تحيفا به وعباده ، ورأفة بسطها على خير خلقه ، واعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لانبياؤه ، وكراهة لاختلافهم بعد رسوله - صلعم - "شرح لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " الآية ، فخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة ونبه على البعد ، . . . ونفى الله الخبائث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين كهيبته يوم اكملها الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمتوعم الاقطار بعدل امير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيرا ولا تأمر رشدا ، من طغام السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الاوغاد ... كتبنا لم

يعرفونها ، ضلت فيها حلومهم وقصرت عنها علومهم ، وظنوا انهم فهموا ما جهلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان واحل عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزيتوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا يخلق القرآن واستياسوا وآيسوا من روح الله " ولا يباس من روح الله الا القوم الكافرون " وأكثروا الجدل في آيات الله . وحرفوا تناول في حدث رسول الله - صلعم - ، فبرئت منهم الذمة بقوله ، تقدست اسماءه ، "الم تر الى الذين يجادلون في آيات الله انى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون" الى قوله : "اذ الاغلال في اعتاقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون" ، فهذا ابلغ الوعيد وأفظع النكال لـ "من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير" ثاني عطفه : "ليضل عن سبيل الله " الى قوله : "عذاب الحريق " ، ثم تجاوزوا في البهتان ، وسدوا على انفسهم ابواب الغفران ، فاكذبوا التوبة وابطلوا الشفاعة ونالوا محكم التنزيل وغامض متشابه التاويل بتقدير عقولهم ، "فاما الذين في قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله الى قوله : " وما يذكر الا اولوا الالباب " فصاروا بجهل الاثار وسوء حمل الاخبار الى القدح في الحديث وترك نهج السبيل ، فاساؤوا الفهم عن العلوم ، واقدما بمكره القول في السلف الصالح ، واسبدلوا على نقله الحديث ، ووضعوا من الكتب اوضاعها وتابعوا شهراتهم فيها ، وتتابعوا فيما أويقروهم وورطهم وراوا التخصع وحشية يحثها لازم الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ في دين ولا رسوخ في علم ، حتى لتركوا رد السلام على المسلمين ، وهي التحية التي نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على ادب الله تعالى وقوله ، جل جلاله "واذا حييتهم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا ازره فأثروه وانكشفوا فنكرهم "الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه" الآية ، فلحوا في جهالتهم وتاهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم حقدا على الامة الخفيفة ، واعتقادا لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعا الى انتهاك حرمةا وسبي ذرارها ، "قد بدت البغضاء من افواههم ، وما تخفي صدورهم اكبر " الآية ، لولا ان سيف امير المؤمنين من ورائهم ونظره محيط بهم ، ولما صار غيهم فاشيا وجهلهم شائعا ، اتصل

بامير المؤمنين من قدحهم في الديانة وصدوقهم عن الجادة ماشغل نفسه واقصر مضجعه واسهر ليله ، اغلظ امير المؤمنين في الاخذ فوق ايديهم ، وأوعز ايعازا شديدا وانذر انذارا فظيما وعهد عهدا مؤكدا شاقيا كافيا ، نظره لوجهه ، تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد وامر بقراءة كتابه هذا على المنبر الاعظم بحضرته ، ليقرع قلب الجاهل ، ويفت كيد المستهتر الحائر ، وينقض عزم المعاند المعاجل ، ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الاذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، "وانهم آيتهم عذاب غير مردود" ، ورأى أمير المؤمنين ان يشمل بنظره اقطار كوره ويرسله في يده وحضره ، وان ينفذ عهوده اليك والى سائر قواده وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ولا يحرم القاصي باعم الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه وكفاية المسلمين شبهة وفتنة ، فلم تحل الديار ولا تعفت الآثار ولا استحق البلاء على قوم ولا اهلك الله امة من الامم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسنة والاعتداء في القرآن العظيم واحاديث الرسول الامين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك وانشره في اسماع رعيته ، وتتبع هذه الطائفة بجميع اعمالك ، وابث فيهم عيونك ، وطاب فيهم غورهم جهديك فمن تجلي بطبقتهم ان انتسب اليهم وقامت عليه البيئات بذلك عندك فاكتب الى امير المؤمنين باسمائهم ومواضعهم واسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفى حر صدره ، واياك ان تداهن في اهل الريبة وتتخطاهم الى ذوي السلامة والاحوال الصالحة ، فان فرطت في احد الامرين او كليهما فقد برئ الله منك واحل دمك ، فاعلمه واعتلمه ان شاء الله تعالى .

(ابن حيان : المصدر السابق : 26 - 29)

«شهد عند قاسم بن محمد صاحب أحكام الشرطة بقرطبة وقاضي كورة استجة وقبرة محمد بن عبد الله التجيبي انه سمع ابا الخير يسب اصحاب النبي (ص) ابا بكر وعمر وغيرهما وسمعه ايضا يقول ان علي بن ابي طالب كان احق بالنبوة من محمد النبي (ص) ويرى الخروج على الائمة رضي الله عنهم . وسمعه ايضا يقول ان الخمر حلال وانه اتاه الى السوق فقال له محمد بن عبد الله : ان السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم . وقال ابو الخير ما كان املي من الدنيا الا خمسة الاف فارس ادخل بهم الزهراء واقتل من بها واقوم فيها بدعوة ابي قميم وكذلك يكون . فقال له محمد بن عبد الله : ليس انت من الاسلام في شيء لان النبي (ص) قال : «من أظهر علينا السلاح فليس منا» ودفعه عن نفسه..

وشهد محمد بن ايوب بن سليمان بن ربيع انه سمع ابا الخير يقول : انما الناس كالعشب رطب ويابس ثم لاحساب عليهم ولا عقاب . فقال له محمد بن ايوب : اين قول الله عز وجل ؟ "فاذا من الأجداث الى ربهم ينسلون" ، وقوله تعالى : "فريق في الجنة وفريق في السعير" . فقال ابو الخير بعض القرآن خرافة وبعضه لا شيء وانما السيف يضم الناس الى الاقرار بهذا . وسمعه يطعن على ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ويطعن في خلافة أمير المؤمنين الحكم أعزه الله ويقول لو كانت تسعة اسياف لكنت العاشر ، وعد عليه شرب الخمر . فقال له ابو الخير : هو احل من الماء للشرب والطهور.

وشهد سعد بن سعيد اللخمي انه سمع ابا الخير يقول اما القرآن النصف الأول فلا بأس به ، واما النصف الثاني فخرافات لو شئت لقلت قرآنا خيرا منه اذ قال : "والعاديات ضيحا" هلا قال : "والسابعات سبحا" ؟ تعالى الله عما قال علوا كبيرا . وسمعه قبل ذلك يقول انه روى عن بعض الصالحين ان قال : لاتعبد الله رجاء ما عنده فتكون كالاجير الذي يخدم لياخذ

ولا تعبد له خوفاً عقابه فتكون كالعبد السوء الذي لا يخدم إلا عند خوف مولاه ولكن اعبدوه لما هو اهلهم ثم عطف فقال ما هو اهلهم مستهزئاً به عز ذكره وتعالى جده .

وشهد حسان بن محمد انه سمع ابا الخير يقول : ا الخمر حلال في كتاب الله ويحتج بقوله تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً فمن قال غير هذا فهو كاذب . ويعرفه تاركاً للصلوات الخمس في المساجد ، وتاركاً لحضور الجمعة وشارباً للخمر محللاً لها . وسمعه أيضاً يقول في الملائكة انهم بنات الله .

وشهد علي بن عبد الله الحجري انه سال ابا الخير عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها فقال : دعها فعليها لعنة الله لقد كانت من شدة احتراقها ، وافصح عن أقيح من هذا القول فيها ، ترقد رسول الله (ص) حتى يصلي صلاة الصبح في الضحى . واجتمع به في مقبرة متعة فقال له : شهدت علي ؟ قال نعم فقال له ابو الخير مستهزئاً بشهادته وشهادته من شهد عليه ، اسمع ما اشهدك به علي نفسي : اني ازني والوط واشرب الخمر واسمع العود ثم قال له وقفني على هذه الشهادة متى احببت فاني اخبرهم بهذا على نفسي كما اخبرتك .

وشهد احمد بن سعيد بن بشر الاموي انه يعرف ابا الخير هذا من اهل الطعن على السنن واهلها قادحاً فيها لا يرى إمامة احد من أئمة المسلمين هازلاً بكتاب الله عز وجل طاعناً فيه . وشهد سليمان بن منبه بن عبد الملك انه يعرف ابا الخير من اهل المروق والتهمز بالدين . وسمعه محمد بن عمر بن محمد بن عبيدة في انصرافه من تشييع خال له خرج الى الحج ولقيه ببلاط مغيب وساله من اين اقباله فاعلمه فقال ابو الخير : ما احق الذين يتعبون ابدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصلون حجارة صماء .

وشهد مسعود بن عمر بن خيار الانصاري انه سمع ابا الخير والناس يصلون وهو يقول بالعجمية يا لهؤلاء القوم يرفعون استاههم ويخفضون رؤوسهم . وقلت له سبحان الله ! فقال لي : يا ابا القاسم لا تكن من الغوغاء ، فلو ان غيرك سمعني لنشبت . وسمعه يتأول حديث

النبي (ص) في السواك يقول في هذا الحديث معنيان : احدهما ظاهر والاخر باطن . فاما الظاهر فهو سواك الفم والثاني فيما ستر الله يعني الفاحشة .

وشهد سليمان بن قاسم بن نعمان انه يعرف ابا الخير تاركا للصلوات الخمس في المساجد تاركا لحضور الجمعة شاريا للخمر محللا لها . وشهد محمد بن يحيى الحضرمي انه سمع ابا الخير يقول في النبي (ص) ان عليا كان احق بالنبوة منه وان محمدا غصبه اياها وان محاربة بني امية احق من محاربة الشرك .

وشهد عبد الله بن بشر القشيري انه سمع ابا الخير هذا يتكلم مع نصراني في لحم الخنزير ويسال النصراني ان يأتيه به ، فقال له وكيف تأكله ؟ فقال ابو الخير لست على دين محمد ولا اعتقده . وسمعه يسمي المسجد الجامع دار البقر ويحل الخمر . وشهد نجدة بن السطحي الاموي انه سمع ابا الخير هذا يسب الله تعالى بكلام كثير اعظم نجدة ان يتكلم به وسمعه يتكلم في الديانة وينقصها بكلام اعظم نجدة ان يتكلم به (...).

وشهد محمد بن احمد بن الحراز القروي انه يعرف ابا الخير هذا مستهزئا بديانة الاسلام وانه يزرى على سلف هذه الامة وخلفهم . ويقول : ليس في جملة الصحابة الا ستة عليا وعمار والمقداد وانسيت الثلاثة انهم على ضلال وباطل ، وانهم ارتدوا وعادوا وكفارا .

وجميع من تبعهم من جملة المسلمين هم معهم على ضلال وباطل . ورأيت له كتابا جاوز فيه حدود الاسلام الى معاني التعطيل . وذاكرته ما بلغني عنه من ذلك واشباهه فأقر بجميعه ثم اظهر بعد ذلك النسك في اطمار صوف يطلب الصدقة ، ولم يمضي به عام او نحوه حتى اتصل بي عنه شرب الخمر والبهتان العظيم والنفقات وافعال الفساق ، فاجتمعت به في طريق فقلت له : ابا الخير ما هذا الذي انت فيه وبلغني عنك اين التوبة ؟ وما كنت تظهر من الزهد فقال : هذا ضلال ومحال واخبار المجانين . فقلت له : اين ما كنت تظهر من النسك والزهد والتوبة فقال : انما ثبتت تقية وخوفا ، ولو امنت لناظرت على اكثر مما كنت قلت ولأقمت الحجة

في ذلك . فقلت : ليست هذه ديانة ولا فعل من يؤمن ببعث ولا حساب فقال لي : هذه الاخبار الباردة وهذا المحال اخرجك من بلدك . فقلت له : اخرجني الهروب من الكفر وطلب السنن من اهل السنة . فقال لي : الذين خرجت عنهم كانوا اهل الحق والسنة لا الذين انت معهم لان اولئك اهل البيت ولا ينجيك الفرار منهم ...

وشهد عبد الله بن محمد الاموي انه سمع ابا الخير يسب ابا بكر وعمر واصحابهما وعائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ويرميها بالبهتان . ولما قدم عبد الله بن محمد هذا من المشرق ساله ابو الخير من اكثر بالمشرق العلوية او العثمانية او البكرية فقال له لقد ظهر الآن العلويون فقال له ابو الخير : هذا الحق كانك ترى الالوية خارجة من داري ...

وشهد يوسف بن سليمان بن داود الاموي انه يعرف ابا الخير هذا وضع كتابا رد فيه على اهل السنة يلعنونها في كتابه واقر عنده بالكتاب ... وشهد اصيغ بن عبد العزيز انه اجتمع بابي الخير هذا بسببته فسمعه يقول بانكار الشفاعة وتخليد المذنبين من الموحدين في النار . وشهد عبد الله بن حزب الله السكسي انه يعرف ابا الخير هذا بشتتين وسمع رجلا استفته في جارية عنده رهينة ان كان يحل له وطؤها فقال له : وطؤها حلال فكذبته . وشهد احمد بن محمد بن حسان انه اجتمع بابي الخير هذا بمقبرة قريش فسمعه يقول : انا اعلم كيل البحار ووزن الجبال وعدد الذر ...

وشهد بن بخت انه سمع ابا الخير هذا في بعض المجالس وقد دارت بينهما مناظرة فقال له رشيد موضعه ومتجره فقال له ابو الخير : للسلطان اليكم سبيل ؟ فقال له رشيد بلى ، فقال له ابو الخير : انت ممن يقرأ القرآن فقال له بلى فقال له : الم تسمع الله تعالى يقول : "ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار" فرضيت بان تكون من اهل النار فرد عليه رشيد في ذلك بما استطاع من الرد ... وشهد خيار بن عبيد الله انه سمع ابا الخير يقول في سوق البزازين وقد تزاخم الناس ما يستحق هذا الخلق الا السيف . وشهد عبد الله بن عمر الاموي انه

سمع ابا الخير يحل الخمر وقال لقاسم بن محمد صاحب الشرطة واسحاق بن منذر بن السليم :
تثبت في امر ابي الخير هذا فانه ابو الشر فاتق الله فيه وانا شريكك في ثوابه وان شئت ان
تفردني بالثواب فافعل فاني اتولى صلبه بيدي واثمه في عنقي .

وكانت شهادة جميع الشهود في هذا الكتاب على عين ابي الخير ويمحضره . وعرفوه
حين شهدوا عليه بما ذكر عنهم من شهادتهم في هذا الكتاب فقبل قاسم بن محمد صاحب
الشرطة شهادة ثمانية عشر شاهدا من هؤلاء الشهود وأجازها لمعرفته بهم وعدالتهم وثبت بهم
عنده ما شهدوا به من ذلك واستظهر بسائرهم وشاور من حضره من اهل المعلم في بيت الوزارة
بعهد امير المؤمنين الحكم اعزه الله ابن امير المؤمنين عبد الرحمن رحمه الله .

(نوازل ابن سهل : مخطوط المكتبة العامة بالرياض : رقم 838 ق : 394 - 398)

نصوص اقتصادية - اجتماعية

قرطبة حاضرة الخلافة الاموية بالاندلس

نص رقم 12

« قال احمد الرازي الكاتب : قرطبة قاعدة الاندلس وام المدائن ، وقرار الخلافة ودار الملك ، تحبب اليها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية ، واسطة من الكور ، وموقية على شاطئ النهر ، مشرفة رائعة موققة ، نهرها ساكن في جريه ، لين في انصبابه ، بقبلتها بطاح سهلة ، ويجوفها الجبل النيف المسمى بالعروس ، المغروس بالكروم والزيتون وسائر الاشجار وانواع الازهار .

اجمع اهل التاريخ ان دور قرطبة كلها ثلاثة وثلاثون الف ذراع ، وعدد ابوابها سبعة ، عدد ابراجها المنتظمة بدور السور من جوانبها الاربعة مائتان واثنان وسبعة ابراج ، وعدد ارياضها المحيطة من جميع نواحيها عشرون ريبضا ، ويدور بجميع هذه الارياض الخندق المشهور لم تقتدر على مثله امة من الامم ، وهو المحيط بجميع ارياض قرطبة ومساكنها ، وذرع دوره من جهاته الاربع ثلاثة وعشرون ميلا .

قال ابن حيان : لم يتخذ في الاسلام فيما يعرف اعظم منه ، وكان يكسي كله من جميع نواحيها ايام الحرب سلاحا وعدة ورجالا ، وعدة المساجد بهذه الارياض مع المدينة العليا الف مسجد وثمانائة مسجد وستة وثلاثون مسجدا ، وعدة الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام ونيف وهذا كله عند انتهاء كمالها ، وعدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على اهلها المبيت في السور ايام الفتنة مائة الف دار وثلاثة عشر الف دار حاشا دور الوزراء واكابر الدولة ومن احرم بحرمة السلطان من السيدات والرواشد وخدم الحرم والطباخات وحرم الفتيان ستة آلاف

وثلثمائة وأربع عشرة امرأة ، وعدة الفتيان فيه على اختلاف منازلهم وضروب أعمالهم وتصرفهم ثلاثة آلاف فتى وسبعة وثمانون وكان لهم في كل يوم من اللحم عشر ألف رطل والرطل ستة وثلاثون أوقية ، يغدق عليهم من عشرة أرطال إلى رطل واحد حاشا لضروب الطير والدجاج والحيتان .

قال ابن النظام في تاريخه : مما يدل على عظم قرطبة كان يدخلها على سائر طرقها أيام اكتمالها من جلائب الغنم في كل يوم أيام درور الجلائب بها - وهي معلومة - ما بين سبعين ألف رأس إلى مائة ألف رأس حاشا البقر ، وكان يباع فيها من أنواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف اجناسه أيام جريانه بعشرين ألف دينار قاسمية على اعتدال القيم .

(ابن غالب : فرحة الانفس في تاريخ الاندلس : مجلة معهد المخطوطات العربية :

المجلد الاول : ج 1 : القاهرة ص : 295 - 296)

« قال مسلمة بن عبد الله المهندس الناظر في بنائها رحمه الله : بدأ عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ببناء المدينة الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة وقمادى في بنائها الى حين وفاته رحمه الله في سنة خمسين وثلثمائة .

قال مسلمة بن عبد الله المذكور : وكان مبلغ ما يتفق فيها في كل يوم من الصخر المنحوت المحكم المعدل لوجه البناء ستة آلاف صخرة حاشا (المرتل) ، وكان يخدم بها في كل يوم ألف وأربعمائة بغل منها أربعمائة بغل زوامل السلطان المختصة به ، وألف من ذوات الاكرباء المعرضة للخدمة ، أجرة كل بغل منها في الشهر ثلاثة دنانير من الذهب الجعفري يجب لجميعها في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكان عدة حذاق البناء بها في كل يوم ثلثمائة بناء ، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار ، وعدة الاجراء في كل يوم خمسمائة أجير تتمة ألف عامل حاشا من كان يخرج فيها من أعلاج النصارى عبيده .

وكان يرد فيها من الجير خمسمائة حمل ومثله من الجبس قال : وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية ومن تونس وغيرها ، وكانوا الذين يجلبونه وينتخبونه ثلاثة رجال ، وكان يصلهم على كل رخامة كبيرة أو صغيرة بعشرة دنانير قاسمية أجرة لهم سوى ما كان يلزمها من المؤن والتسفير ، وكان يصلهم على كل سارية بشمانية مثاقيل ذهباً . وعدة السواري بها عند انكمال أكثرها في مدته أربعة آلاف سارية منها ما جلب من افريقية وذلك ثلاثة عشر سارية ومنها ما جلب من بلاد الافرنج وذلك تسع عشرة سارية سوى الذي اهدى اليه ملك رومة وذلك أربعون سارية لم تعرف له قيمة ، وسائرهما من مقاطع الاندلس المذكورة ، وأما الحوض المذهب الكبير المنسوب في بيت المنام فهو من جلب اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الاسقف من بيت المقدس وأما الحوض الاخضر المشهور فهو من جلب أحمد بن كرم الشامي قالوا

باجمعهم انه لاقيمة له وأما اليتيمة المنصوية في المجلس البديع فهي من تحف اليون صاحب القسطنطينية .

قال ابن حيان : ما زلت اسمع الشيوخ المحصلين ان مصانع المدينة الزهراء وقصورها اشتملت على خمسة عشر الف زوج باب ومئين زائدة ، منها المصنوع بالحديد المبيض بالقصدير ، ومنها المصنوع بالنحاس الاصفر ، ومنها الخشب المنقوش والمرصع ، فهي على الجملة من اهل ما بناه الانسان واجله خطرا واعظمه شأنا .

ذكر بعض اهل الخدمة في الزهراء انه حصل النفقة فيها كل عام ثلثمائة الف دينار عيونا ذهباً وانه حصل جميع الاتفاق في مدة بنائها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال ، وذكر بعض المحصلين ان مبلغ النفقة من الدراهم القاسمية بالكيل القرطبي ثمانون مدياً وستة اقفة وزائد اكيال ، وهذا المدي القرطبي زنته ثمانية قناطير والسته اقفة هي نصف مدي ، زنته اربعة قناطير .

وكان الناصر لدين الله قد قسم جبايته اثلاثاً : ثلث موقوف على الجند ، وثلث مدخر في خزائنه للنوائب ، وثلث للنفقة في الزهراء .»

(ابن غالب : المصدر السابق : ص 300 - 301)

« وفيها [316] أمر الناصر لدين الله باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها احمد بن حدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان منها ، فقام الضرب فيها من لدن هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة ، وصحح في ذلك ابن حدير وأجاد الاحتراس من أهل الدلسة ، فاضحت دنانيره ودراهمه عيارا محضا .

وقال أحمد بن محمد الرازي : فيها اتخذ الناصر لدين الله دار السكة لعياره وقد كان الضرب للنقد معطلا قبله بدهر ، فعظمت به منفعة الناس واكتملت خصال دولته . وكانت اول ولاية على دار السكة احمد بن موسى بن حدير ، ثم يحيى بن يونس القبري سنة عشرين وثلاث مائة ، ثم محمد بن فطيس سنة احدى وعشرين ثم سعيد بن جساس سنة اثنتين وعشرين ، ثم عبد الله اخوه سنة سبع وعشرين ، ثم أعاد اليها سعيدا فخان امانته واستغشه وامتنحن عياره فكشف غشه ، فسخط عليه ، وسجنه ، وقلد السكة قاسم بن خالد ، صاحب العيار الجيد المضروب به المثل الى اليوم ، ثم قتل قاسم بأيدي عبيده في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة ، فولى الناصر لدين الله مكانه ابن عمه عبد الرحمن بن يحيى الاصم ، ثم محمد بن احمد بن حدير ، ثم عبد الله بن محمد الخروبي .

ثم نقل الناصر لدين الله السكة الى مدينة الزهراء الجديدة عند سكناه بها ، فعطل دار السكة بقرطبة واغلق بابها ، واتخذ دار الضرب عوضها بالزهراء ، انقل السكة اليها ، وقلدها عبد الرحمان بن يحيى ، فاتصل الضرب بها بقية حياته وحينما من الدهر بعده .

(ابن حيان : المقتبس : ج 5 : 243 - 244)

«وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص ، ومن الصوف قطع كاحسن مما يكون من الارمني المحفور الرفيع الثمن الى حسن ما يعمل بها من الانماط . ولهم من الصوف والاصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس ، تصنع بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحريز وما يؤثرونه من ألوان الخبز والقز ، ويجلب منها الديباج ، ولم يساومهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الارض ، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبدي منها بالخمسين والستين دينارا ، غير أنه قد جعل عروضها خمسة أشبار فهي من محاسن الفرش . ويعمل عندهم من الخبز السكب والسفيف ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق ، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابس . وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة . وفواكههم مع طيبة فيها وسطة فكالمباحة التي لا تمن لها . ويعمل في أقطار بلادهم من الكتان الذي للكسوة ويجلب الى غير مكان ، حتى ربما وصل الى مصر منها الكثير . فاما ارديتهم المعمولة ببجانة فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها ، ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقا ، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوي الجيد . وقل سوق بها يصير اليه الا على الفارة من المركوب . ولا يعرف فيهم المهنة والمشي الى أهل الصنائع والارذال ، وتختص بالبغال الفره وبها يتفاحرون ويتكاثرون . ولهم منها نتاج ليس كمثلها في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من ارمينية والران وباب الابواب وتفليس وشروان ، لانها تبذل وتصنع وتنجب . ويجلب اليهم منها شيء حسن الشية عظم الخلق كثير الثمن من جزيرة مبرقة ، وهي جزيرة لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة ، تلي ناحية افرنجة واسعة الخير كثيرة الخمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي ، غزيرة النتاج والمواشي

معدومة الجوائح قليلة الآفة ، وليس بها عاهة ولا وحش يوذيههم في سائمتهم . ورأيت منها غير بغل بيع بخمس مائة دينار واليهها مرغب ملوكهم وأياها يستوطنون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى ، وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط ، بل جمعت مع ذلك عظم الخلق وحسن الشية الى اختلاف الالوان الصافية والشعور الدهينة المشرقة والصحة على مر الايام مع الصبر على الكد والعسف » .

(ابن حوقل : صورة الارض : مطبعة ب ريل : ليدن الطبعة الثالثة : 1967 :

ص 114 - 115

«بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد فان امير المؤمنين لم يزل منذ اصطفاه الله تعالى لخلافته ، وارتضاه لحمل امانته ، وقلده اعباء بريته ، ناظرا لجميع المسلمين ، محاميا عنهم ، مهتبلا بامورهم ، متعاهدا لاحوالهم ، ساعيا فيما يرفه عنهم ويرغد عيشهم ويرخي بالهم ويصل حبل جماعتهم ويبسط العدل والامن فيهم ، تهون عليه في ذلك رغائب الاموال ونفيسات الذخائر وجلال الاعلاق ، فيما يعود عليهم ويرفع عنهم ، ويرعاهم بعين عن مصالحهم نائمة ، وجوانح على النصيحة لهم منطوية ، ونفس قد حشاها الله عليهم رافة وملأها رحمة ، لا يشغله دانيهم عن قاصيهم ، ولا حاضرم عن ياديه ، ولا يلهيه ما يسط له من ملكه وعز سلطانه وعلو امره وتمكين الله - تبارك وتعالى - له عن العناية بعلم حق يرفعه وتوهين باطل يضعه ، ويحكم عدل ينفذه ، وتخفيف مغرم يرجو ثوابه ، فكان اول ما استقبل به نعمة الله في استخلافه اياهم واكرامه له بصرف امر الامة اليه ان اسقط من الجبايات المستقرة على الرعية اعدادا عي ذوي الادراك حصرها ، وشع في العالمين ذكرها ، وابقى الله عز وجل له فخرها واجرها ، مما لم تكن الخلفاء ، رضي الله عنهم ، مع عظيم فضائلهم وجليل مآثرهم ، لتسخر ولا تطيب انفسها عنه ، فهانت عليه في التزلف الى ربه ، واحتقرها في استصلاح رعيته ، ثم لم يكتف بذلك ولا اقنعه حتى وضع عن الرعية بعد قليل مثله ، وشقعه بشيبيه ، باذلا له بنفس متسعة لفعل الخير ، وباع رحيب ببسط الفضل ، وهمة اكبر من الدنيا ، يقارض ربه فيحسن مقارضته ، ويتاجر فتريح تجارته ، فكلما جدد الله تعالى له صنعا وزاد في ملكه تمكيننا وعلى اعدائه ظهورا ازداد لله خشوعا وينعمته اعترافا ولفضله عليه شكرا والى من قلده امره احسانا ، وان امير المؤمنين لما تظاهرت الاء الله تعالى عليه وحسن بلائه عنده رأى ان يجدد له الشكر ويمتري منه المزيد باسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجد تقاضيتها منهم لسنة اربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفا عن رعيته واحسانا الى اهل مملكته وعهد ان يكون هذا

الاسم المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا ليبعد عن احتيال العمال وتسوغ الرعية النعمة به ، ويستوي في معرفته العالم والجاهل واليقظ والذاهل فاذا ورد عليك كتاب امير المؤمنين هذا فاحتفل في انذار الناس باقطار عملك ولا يتخلفن منهم من عذر احد عنك ، وامر بقراءته عليهم اثر صلاة الجمعة ليفهمه قاصيهم ودانيهم ، ويحمدوا الله عز وجل على ما وهب لهم من رأفة خليفتهم ، وكرم نظر امامهم لكافتهم ، فيستدرون عونه بالشكر ويستلهمون العون على القيام بحقه واداء مفروض طاعته والنصيحة له ، فانه يستجيب للداعين ويزيد الشاكرين ولا يضيع اجر المحسنين ، ان شاء الله ، وهو المستعان» .

(ابن حيان : المقتبس : قطعة عبد الرحمن الحجي : دار الثقافة : بيروت : 1965 :

ص207-208)

«واعظم مدينة بالاندلس قرطبة وليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من سافرتها الواصلين الى مدينة السلام انها كأحد جانبي بغداد ، وذلك أن عبد الرحمن بن محمد صاحبها ابتنى في غربها مدينة وسماها الزهراء في سفح جبل حجر املس يعرف بجبل بطلش ، وخط فيها الاسواق وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات ، واجتلب اليها العامة بالرغبة وأمر مناديه بالنداء في جميع اقطار الاندلس : ألا من اراد ان يبتني دارا او يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة اربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة وتكاثفت الابنية ، وتزايدت فيها الرغبة ، وكادت الابنية أن تتصل بين قرطبة والزهراء ، ونقل اليها بيت ماله وديوانه ومحبيه وخزائنه وذخائره ، وقد نقل جميع ذلك الى قرطبة تطيرا منهم بها وتشاء ما بموت رجالهم فيها ونهب سائر ذخائرهم.

وسمعت غير محصل ثقة ممن يستبطن جبايات البلد وحاصل عبد الرحمن بن محمد أن لديه مما اتجه له جمعه من الاموال الى سنة اربعين وثلاثمائة ما لم ينقص من عشرين الف الف دينار الا اليسير القليل دون ما في خزائنه من المتاع والحلي المصوغ وآلة المراكب وما يتحمل به الملوك من القنية المصوغة ، ولما توفي عبد الرحمن بن محمد سنة خمسين وثلاثمائة صار الامر الى ابنه ابي العاصي الحكم بن عبد الرحمن فصادر رجال ابيه وقبض نعم خدمه والوزراء الذين لم يزالوا في صحبته فكان الحاصل منهم عشرين الف الف دينار يتواطأ في علم ذلك اهل الخبرة بهم ويتساوون في معرفة وجوهه ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الاسلام شبه الا ما كان في يد الفضنفر ابي تغلب بالجزيرة والعراق ومقدار يزيد على ذلك حتى قيل انه كان خمسين الف دينار وادال الله منه فاخرج عن يده ومحقه وبدده وكذلك عادة الله في كل ما كسب

من حرام واجتمع بالبغي والظلم والآثام ، وصورة ما بالاندلس من المال الذي قدمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي وقد استحوذ عليه ابو عامر بن ابي عامر صاحب السكة بالاندلس وقتنا هذا فهو يلذ تفرقه وشقي به من جمعه وباء باثمه من لم يحظ به » .

(ابن حوقل : المصدر السابق : ص 111 - 112)

« ذكر ابو مروان خلف رحمه الله فى كتابه الذى اتافت على المائنة أسفاره المسمى باخبار الدولة العامرة المنسوخة بالفتنة البربرنة وما جرى فىها من الاحداث الشننة فقال : كتب الى ابو القاسم محمد بن مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن معرفا باشياء سألتة عنها من هذا الباب سنة 436 اثبتتها نقلا من كتابه وهى : مبلغ جبابة آخر ايام المنصور أربعة آلاف الف دينار سوى رسوم الموارث بقرطبة وكور الاندلس كانت تجرى على الامانة وسوى مال السبى والمغانم على اتساعه فى هذه وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لا يرجع الى قانون ، قال : وكانوا يعتدونها اربع بيوت تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزىادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار الى مائة وخمسين ألفا الى أن يدخل شهر يونيه العجمى فيتضاعف فىه الاتفاق من اجل الاستعداد لغزو الصائفة فىنتهى منه الى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها وما فضل من المال بعد جميع النفقات احرزه السلطان فى بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفاداته ، قال : وكتب ابو محمد عبد الله بن مروان آخر حذاق كتاب المحاسبة اليوم ومن لحق طرفا من تلك الدولة أن محمد بن ابي عامر احب الوقوف على حاصل الاطعمة فى الاهراء عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة 374 فارتفعت جملة الى مائتي ألف مدي ونيف عليها ، قال : فلحقه العجب بذلك حتى قال : أنا أكثر طعاما من يوسف الخازن . فلم يطله بغى كلمته اذ برأها من الاعتصام من ربه تعالى واعتورته السنون الشداد المتوالية من سنة 378 فانتسفت اطعمته باتصال الاتفاق وعدم الاغتلال حتى أشفى على المجاعة وهم بالجواز الى العدو لخصبها يومئذ حتى أغاث الله بلاد الاندلس وأخرج ارزاقها وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئا من الاطعمة ولا يقتصر على مايجتنيه منها حتى يخرج المال فى شرائها فى سنى الخصب فهلك وحاصله منها جملة غليظة » .

(ابن الخطيب : اعمال الاعلام : 114 - 115)

أحوال قرطبة المحاصرة من طرف الجند البربري في مستهل الفتنة

نص رقم 19

«وفي هذه السنة 401 هـ كان بنهر قرطبة سيل عظيم هدم في ارباض قرطبة نحو ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطير ومات فيه نحو من خمسة آلاف نفس ردما وغرقا وذهبت فيه امتعة الناس وأموالهم وهدم أكثر السور وردم كثيرا من الخندق وأقام هذا السيل ثلاثة أيام ، هكذا ذكر الرقيق في كتابه .

واجتمع أهل البلد والعبيد بقرطبة فتحالفوا بإيمان البيعة أن تكون أيديهم متفقة وكلمتهم في حرب البربر واحدة وأكدوا الإيمان بينهم في ذلك وكتبوا عقدا بذلك على أنفسهم وأشهدوا الوزراء والكبراء والسعر كل يوم يزداد غلاء والأمر يتفاقم والناس يتوجهون إلى السواحل والبوادي ، واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة وال...البالية وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه ومع هذه المحق فشرب الخمر ظاهر والزنا مباح واللوأط غير مستور ولا ترى إلا مجاهرا بمعصية .

وخرج البربر من جيان إلى أرملاط في جمادى الآخرة وقد ملؤوا أيديهم من البقر والغنم حتى عجزوا عن ضبطه فكان جباع أهل قرطبة يسرون ليلا على رعاة متفرقة فيأخذون منها ماقدروا عليه فلا يتورع عن شرائها كبير ولا صغير ثم نذروا لهم البربر فقعدوا لهم فكانوا يقتلون في كل ليلة العشرة والعشرين والثلاثين وقتلوا منهم في ليلة واحدة أكثر من مائة فانقطعوا عن غنم البربر جملة ، ورجعوا إلى ما بقي من مواشي أهل البلد يسرقونها ويذبحونها فيأكلها الناس كالحلال الذي لا شك فيه .

وكتب سليمان إلى أهل قرطبة يحذرهم الفتنة ويعد عليهم ما كان البربر يوالونهم من الجهل ويحتملون منهم من الأذى والقبيح وأنه عافاهم من غرور الإفرنج حين خرج هو مع البربر إليهم شفقة عليهم وغير ذلك من الحجج البالغة عليهم فمالت طائفة منهم إلى الصلح وانكرته

طائفة ونزل البربر على كل زرع حول قرطبة يحصدون وياكلون ويقفون بقرب الخندق فيقولون
اخرجوا الينا الحصادين فانا نضمن لكم الا ندع حبة واحدة يستهزؤون بهم ويضحكون منهم
وليس احد يقدر ان يخرج من الخندق اليهم من الجند وغيرهم .

وجاء عيد الفطر فلم يقدر احد منهم يخرج الى المصلى وصلوا في الجامع جزعا وخوفا
وعظم البلاء على اهل قرطبة ووقعت نار في سوق الخشابين فاحرقت اسواقا كثيرة ونهب العبيد
ما لم تحرقه النار فكان حريقا عظيما ، واحرق قوم من اهل قرطبة جامع الزهراء وأخذوا ما بقي
من قناديله وصفائح ابوابه ومنبره وحصره ، ووصل قوم من البربر الى شفير الوادي فدعوا الى
الصلح فركن ابن مناو الى ذلك وقال نصالحهم على ما يرضاه السلطان صوابا ، وكان ابن مناو
قد تسمى ذا الوزارتين فانكر الفقهاء ذلك وقالوا ان تم هذا كان فيه هلاكنا فاجتمعوا الى ابن
مناو وقالوا حرب البربر اسلم لنا من صلحهم فاعرضوا عن ذكر الصلح فرجعت الفتنة على ما
كانت عليه .»

(ابن عذاري : البيان : ج 3 : 105 - 107)

* «بسم الله الرحمن الرحيم توجه بأمر القاضي عبد الرحمن بن احمد بن بشير من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء لامتحان ما تشكاه متقبلو الجنات المحبسة المضموم نظرها الى ديوان القضاة بقرطبة من الجائحة الداخلة عليهم في هذه الجنات في سنة سبع وأربعمئة بسبب الخشاش المتولد من الارض لغلبة رطوبة الماء عليها في شهر مارس الكائن في العام المذكور وبسبب امتناع السناية في شهر غشت في العام المذكور للمخافة اللاحقة الاوراق الموضوعة فيها بتكرر الجيش في المحلة بشرقي قرطبة عند ورود العساكر مع النصارى وبسبب تكرار القنليات على الاوراق الموضوعة فيها وتقلبها عليها . فامتحنوا ذلك وكشفوا عنه ورأوا بما انكشف لهم من ذلك ان يسقط عن متقبلي الجنات التي برملة قرطبة وما اتصل بها من الجهة الشرقية بسبب جائحة الخشاش وامتناع السناية للخوف المذكور ثلث ما عليهم من القبالة في الارض البيضاء وثبت عليهم الثلثان وان يسقط عن متقبلي الجنات في الجهة الغربية والجوفية من مدينة قرطبة بسبب جائحة القنليات والخشاش في الارض البيضاء الربع وثبت الثلاثة الارباع وان ذلك من السداد للاعباس المذكورة لما فيه من حق المتقبلين واستيلاهم . فمن الجنات التي بالرملة وما اتصل بها من الجهة الشرقية جنان كذا وجنان كذا ، ومن الجنات التي بالجهة الغربية جنان كذا وجنان كذا ، ومن الجنات التي بالجهة الجوفية جنان كذا وجنان كذا ، شهد بذلك كله من وقف اليها وعايته ورآه على حسب ما وصف فيه فمن اوقع شهادته بذلك في شهر كذا وثبت هذا العقد عند القاضي ابي المطرف ونظر لهم بما شهد فيه » .

(ابن سهل : المصدر السابق : 326 - 327)

محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن اسحاق بن عبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان امير المؤمنين ، المعروف بابن الاحمر من اهل قرطبة ، يكنى ابا بكر . سمع بالاندلس من عبيد الله بن يحيى ، وسعيد بن خمير ، واصبغ بن مالك ، ومحمد بن عمر بن لبابة . ورحل الى المشرق سنة خمس وتسعين ومائتين فسمع بمصر من احمد بن شعيب النسائي ، واسحاق بن ابراهيم المنجنيقي ، وابراهيم بن موسى بن جميل ، وابي بشر الدولابي ، ويموت بن المزروع العبدي صاحب الاخبار ، وعلى بن سليمان الاخفش صاحب النحو .

وسمع بمكة من محمد بن المنذر الخراعي ، والجارودي . ودخل بغداد فسمع بها من ابي بكر جعفر بن محمد بن المستفاض ، وابي القاسم بن بنت منيع البغوي ، وابن الانباري ، ونفطويه .

وسمع بالكوفة من ابراهيم بن شريك ، وبالبصرة من ابي خليفة الفضل ابن الحباب الجمحي ، وزكريا بن يحيى الساحي ، وابي همام اليكرواني ، وسمع بالاهلة من ابي يعلى محمد بن زهير القاضي ، وابي يعلى حمزة بن داود الثقفي من ولد الحجاج بن يوسف في جماعة كثيرة من البغداديين والمصريين وغيرهم .

ودخل ارض الهند تاجرا ، وكان يقول : خرجت منصرفا من ارض الهند وانا اقرر ان معي قيمة ثلاثين الف دينار ، فلما قاربت ارض الاسلام غرقت فما نجوت الا سبيحا لا شيء . معي . وقدم الاندلس سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، وبدأ الناس بالقراءة عليه من سنة ست وثلاثين ، وكان شيخا حليما ، ثقة فيما روى صدوقا .

(ابن الفرزي : تاريخ علماء الاندلس : الدار المصرية للتأليف والترجمة :

القاهرة : ق 2 : 67 - 68)

«قال محمد : اخبرني من اثق فيه من اهل القلم قال : كان بقرطبة رجل اعجمي ممن استنزل من الحصون المخالفة ، وكانت له امرأة حرة مسلمة فاستجارت بالقاضي اسلم بن عبد العزيز فاجارها وبدأ بالنظر في امرها وكان في ذلك الوقت الحاجب بدر بن احمد يحل من امير المؤمنين رحمه الله محلا لطيفا فلم ينشب القاضي اسلم وأتاه يعلى عن الحاجب بدر فقال له : الحاجب يقرأ عليك السلام ويقول لك : ان هؤلاء العجم استنزلناهم بالعهد ، ولا يحل الحقد بهم وانت اعلم بما يجب من الوفاء بالعهود فدع بين فلان العجمي وبين الامة التي في يديه فقال اسلم ليعلى الحاجب ارسلك بهذا قال : نعم قال : فاخبره عني الايمان كلها لازمة لي لا نظرت بين اثنين حتى انفذ على العجمي ما يجب عليه من الحق في هذه الحرة المسلمة التي في يديه فذهب عنه يعلى ثم رجع اليه فقال : الحاجب يقرأ عليك السلام ويقول : اني لا اعترضك في الحق ولا استحل سؤال ذلك منك وانما اسألك التثبيت في ما يجب من حق هؤلاء المعاهدين فقد علمت ما يجب من رعايتهم وانت اعلم بالواجب (...).

قال محمد : وسمعت من يحكي انه جاء رجل من النصارى مستقتلا لنفسه فويحه اسلك وقال : وملك من اغراك بنفسك ان تقتلها بلا ذنب ، فبلغ من سخف النصراني وجهله الى ان انتحل له فضيلة لم يقرأ لمثلها لعيسى بن مريم صلى الله على محمد وعليه فقال للقاضي : وتتوهم انك اذا قتلني اني انا المقتول فقال له القاضي : ومن المقتول فقال له شبهي يلقي على جسد من الاجساد فتقتله ، أما أنا فارفع في تلك الساعة الى السماء فقال له اسلم : ان الذي تدعيه من ذلك غائبنا عنا والذي يخبرك به من تكذيبك غائب عنك ، ولكن ثم وجه يظهر صدقه لنا ولك فقال النصراني : وما هو فالتفت اسلم الى الاعوان ثم قال : هاتوا السوط ، ثم امر بتجريد النصراني فجرد ، ثم امر بضربه فلما اخذته السياط جعل يقلق ويصيح فقال له اسلم :

في ظهر من تقع هذه السياط فقال : في ظهري قال له اسلم : وكذلك السيف والله في عنقك تقع فلا تتوهم غير ذلك » .

(الحشني : قضاة قرطبة : الدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة 1966 : 107 - 109)

مظاهر من الحياة العامة بالاندلس

نص رقم 23

«ومن البدع اجتماع الناس بارض الاندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وكذلك على اقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم ، واقامة العنصرة وخميس ابريل بشراء المجبنات والاسفنج ، وهي من الاطعمة المبتدعة . وخروج الرجال جميعا او اشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون في ايام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة . ودخول الحمام للنساء مع الكتائبيات بغير مزر ، والمسلمين مع الكفار في الحمام والحمام من البدع ومن النعيم » .

(الطرطوشي : الحوادث والبدع : تحقيق محمد الطالبي : تونس 1959 : 140 - 142)

«وكان عندنا بالاندلس منهم جماعة ممن عني بصناعة الطب حسداي بن اسحاق خادم الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، كان معتنيا بصناعة الطب متقدما في علم شريعة اليهود وهو اول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبله يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت اعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يعرفون به مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم . فلما اتصل حسداي بالحكم ونال عنده الحظوة بفضل دريته ونهاية براعة اديه وتوصل به الى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا قبل يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه» .

(صاعد الاندلسي : طبقات الامم : تحقيق حياة العيد : دار الطليعة

بيروت 1985 : 203 - 204)

«مدينة اليسانة وهي مدينة اليهود ولها رضى يسكنه المسلمون وبعض اليهود وبه المسجد الجامع وليس على الرضى سور والمدينة متحصنة بسور حصين ويحيط بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب وفائض مياهها قد ملأ ذلك الحفير واليهود يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين يبلاد المسلمين ولليهود بها حذر وتحصن ممن قصدهم ومن اليسانة الى مدينة قرطبة اربعون ميلا» .

(الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق : نابولي - روما 1975 : المجلد 5 : 571 - 572)

«وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق بلد الاندلس ، فقال : اهل اصحاب جهاد متصل يحاربون من اهل الشرك المحيطين بهم امة يدعون الجلالقة يتاخمون حوزهم ما بين غرب الى شرق ، قوم لهم شدة ولهم جمال وحسن وجوه ، فاكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراة منهم ليس بينهم وبينهم درب ، فالحرب متصلة بينهم ، ما لم تقع هدنة ، ويحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرنجة هم اشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوهم ، اذ كانوا خلقا عظيما في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الارض الكبيرة ، هم اكثر عددا من الجليقيين واشد باسا واحد شوكة وأعظم امدادا ، وهذه الامة يحاربون امة الصقالبة المتصلين بارضهم لمخالفتهم اياهم في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بارض الاندلس ، فلهم هنالك كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بارضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد ، وقد تعلم الخصاص قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلثة » .

(المقري : نفح الطيب : ج 1 : 144 - 145)

«الا ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة اهل القيروان ، ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي ، ومن الخراساني اذا رام نغمتهما . ونحن نجد من سمع لغة اهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة اهل البلدة بامة اخرى يتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله . ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن اصل الكلمة كلغة اخرى ولا فرق فنجدهم يقولون في العنب العينب ، وفي السوط اسطوط ، وفي ثلاثة دنانير ثلثدا . واذا تعرب البربري فاراد ان يقول الشجرة قال السجرة . واذا تعرب الجليقي ابدل العين والحاد هاء فيقول مهيدا اذا اراد ان يقول محمدا . ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان ، واختلاف البلدان ومجاورة الامم ، وانها لغة واحدة في الاصل» .

(ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام : تحقيق احمد محمد شاكر : دار الاتفاق الجديدة بيروت : الطبعة الثانية 1983 المجلد الاول : الجزء الاول : صفحات : 31 - 32)

«وأكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه ، اما خاملا لا يؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه ، لصباه او لهيئة رثة أو بذافة في طلعتة ، واما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره او لسن عالية قد بلغها . وما اكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الاحمرين . واني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيشما رأيتها ، او ذوات صناعة يقرب بها من الاشخاص ، فمن النساء : كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والغنية والكاهنة والمعلمة والمستخدمة والصناع في المغزل والنسيج ، وما اشبه ذلك ، او ذا قرابة من المرسل اليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الاوصاف ، وعسير يسر ، ويعيد قرب ، وجموح انس ، وكم داهية دعت الحجب المصونة ، والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لارباب هذه النعوت ، ولولا ان انبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل احد . والسعيد من وعظ بغيره ، وبالضد تتميز الاشياء . اسبل الله عليها وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا زال على الجميع ظل العافية» .

(ابن حزم : طوق الحمامة : ضمن رسائل ابن حزم الاندلسي : تحقيق احسان عباس :

المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1980 : ج 1 : 141 - 142)

«واني لاعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم ، فشاع على احدى جواربها انها تعشق فتى من اهلها ويعشقها ، وان بينهما معاني مكروهة ، وقيل لها : ان جاريتك فلانة تعرف ذلك وعند هاجلية امرها ، فاخذتها وكان غليظة العقوبة فاذاقتها من انواع الضرب والايذاء ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء ان تبوح لها بشئ مما ذكر لها ، فلم تفعل البتة .

واني لاعلم امرأة جلييلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها ، وكانت في غير ملكها ، فعرفته الامر فرام الانكار فلم يتهبأ له ذلك ، فقالت له : مالك ومن ذا عصم فلا تبال بهذا ، فوالله لا اطلعت على سركما احدا ابدا ، ولو امكنتني ان ابتاعها لك من مالي ولو احاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك احد .

وانك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال ، واحب اعمالها اليها وارجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة ، واعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة . وما اعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه ، والغزل واسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لاشغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه ، والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم وحيطة العيال ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الارض ، وهذا كله متحيف للفراغ ، صارف عن طريق البطل .

وقرأت في سير ملوك السودان ان الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضربة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر ، لانهم يقولون : ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تتشوف الى الرجال ، وتحن الى النكاح .

ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري ، لاني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين ايديهن ، ولم اعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وانا في حد الشباب وحين تبتل وجهي ، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ودرينني في الخط ، ولم يكن وكدي واعمال ذهني مذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جدا الا تعرف اسبابهن ، والبحث عن اخبارهن ، وتحصيل ذلك . وانا لا انسى شيئا مما اراه منهن ، واصل ذلك غير شديدة طبع عليها ، وسوء ظن في جهتهن فطرت به ، فاشرفت من اسبابهن على غير قليل ، وسيأتي ذلك مفسرا في ابوابه ، ان شاء الله تعالى .

(ابن حزم : طوق الحمامة : 165 - 166)

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم الثالث



عصر الطوائف

عصر ملوك الطوائف

لقد حار المؤرخون القدامى والمحدثون في فهم التاريخ الأندلسي خلال عصر ملوك الطوائف وتفسيره بما انفرد به هذا العصر من تعقيد وتناقضات ، ليس على المستوى الداخلي فحسب بل حتى بالمقارنة مع العصور السابقة واللاحقة. فقد تناقض هذا العصر مثلاً مع عصر الخلافة الأموية الذي سبقه تناقضاً تاماً ، فخلافاً لعصر الخلافة الذي تميز بالمركزية السياسية عرفت الأندلس خلال عصر الطوائف تقسيماً سياسياً لم يعرف له مثيلاً. فقد تمزقت وحدة الأندلس التي كانت تتمثل في الخلافة وتطاحن ملوك الطوائف. وازداد الخطر العسكري المسيحي من الشمال على الأندلس خلال عصر الطوائف خطورة حتى توجّ باحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ / 1085 م .

ومن التناقضات التي تميزت بها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري على النطاق الداخلي تناقض بين التطورات السلبية سياسياً واقتصادياً من جهة ، وبين التيارات الإيجابية ثقافياً وفكرياً من جهة أخرى. فبينما أدّت الاتجاهات السياسية والاقتصادية بالأندلس إلى انفجار الأوضاع في دول الطوائف في نهاية المطاف بلغت الثقافة الأندلسية أوجهاً في التجديد والابتكار والابداع وذلك في مجالات معرفية متعددة تتراوح بين الأدب والتاريخ والفقه والفلاحة والهندسة. وشهدت الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف مجموعة من الأحداث التاريخية الكبرى التي غيرت السيرة التاريخية الأندلسية من جهة ، وكانت لها عواقب خطيرة على الساحة "الدولية" من جهة أخرى ، نذكر من بينها على وجه الخصوص فتنة قرطبة التي توجت انحلال الخلافة الأموية ودمشت عصر الطوائف والهجوم المسيحي على بريشتري سنة 456 هـ. واحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ. وانتصار الأندلسيين والمغاربة في تحالف ضد الفونسو السادس في "وقعة الزلاقة" سنة 479 هـ.

وإذا كان عصر ملوك الطوائف يشكل مرحلة انتقالية بين عصري الخلافة والمرابطين ،

فإنه يشكل في الوقت ذاته ظاهرة تاريخية منفردة تحتاج إلى تقويم خاص كما أن هذه المرحلة تعتبر أساسية لفهم العصرين السابق واللاحق. إن التعمق في دراسة عصر ملوك الطوائف يساعدنا على فهم أسباب انهيار الدولة الأموية بقدر ما يعتبر ضروريا لتحديد أسباب ترسيخ الحكم المرابطي في الأندلس.

إن النصوص التي سنقدمها تعكس جوانب دقيقة لأحداث سياسية كبرى عرفتھا الأندلس خلال القرن الخامس الهجري كاحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ. ووقعة الزلاقة كما تسميها المصادر التاريخية.

ومن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تتطرق لها النصوص التي نقدمها للقارئ الكريم ، ثورة اليهود في البسامة في دولة غرناطة الطائفية. وتعكس هذه النصوص تنوع عصر الطوائف وتناقضاته كما أنها تعبر عن الإبداع الأندلسي في مجال التأريخ. وإنني أهدف من خلال تقديم هذه النصوص إلى التعرف بعصر الطوائف من خلال معاصريه والمشاركين في صنع أحداثه الكبرى كما أرغب في إثارة انتباه عشاق الدراسات الأندلسية إلى القيمة التي تنفرد بها النصوص الأندلسية عموما خلال القرن الهجري الخامس.

نصوص سياسية

ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف

نص رقم ١

«نقول ، وبالله الاستعانة ، ومنه الحول والقوة : وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب ، والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطبة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ، ولا في الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء ، وهو ما بين محبوب ، وبريري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ؛ مامنهم من يرضى أن يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغايراً ؛ وقصارى أحدهم أن يقول : « أقيم على ما بيدي ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ! » ولو جاء عمر بن عبد العزيز ، لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه ؛ ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً ، وخلقوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً من معتمد ومعتمد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل ، كما قال الشاعر :

مما يُزهدُنِي في أرضِ أُنْدَلُسٍ * أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا * كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الْأَسَدِ

جلبنا منهم ذاكرة ليغيبط مطالعه بحاله ، ويرضى الواقف عليه من زمانه ، وببتهج بشأنه ، ويرى أنه أوثق عهده ، وأحكم عقده ، وأرحب عطنا ، وآمن وطننا ، وسبحان من لاترن الدنيا عنده جناح بعوضة ، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير مالديه !

(لسان الدين أبو عبيد الله محمد بن الخطيب ، « أعمال الأعلام فيمن بربع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » تحقيق إليني بروفنصال ، بيروت ، 1956 ص 109 - 110) .

ويقي ابن عمار مرتبنا بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بلبش في تبعات كثيرة وجرايات جسمية يقطعها له ، ويعدده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحة لكي يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقر عن إدخال ضرر على المسلمين. ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهديد الأمر ، ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة ، لا ينام في نقضها وإشعال نار الفتنة.

فعاد ثانية إلى النصراني الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده في صورة من لا يقدر على شء من أجل الضعف وسن الصبا ، وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأسرها ، على أن يعاقده ، إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما لقي من أموالنا. وألقى يده في ألفونش ، عازما عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسمية ، ووعدده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على ما يجد ، لمساعدته على السير.

فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي ؟ وكلما أكثر الشوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفئدة ! » فأتى علي نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض. ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه ؛ فإنه عمل في ذلك حسابا أن قال : « إنا من غير الملة ؛ وكل الناس يشئاني ؛ فبأي وجه أطمع في أخذها ؟ إن كان من ياب الطاعة ، فأمر لا يمكن ؛ وإن كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي ، وتكون الخسارة على أكثر مما نرجوه إن صارت إلي. ولو صارت ، لم تتمسك إلا

بأهلها ؛ ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً ، حتى ترق وتضعف ؛ ثم هي تلقى بيدها إذا ضعفت ، وتأتي عفواً ، كالذي جرى بطليطلة إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إلى بلا مشقة !»

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر به وزراؤه. ولقد قال ذلك ششاند في حال هذه السفارة ، وشافهنا بذلك وقال : « إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهم العربُ ، وألحقوهم بأحسن البقاع : جليقية ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف !»

فكان الجميع يسائر الأمور ، ويدافع الأيام ، ويقول : « من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين !»

(الأمير عبد الله بن بلقين الزيري ، «كتاب التبيان» ، تحقيق إ. ليفي بروفنسال ،

القاهرة 1955 ، ص 72 - 73) .

(تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد)

« وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حلوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء ؛ فأما ابن صمادح ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصاً لِيَرَى كَيْفِيَّةَ الأَمْرِ ومخرجه مع الروم ؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل ابنه معتذراً. وبادرنا نحن إلى الخروج ، وسررنا بذلك وأعدنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدمنا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة. وظننا أن إقباله إلى الأندلس منهُ من الله عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لاسيما خاصةً من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق ؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام ؛ فمن عاش منّا كان عزيزاً ، تحت ستر وحماية ، ومن مات كان شهيداً. والعجب في تلك السفارة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجريشة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيّه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً على أموالنا. ولقينا المتوكل ابن الألفطس محتفلاً بعسكره ؛ كلٌّ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن الموت نفسه.

.موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونس السادس

وتلومنا ببطلينوس أياماً ، حتى صَحَّ عندنا إقبال ألفونس في حفلة ، بروم الملاقاة ، ويظن أنه يهزم الجيش لقلّة معرفته به قبل. وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن بإزاء المدينة ، متربصون ؛ ان كانت لنا ، فيها ونعمت ، وان لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومعقلاً نأوى إليها. وأمير المسلمين يدبّر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوِّج إلى التوغّل في بلادهم. وهم ،

كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورجا بأن يكون الرومي لا يخرج إليه أحد ، فينصرف طريقه ، ويكفى الله المؤمنين القتال ، إلى أن تربه الأمور وجوها. فلا يسمع إلا الأمير متريصا لالتياث طاف به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصرارى مدوخا لها. والنصراني في هذا كله يقرب متعاطيا ، لا يعمل حساب من يغلب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيف ؛ ولو لم يكن إلا يأكله الطريق وبعد المسافة.

ثم أرسل ، على يدى ابن الأقطس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وأنت تترىص وتختبئ لأصل المدينة ! » فلم يكن بد أن ينتقل إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه. وتوعدا اللقاء في يوم سُمياه. ولم يكن بين المحتلين إلا نحو ثلاثه أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد ، وحل الناس عن أنفسهم ؛ وكانت خيرة أن لو ركب الفئتان ، لم تنفصل إلا عن فقد الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما توجه الموافقة القتال.

ففجأهم عسكر الرومى ، وهم على غير إعداد. وكان مختلساً : إنما له ما ألقى في تلك الساعة ، وألقى سُمه في الرُحْل ؛ ومات منهم خلّاتق مَن لم يكن يقدر على نفسه. فلم تقع الصيحة على الجيش [إلا] وركبهم في طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة. فاقتفى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلّاتق ، وتبدّوا في الطريق فمن بين قتيل وميت مثقل ضريع . ولو أن الوقعة تكون على أعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ، كالذي توجه الرتبة ؛ لكن الله لطيف بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل. وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى اشبيلية على حال سلامة ونصر.

- يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة. بدء الخلاف بين المتحالفين .

ولما انقضت غزوته تلك ، جمعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم يفترونا إلا للذي كان من تشقتنا واستعانة البعض بهم على البعض. فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالمقه ، وقال من غير روية : « إن أحوالي قد ضاقت بتعددي أخي على بلادتي وميراث جدتي » يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه منا. فلما قضى كلامه ، قال أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لي ؟ » فلما قال له : « لا » رد عليه : « ما ينبغي لنا ذلك إلا برضاه » ولم يمكننا في ذلك الحين السكوت لما يلزم من شكر الأمير ، و[كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عدلنا ألا ينتسب إلينا بعد نسبه. فقلت له : « إن أمير المسلمين لم تكن غايته إلا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين ابنائهم. وليس منا أحد حصل على شيء بقدرته ، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه. وقد كان الشيخ جدنا - رحمه الله - رتب ذلك ، ورأى أن مالمقه لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفاً إلينا من بعده ، كالذي كانت في حياته. فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل. ولو رأى جدك في ذلك صلاحاً ، لأعد لك لذلك عُدَّة تغنيك عنا ؛ ولما تعديت المرة بعد المرة ، سعينا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجد ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التي تحب بانحياشك ونفارك. وهذا ما وقع ؛ فإن شاء أمير المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتب الشيخ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ؛ وإن رأى ما فعل من ذلك سداداً وصلاحاً ، فلأي وجه نكلفه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمت بهذا ، وقعت مساكنته. وأمر الأمير بانصرافنا ، ولم يعد في ذلك بعدها مجلساً إلا في سفرة لبيط الملعونة.

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عياناً وسماعاً من اختلاف

كلمتنا مالم ير وجهها لبقائنا في الجزيرة. وأنسَ الجميع ؛ ولم يترص في البلاد ألا يوحش
سلاطينها ثم يتوقعونه من انحياش رعيّتهم إليه ؛ فكل من شكا إليه ذلك الوقت من رعيّة ،
يقول له : « لم تأت لهذا ! والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم ! » حتى ازداد بذلك محبة
إلى ماكان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامة وميلاً. ورجع الكلُّ إلى وطنه .

(الامير عبد الله بن بلقين الزيري ، "كتاب التبيان" ، تحقيق إ. ليفي

بروفنّصال ، القاهرة ، 1955 ص 1047 - 107).

"جملة من إنشاءاته السلطانية مع ما يتعلق بها ويذكر بسببها

له من رقعة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية أذفونش ، قصمه الله ، يوم الجمعة المشهور ، الذي أباد الله فيه عبدة الطواغيت على يدي أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، قال فيها : كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين ، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضلته على يدي مسعانا انفتح المبين ، بما يسر الله في أمسه وسنائه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أذفونش بن فردلند ، أصلاه الله . إن كان طاح . الجحيم ، ولا أعدمه . ان كان أمهل . العيش النميم ، كما قنعه الحزي العظيم ، وإتيان القتل على أكابر رجاله وحُماته ، وأخذ النهب في سائر اليوم واللييلة المتصلة به جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدي من رؤوسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلأ الأيدي ثمًا قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد في آثارهم ، وقادي الطلب من وراء فرارهم ؛ والذي لامرية فيه أن الناجي منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ، ولم يصبني بحمد الله إلا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المأل عندي وزكى ، فلا يشغل لك بذلك بال ، ولا تتوهم فيه غير ما أشرت إليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذي لا يرجى إلا من عنده .

قال ابن بسام : وشهر رجب الذي ذكره كان سنة تسع وسبعين .

ثم ورد كتاب من إنشائه يشرح جمل هذا الفتح وتفصيله ، قال في بعض فصوله : وقد علم ما كنا قبل مع عدو الله أذفونش بن فردلند ، قصمه الله ، من تطأطونا واستعلاته ، وتقامنا وانتخاته ، وأنا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلالته انقضاء ، ولا لمدة الامتحان به فناء ،

إلى أن سئى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلي الأحمى . أيده الله . ماسئى ، وأدنى من نأى دياره وشخط مزاره ما أدنى ، فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب ، وأستفتحُ إلى ما كنتُ أتخيّلُ من نصره الأبواب ، إلى أن ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصبة له ؛ ثم أجاز . على بركة الله وعونه . يرشُ ويبري ، وصار بعد قُدماً يخلق ويفري ، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري ، وأنا أنجده بوسعي ، وأسعده على حسب ما يطيقه ذُرعي ، إلى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس . حرسها الله . واتفق رأينا بعد تشاورٍ على قصد قورية . حرسها الله . وسمع العدو . لعنة الله . بذلك ، فصمد من مُحْتَشَدِهِ إليها في جيوشٍ تملأ الفضاء ، وتسدُّ الهواء ، وتمنع أن تقع على ماتحت رايته ذُكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جراتهم وإقدامهم ، ولما أشرف على جَنَابِها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتَّجه لنا بعدُ ما أردنا من إلماها ، دعاةُ تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله نَفْجُهُ وتهوُّره على السلوك في مدرج سيولنا .

وفي فصل منها : قدنونا إليه بمحلاتنا . نصرها الله . ثم اضطربناها بازائه ، وأطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائنه ، ورأى . لعنه الله . ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضطراً على اللقاء ، وقدم بعض أخبيته دَهْشاً في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء ، وقد تبَيَّن أنه إن أخذ المسلمون مصافهم ، ورتبوا في مواقعهم كوافهم ، اصطَلَمَ عن آخره جمعه ، واجتثَّ أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدر غرَّةً ، وحمل ولم يكن . بحمد الله . ما استشعره مرَّةً ، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور ، فتوافق قليلاً الجمعان ، وتجاوز ملبأ الفريقان ، وللسيوف حكمها ، ومن الختوف حُدُّها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أمير المسلمين وناصر الدين . أيده الله . الحملة ، وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن وُلِّوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين . نصرهم الله . بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل

غَوْرٍ ونجد ، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالي . ونقد ، ولم يخلص منهم على أيدي
المتبعين . آجرهم الله . إلا من سيلتهمه البُعد ، ويأتي على حشاشته الجهد ، وأما محلّتهم
فانتُهبَت في أول وهلة ، وشربت بأسرها في نهلة.

وفي فصل منها :

ولم يُصَبَّ بحمد الله من المسلمين . وفرهم الله . على هول المقام ، وشدة الاقتحام ،
كثيرٌ ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عددٌ يسير ، فإن كان اذقونش . لعنه الله . لم
يَمُت تحت السيوف ببدأ ، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً ، ونحمد الله على مايسره من هذا
الفتح الجليل وسنّاه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاده.

قول أبي بكر فيما كتب به عن المعتمد يومئذ : « ولم يصبني إلا جرح أشوى » تواتر
النبا أنه جرحته يده في ضنكٍ ذلك المأزق.

وقيل في يوم الجمعة أشعار سارت بالمغاربة والمشارك ... »

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتري ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الثاني ،
المجلد الاول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس 1979 ، ص 241 - 244).

توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد

«وان المعتمد بن عباد ، لما بصر بدخول الأمير غرناطة ، وأستنجز وعده ، فلم يُلْتَفَتْ ، ورأى ثقافتها بالمرابطين وإخراج من فيها من الحشَم وكل من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعاً شديداً ، وخاف أن يثني به ، إذ رأى الأمير مذهبه في البلاد واستصراخه. ولم يمكن للأمير أن يأخذه بغير ذنب : فيقبح ذكره. وأشار إليه المرابطون بثقافه ؛ فأبى حتى يلوح قَبْلَهُ ذنب يؤخذ به. ثم إنه ، بعد أن نهض واتبعه قرور يقول له : «الأمير يحتاج إلى تذكارك بعض الأمور» فأبى ، ومضى لوجهته ، فاراً بنفسه ؛ وأطوى المراحل ، حتى وصل قرطبة. وقال في طريقة إلى ابن الأَفْطُس : « انج بنفسك ! فقد ترى ماحل بصاحب غرناطة ، وغداً بنا ! »

ثم إنه ، بعد أن ظهر للأمير نَفُورُهُ ، وَجَّهَ إليه يأمره بالقُدُوم عليه ، ويقول له : « نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله. » : ليقول : « لا ! » فيجد السبيل ، كما فعل. فراجعهُ ابن عباد : « إن ذلك كان وقت كُنْتُ ضَيْفًا ، وتريد الغزو ؛ فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي ! والآن إنما أنت لي جار مثل باديس وحفيده ؛ وأنت أقدرُ مِنِّي على الشرِّ بجنودك ! فلا يمكنني التفرير بنفسي ، عسى أنك تريد أخذَ بلدي ، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس ! » فشرط عليه أمير المسلمين أن يلتزم الرِّبَاط ، ويقطع القبالات ؛ وتحاملاً كثيراً عَلِمَ أنه لا يفعله ؛ وفي تركه أو فعله قطعه. فامتنع ابن عباد جَهْدَهُ ، وبنى على الشرِّ.

وبدأ [المرابط] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاذِلِهِ ؛ فانتشرت ، كما جرى لغيرها ؛ وقامت عليه الرعايا بكل قطر. فأرسل إذ ذاك إلى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه ، خَبِثَةً من التفرير ، وهي حُجَّةُ أمير المسلمين على ابن عباد ، أن قال له : « ظفرتُ بكتبك إلى الرومي وإرسالك عنه ! » فقال المعتمد : « لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تُؤَخِّدَ بِلَادِي بَطْراً وأُشْراً ، كنت ألام ! وأما بعد أن رأيت

طلبي في الروح ، اضطررتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ، ولو يوماً واحداً ، وهي كانت علّة الجميع ؛ وبذلك هلك ابن الأفطس ، ومنه أتى.

الاستلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عبّاد

فلما تبين للأمير خلافه وقعوده عنه ، شاور الفقهاء في أمره ؛ فأشاروا عليه بغزوه. فكان غزوه بعد إبلاء عذري ؛ ولهذا ما آخر به ليهلك من هلك عن بينه ولتكون له الحجة على من يريد إخراجهم. فأمر الأمير سير بالخروج إليه. ونهض ، ونحن بمكناسة ، ونازلنا مدةً طويلةً ؛ ومعاقله قد ذهب أكثرها بالطاعة.

وافتح الأمير بخلال هذا مدينة قرطبة ، واستشهد فيها ابنه المأمون ووزيره ابن زيلون وابن بكر. رحمهم الله. بمداخلة من أهل البلد ، مع انخراق المدينة ، وأنه لم يمكن ضبطها إلا بأهلها. وكان المعتمد حذراً على قرطبة ، يرجو بقاء حاله بثبوتها ، ويوصي ابنه بالصبر ، ويقول له : « لا تجزع ! فالموت أهون من الذل ! وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر ! »

فلما أخذت قرطبة ، انقطع الرجاء. وضائق إشبيلية ؛ ونقد ما كان من أجل النفقات ، إلى أن دخلها الأمير سير عتوةً بمداخلة من بعض أهلها. وهلك فيها عالمٌ ، وانكشف الحرم ، إذ للجيش معرفة لا تملك بعد صبرهم على ملكهم. وظهر لسير من اجتهدهم في القتال ما أعجبه ذلك ، وقال : « لو أنني أقصد مدينة الشرك ، لم تمتنع هذا الامتناع ! »

وكان دخولها من ناحية الوادي ، وهو أسهل الأماكن. ولولا صبر أهلها وكثرة أقارب ابن عبّاد ، لم يستطع [المعتمد] على شيء ؛ فكانه غلب بالثقات الذين كانت الأبواب بأيديهم ، ووكّلهم بمن سواهم ، إلى أن لم يكن مع القضاء مدفع. وكان دخولها يوم الأحد في رجب [سنة 484] ، في التاريخ الذي دخلت فيه غرناطة بعدها بعام كامل. ودخلت قبلها قرمونة ومات فيها عالم كثير. ثم التوى أمر رندة ؛ ونازلها قرور ، إلى أن ظفر بالراضى وخدعته ، وحصل على أمواله ، ثم قتله ، خوفاً من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيل إن ذلك لم يكن عن

رأى السلطان. وأمرَ بِقَتْلِ كُلِّ من ظفر به في رنـدة المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين. وقتل فيها رَجُلٌ من العَرَبِ يعرف بأبى الصَّمصَام ، جرأةً على الله ، ليأخذ بِنَتْنِهِ ؛ ونكحها من بعده ، وحصل على ماله. (وما رُبَّكَ بِغَافِلٍ) . وامتسكَ بالعبيد ، وصيرهم إلى السلطان.

ولما ظفر بابن عبَّاد ، فَبِأُ الأمير سير خدمه وعبيده ، حاشى أمهات الأولاد. وأمره أمير المسلمين بإرساله إليه. فتقدم إلينا بمكناسة مع دخلته ، وبقي فيها إلى أن سبق معنا إلى آغـمات.

قفول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وإن أمير المسلمين ، لما فتح الله له في هذا كله ، أخذ في الانصراف إلى مَرُوكُش ؛ وقد بلغ من آماله غايتها ، وامتلأت يـداه بالأموال ؛ وقسم على أجناده بعض من الفى . ، وأهدى إلى الصُّحراوي عَمَّهُ من تلك الذخائر.

وأمرنا أن نستوطن آغـمات ؛ فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلُّ جميل ، وأنزلنا بداره الصُّغرى في الحريم ، ولم يَزَلْ يعتقدنا من إنعامه ، كيف ما هبَّ الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفق بنا ، وأحسن مذهبٍ فبنا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه منّا إحساناً».

(الامير عبد الله بن بـلقين الزيري ، "كتاب التبيان" ، تحقيق إ. ليفي بروفنسال

القاهرة ، 1955 ، ص 168 - 171) .

وعتا الطاغية أذفونش . قصمه الله . حين استقراره بطليطلة واستكبر ، وأخل بملوك الطوائف في الجزيرة وقصر ، وأخذ يتجنى ويتعب ، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب . ورأى أنهم قد وقفوا دون مداه ، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه .

وولى ششند المذكور تدبير طليطلة ، فهونَ عليهم الرزية ، وحبب إليهم إعطاء الدنية ، بما أراهم من سهولة مرامه ، وبسط فيهم من عدل أحكامه . حتى استمال قلوب أعلامها ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم ، وتنصر سفهائهم ، ما ضاقت عنه صدور الأيام ، واضطربت له قواعد الإسلام . وقد كان من رأي ششند الإبقاء على أهل طليطلة ، وقال لأذفونش : لست تجد بمن تعمرها ، ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون يدبرها ، فأبى أذفونش إلا لجأاً في سفهه ، وانحطاطاً في جبل شرهه . فلما تهيأ له ملكها ، وانتشر في يديه سلكها ، قال له ششند : اخفض جناحك لأهلها ، واستجلب جاليتها بما تقدّم من ظلها . ولا تلج على ملوك الجزيرة فلكست تستغني عنهم ، ولا تجد عمالاً أطوع منهم فإنك إن أبيت إلا الإلحاح عليهم ، والتسرّع بالمكروه إليهم ، نفرتهم عن ذراك ، وأخرجتهم إلى مداخلة سواك . فكان من صنع الله أن اتهم أذفونش يومئذ منحاه ، وخالفه إلى ركوب هواه وشرع لوقته في تغيير المسجد الجامع بها ، خاتمة النوائب ، ونكبة الشاهد والغائب . فقال له ششند : إنك إن فعلت أو غرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكنت من نشط ، وقبضت من انبسط ، فشمخ أذفونش . لعنه الله . بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى إلى طنانة جنونه وسخفه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم ... لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وحدثني من شهد طواغيته تبتدره ، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوّد منه ، وقد أطاف به مرده عفارته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عجّل ، أشار هو

إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه ملياً وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكره أحد.

وقد حدثت أن شيعة أذفونش - لعنه الله ويدّها - أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من أعلاج ، فقال : لا ، حتى أطأ ذروة الملك ، وأخذ قرطبتهم واسطة السلك. وكان أعد لمسجدها الجامع - حمى الله ساحته من الخطوب الروائع - ناقوساً تأتق في إبداعه ، وتجاوز الحد في استنباطه واختراعه ، فالحمد لله موهن أيده ، ومبطل كيده ، وجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أباً يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين ، بما بل من رماق ، ونفس من خناق ، ووصل هذه الجزيرة من جبل ، وتجشّم إلى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حزن وسهل ، حتى [ثلّ] عروش المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله ربّ العالمين » .

(أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ، القسم

الرابع ، المجلد الاول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس 1979 ،

ص 167-169) .

نصوص اجتماعية - اقتصادية

حادثة السوق بإشبيلية

نص رقم 7

ثورة اليهود في اليسانة

«ولما كنت في تلك الفترة ، بدأت أمور وأسباب دلت على ماكان من الانتقال ومقدمات آذنت بالزوال. فأوّل ذلك نفاق أهل الِيسانة لعلّة نذكرها ، وأرق سبب لم يوه له. وذلك أنّي ، لما أمرت بينيان السور المتّصل بالحمرء ، ودبرّته على تلك النّصبة التي أضريت عن شرحها لاشتهارها هيأت السعادة أن وجد البناءون في الأساس قمقوما مملوءاً ذهباً أعلموني به.

فلما وقفت عليه ، لقيت فيه ثلاثة آلاف مثقال جعفرية. فاستبشرت بها وتفاءلت بنجاح الطلبة والدنيا تسخر بنا كما سخرت بمن قبلنا. فقلت : «من أساسه يكون بنيانه!»

وكانت دار أبي الربيع اليهودي الخازن للأموال في دولة جدّي - رحمه الله - مبنية على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون. فأتى ابن المرأة متنصّحاً بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم سائر دفائنه » فخاطبنا عنه ليرد في بعض الأمر. وكان صهره ابن ميمون ، كنّا قد قدّمناه على يهود الِيسانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جميلاً من التنويه به فاستمال بها أقواماً من الغرياء ، يصلون بهم على أهل ملّته ؛ وكان خبيثاً . فأحس بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره وساء لذلك ظنّه وخشى أن يعذب على مال أبيه.

ووافق قبل ذلك ، عند انصرافنا من ليّيط ، أن فرصنا على أهل الِيسانة ذهباً كثيراً باسم التّقوية ، لم يجر عادتهم به ، وحملناهم في ذلك على الصّحة والانطباع ؛ ففرت لذلك أنفسهم. ووجد ابن ميمون المذكور السبيل إلى إغرائهم وحملهم على النفاق ؛ فأجابه ، ودخلوا

في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : «جئوا ، معشر بني إسرائيل ، في حماية أموالكم ا» واقتضج بذلك ابن ميمون. وسبقت له جناية في قتل عاملنا ابن أبي لوّلا على المستخلص رياسة وعدواناً. وامتنعت اليُسَّانة بالجملة.

فلما رأيت ذلك ، لم أجد بداً من مداراة الأمر. واشترط مؤمل بإصلاحه ، ونهض. ثم إنني عملت رأيي بعده ، وعلمت أنه لا يلقى إلا أحد وجهين إما طاعة على غشٍ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فأرسال العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قدر ماجنوه ، وخرجت بنفسي في أثره ، وقد اجتمعت إلي الأنداب. فإذا بمؤمل قد أقبل منصرفاً ، وردنا عن ذلك المذهب ، وقال لي : « قد أصلحت الأمر مع ابن ميمون. ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عبّاد ، لا سيما أنه الآن بقرطبة ، وليست تؤخذ بإحصار ولا قتال ا» على أنني قد علمت أن ابن عبّاد لا يجيبهم في ذلك الوقت كلّهُ ، ولا اشتهر بذلك إلا ماكان الناس يذكرونه ، وابن ميمون يفتخر به ويطمع به أهل اليسانة. »

(الأمير عبد الله بلقين الزيري ، « كتاب التبيان » ، تحقيق إ. ليفي

بروفنصال ، القاهرة ، 1955 ، ص 130 - 131) .

قال أبو مروان (ابن حيان) : وفي سنة ست وخمسين وأربعمئة تغلب العدو على مدينة بريشتير قسبة برطانية ، الواسط لما بين بلدتي لاردة وسرقسطة ، ركني الثغور العلا ، وهي الأم البرزة ، التليد حلول الإسلام فيها لأول فتوح موسى بن نصير ، التي لم تزل من أقدم معمرات من تناسخ عمارة الأندلس من القرون الخالية ، اتخذت بأكرم البقاع وأوثق البناء ، راكبة لنهر ماردة سوراً مضروباً لأهل الثغور القصى ، والدفع في وجوه العدى ، تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، منذ أول عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتدورس بها القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبنا فجأة ، صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماح وأطار الأفئدة وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة ، وصير للكل شغلاً تسكع الناس في التحدث به والتسأل عنه والتصور لحول مثله أياماً لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفرقة الهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل.

ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالمليح فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، ويفسادهم يردون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنيفهم لدينا هذين ، بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ، زياداً عن الجماعة ، وحوشاً إلى الفرقة ، والفقهاء أنتمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين أكل من حلوانهم ، خائض في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم ، أخذ بالتقية في صدقهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ، وإن أصبحت

بصدور من خيالها : هل هي إلا مشقية على يوارها واستنصالحها ؟ ، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بريشت إلاً الفرع إلى حفر الخنادق وتعليق الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوءة السوءاء من إلقائهم [يومئذ] بأيديهم إليهم : أمور قبيحات الصور ، مؤذونات الصدور بأعجاز تحمل الغير :

أمر لو تدبرها حكيم * إذن لنهى وهيب ما استطاعا

ولكن ما الحيلة في أديم تفرى تعيناً ، فغلب الصنّاع ، يخالها العاجز سحيلات محلولة وهي في حكمة القدير مبرمة مفتولة ، ضلّ فيها الحكماء قبلنا ، فلنا في الإقتصار عن كشفها مندوحة : فلنأخذ فيما افتتحنا القول فيه من حديث المصيبة الفادحة في بريشت :

وهو أن جيش الأردمانيين طنبوا عليها ووالوا حصّرها ، وجدوا قتي قاتالها طامعين فيها وقد أسلمهم أميرهم يوسف بن سليمان بن هود لخطبهم ، ووكلمهم إلى أنفسهم ، وقعد عن النفير نحوهم ، فأقام عليها العدو منازل أربعين يوماً ؛ ووقع بين أهلها تنازع على القوات لقتله ، ولما علم العدو بذلك جدّ في القتال ، فدخل الكفرة المدينة البرانية في نحو خمسة آلاف دارع ، فبُهِت الناس وتحصنوا بمدينتهم الداخلة ، ودارت بينهم حرب شديدة قُتِلَ فيها من النصارى خمسمائة ؛ ثم اتفق من قدر الله تعالى أن قناة من عمل الأوائل ، سرباً تحت الأرض بتقدير موزون إلى أن أفضت إلى شطّ النهر ، فانهارت في نفس ذلك السرب صخرة عظيمة الجرم [صفوانة الخلق] من حجارة بناية الأول سدّت السرب بأسره ، فعدموا الماء وأيسوا من الحياة ، ودعوا إلى تأمينهم على النزول بأنفسهم خاصة دون مال وعيال ؛ فأعظاهم أعداء الله ذلك ، فلما خرجوا نكثوا بهم وقُتِلوا معاً ، ولم يظلقوا منهم غير قائدهم ابن الطويل وقاضيه ابن عيسى في نفر من الوجوه قليل عددهم ، فحصلوا من غنائم بريشت على ما لا يُقدّر [حصرة] كثرة ؛ زعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم ، قائد خيل رومة ، في حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً كلهن ، ومن أوقار الأمتعة من الحلي والكسوة والوطاء خمسمائة حمل. وتحدث أيضاً أنه أصيب في هذا القتل والسبي مائة ألف نسمة ، وشدّ الكفار أيديهم

بمدينة بريشتر واستوطنوها ، وهلك من نساء بريشتر جملةً يكثر عدّها عند إفلاتهنّ من عطش القسبة لتطارجهن على الماء ، يكرّعن فيه بغير مهلّ ، فكبهن للأذقان موتى . وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يتقصّى ...

قال أبو مروان [ابن حيان] : وأختم هذه الأخبار البريشترية ، الموقظة لقلوب أولي الألباب ، بنادرة منها يُكتفى باعتبارها عما سواها ، وتقتل لذوي النهي صورة البلوى التي تتوقع شرواها ، وهي ماحكاه لي بعض من أكاتبه بالشغور عن رجل من تجار اليهود ، أتى بريشتر البائسة بعد الحادثة [عليها] ، ملتمساً فديةً بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلن في سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله الذي كان نزله فيها ، واستأذنت عليه ، فأجده جالساً مكان ربّ الدار مستولياً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلس والسريّر كما تخلفهما ربهما يوم محتته ، لم يتغير شيء من ريشهما وزينتتهما ، ووصائف على رأسه رُوقةً مضمونات الشعور قائمات على رأسه ساعيات لخدمته ؛ فرحّب بي وسألني عن قصدي ، فعرفته وجهه ، وأشارت له إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه ، وفيهنّ كانت حاجتي ، فابتسم وقال بلسانه : لسرع ما طمعت من قرب فيما أبرزناه لك ، فأعرض عمن هاهنا ، وتعرض لمن شئت ممن صيرته بحصني من سبيي وأسراي أقاربك في من شئت منهن ؛ فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه ، وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأننت ، فسمني ببعض من هاهنا فإني أصير إليه رغبتك ؛ فقال : وما الذي عندك مما تشوقني إليه ؟ قلت له العين الكثير الطيب ، والبزّ الرفيع الغريب ؛ قال : كأنك تشهيني مالميس عندي : يابجة . ينادي بعض أولئك الوصائف : يريد يا « بهجة » [فيغيره] بمعجمته . قومي فاعرضي على هذا اليهودي الخداع مما في ذلك الصندوق ؛ فقامت إليه ، وأقبلت بيد الدنانير وأجناس الدارهم وأسفاط الحليّ ، فكشف وجعل بين يدي العليج حتى كادت تواري شخصه ؛ ثم قال لها : ادني إلينا من تلك التخت ، فأدنت منها عدة من قطع الوشي والخز والدبياج الفاخر بما حاربنا به ناظري وبهت ، واستردلت ماعندي . ثم قال [لي] :

لقد كثر هذا عندي حتى ما أذ به ، ثم حلف بإلهه وآياته : لو لم يكن عندي شيء من هذا ثم بذل لي بأجمعه في ثمن مدنيته إليك ماسخت نفسي بها فيه ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسب في قومه ، اصطفتها له مع جملها لولادتي ، حسبما كان قومها يصنعونه بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رد لنا الكرة عليهم ، فصرنا الآن فيما تراه ؛ وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة . وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية . لمغنية السخين العين والدها التي كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ؛ يا فلانة . يناديه بلكنته . خذي عودك فغني زائرنا بشجوك ؛ قال : فأخذت العود وقعدت تسويه ، وإنني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العليج مسحه ، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا ، فضلاً عن العليج ، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه . فلما قطعت ونست مما عنده ، قمت منطلقاً عنه ، وارتدت لتجارتي سواه ، فاطلعت من كثرة مالدى القوم من السبي والمغنم [على] ما طال عجبني منه . فهذا فيه مَقْنَعٌ لمن تدبره ، وتذكره لمن تذكره .

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتري "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"،
القسم الثالث ، الجزء الاول تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا .

تونس ، 197 ، ص 188 - 197).

« ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم ، اطلعنا على أمور دلييلة على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ، مع المعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، إظهار ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صولة تتقى. أما الجند من البربر ، فكانوا مغتبطين بهم ، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية. واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجر ، وقدموا كُتُبَهُم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُّهُمْ بأن يبقِيَهُم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقى ، تقلع إلى السفلى بأهله وماله ، وبقي هو بنسبته منفرداً متأهباً للشر ، إما بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ منا.

ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نية أنهم مع سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولاهُمْ أَهْلُهُ ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : « لأي وجه نحتمل الحصار ؟ تاجرٌ هنا وصانع كما في غيرها ! » وأما الرعية ، فبغّ بَغْ ذلك ما كانت تبغى ، طَمَعاً منها في الحرية ، وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر.

وأما الرُقَاصَة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنَّا نُمسك الحصون ، فهم أول من طاع ، وأَعْيُنُ من بالحضرة إليهم يقولون : مالذي خالف بنا عن صنيع بني عَمَّنَا ؟ « فلم نجد في صنف منها راحة يرجى معونتها !

وأما العبيد والصقّالة ، فالعبيد الأعلاج ، أول من عصا ، كما ذكرنا ، بلوشة ، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة ، ولم يفكروا في عاقبة أن يخطؤوا عنده ، فيقول : « مانصحو مولا هم رَبُّ الإحسان إليهم ! فكيف غيره ؟ » إلا أن كل واحد بشهوته بين عينيه ، للذي شاء الله . لا راد لأمره ولا مُعَقَّب لحكمه !

حتى الحَدَم من النساء والخصيان : كلُّ طامعٍ في إقبال الدنيا عليه ، والخراج عن ثقاف
القصر إلى راحة التسريح ، والاستهتار بالرجال ، وما أشبه ذلك. فجعفر الخصيُّ منهم وليبِّ
كانا زعيمى المداخلة ورأس الفتك ، يقولان : « نحن لا وكلكنا ولا تلد ا فعلى أي شيء نصبر
على القتال ؟ وما عسى نطمع أن نصيرَ إليه : هل يجمعنا بنا سلطنةٌ أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو
فقه ؟ إنما نحن بمنزلة العيال : من سبق استمتع بنا ، وكُنَّا عنده من جملة الفىء ، نرزق كسائر
الكسب ، فلا نضيع ا تعالوا بنا ا نقدم لأنفسنا ا » فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين
بالإنزالات القويَّة ، والمثاقيل ، والراتب العالية ، يعدِّهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم لنا
حتى اتفقت من كلِّ جهة .»

(الأمير عبد الله بن بلقين الزيري ، "كتاب التبيان" تحقيق

إ. ليفي بروفنصال ، القاهرة 1955 ، ص 100 - 101) .

«وله عنه رقعة أقتضيهما تخفيفاً للتطويل ، شرح فيها قتله لابنه إسماعيل. قال ابن بسام : وكان عباد قد ألحق يومئذ بابه حاشيةً وأبلغ في المثلة ، وتجاوز بها إلى من نشأ في الحيلة ، وما حماها عنده من الأطباء ثدي ناهد ، ولا شفقة الوالد. أخبرني من لا أرده خبره من وزراء اشبيلية قال : شهدنا مجلسه بعد ثلاثة ، من هذه الحادثة ، ووجه قد أريد ، وودّ كل واحد [منهم] أنه لم يشهد ، ولم يزيده على السلام ، وأرتج عليهم الكلام ، قصوب فيهم وصعد ، وزار كالأسد وقال : يا شامتين ، مالي أراكم ساكتين ، اخرجوا عني. فقام كل يجر ساقيه ، ولا يقدم أحد أن يطرف بشفره إليه ، فلما صرنا بباب القصر ، دعا بنا فانصرفنا ، وأذن لنا في الجلوس فجلسنا ، ثم خرج أمره بأن يحضر الكاتب ابن عبد البر ، فدخل ، ومجلسه قد احتفل ، وقال له : اكتب إلى ابن أبي عامر ، وحلل دم الخائن الغادر ، وكلاماً هذا معناه. وجاء الغلام بجلد الرق والدواة ، والوزراء والخاصة جلوس بذلك المقام ، وقالوا في أنفسهم : ما عسى أن يتجه لابن عبد البر من كلام ، على هذه الحال ، لاسيما على الارتجال ؛ قال المحدث : فسوى الجلد ، وجعل يستمد ويكتب ، وعين المعتضد فيه تصعد وتصوب ، فلما فرغ منه أسمعته ذلك إلى آخره ، وخرجوا عنه وهم يرون أن ابن عبد البر من آياته فاطره... »

(أبو الحسن علي بن بسام الششتري ، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ،
القسم الثاني ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - بيروت ،

1979 ، ص 136 - 137).

«وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ومعق قوائمنا ، مع سر من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لاتأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور. وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك ، على كل حال ، حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم ، والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانت التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائي الأقطار ، فسيح المجال ...

ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم بربة ووقائع وسيره وحروبه. وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف وفي أخبار بني قسي والتجيبين وبني الطويل بالشعر فقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار ربة وحصونها [وولاتها] وحروبها وفقهاؤها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ، وكتاب محمد بن الحارث الحشني في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها. وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز. وكتاب في فضائل بني أمية. وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعادل والأجناد الستة بالأندلس. ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء

الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوائف في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس [وملوكها] تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتحال ، وكتاب المآثر العامرية لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأقيشتين محمد بن هاشم النحوي في طبقات الكتاب بالأندلس. وكتاب سكن بن سعيد في ذلك. وكتاب أحمد بن [محمد بن] فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم. وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل.

وأما الطب : فكتب الوزير يحيى بن اسحاق وهي كتب رفيعة حسان. وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتب رفيعة حسان. وكتاب التصريف [لمن عجز عن التأليف] لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع ، لنصدقن. وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها.

وأما الفلسفة : فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة.

وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نشق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلا أنني سمعت من أئمة بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمع ، وهما من أهل بلدنا. وكذلك كتاب لأحمد بن نصر [في المساحة المجهولة] فما تقدم إلى مثله في معناه.

وإنما ذكرنا التأليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عالم إلا في أحدها ، وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتمه أو شيء مستغلق يشرحه أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق

يجمعه أو شيء مختلط بترتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه. وأمّا التأليف المقصورة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، تُظارّ على أصوله ، ولهم فيه تأليف منهم : خليل بن إسحاق ويحيى بن السمينه والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك.

. ولنا على مذهبن الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم ، قليل عدد الورق ، يزيد على المائتين زيادة يسيرة ، فعظيم الفائدة لأننا أسقطنا فيه المشاغب كلّها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة ، ولنا فيما تحقّقنا به تأليف جمّة ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصّد مباحة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلبَ مثلها بفارس والأهواز وديار مضر ربيعة واليمن والشام ، أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأريابها .

«الرد على ابن النفّالة» لعلي ابن حزم في كتاب : «رسائل ابن حزم»

تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الجزء الثاني ، بيروت ، 1981

ص 174 - 175 و 182 - 187 .

فصل في ذكر الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي ، من
باجة الأندلس ، والأتیان بلمعة من أخباره التي زاحمت
في بيوت شرفها الكواكب

«قال ابن بسام : نشأ أبو الوليد هذا وهمته في العلم تأخذ بأعنان السماء ، ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء وبدأ في الأدب فبرز في ميادينه ، واستظهر أكثر دواوينه ، وحمل لواء منشوره ، وموزونه ، وجعل الشعر بضاعته فوصل له الأسباب بالأسباب ، ونال به مأكّل القُحم الرغاب ، حتى جُنّ الإحسان بذكره ، وغنّى الزمان بغرائب شعره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خُبْرِهِ ، ولم تزل أقطار تلك الآفاق تواصله ، وعجائب الشام والعراق تغازلّه ، حتى أجاب ، وشدّ الركاب ، وودّع الأوطان والأحباب ، فرحل سنة ست وعشرين ، فما حلّ بلداً إلا وجده ملآن بذكره ، نشوان من قهوتي نظمته ونثره ، ومال إلى علم الديانة ، وقد كان قبل رحلته تولى إلى ظله ، ودخل في جملة أهله ، فمشى بمقياس ، وبنى على أساس ، فلم يبعد أن أصبح نسيج وحده ، في حلّه وعقده ، حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه ، ويرتاحون إلى الأخذ عنه ، وحتى علم العلم أن له أشكالا ، وتيقن أهل العراق أن بالأندلس رجالاً ، ثم كرّ ، وقد نفع وضرّ ، وأحلى وأمر ، واستقضى بطريقه بحلب ، فأقام بها نحواً من عام ، ثم نازعه هوى نفسه ، إلى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، من أرض الأندلس ، فورد وعشب بلادها ناب وظفر ، وصوب عهادها دمٌ هَدَر ، ومالها لا عين ولا أثر ، وملوكها أضداد ، وأهواءُ أهلها ضغائنٌ وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد ، فأسف على ماضيّه ، وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلّة مانبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية ، بل نفع في عظام ناخرة ، وعكف على أطلال دائرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأئس والتقريب ، وهو في الباطن يَسْتَجْهِلُ نَزْعَتَهُ ، ويسثقل طلعتة ، وما كان أفطن الفقيه ، رحمه الله ، بأمورهم ،

وأعلمه بتدبيرهم ، لكن كان يرجو حالاً تشوب ، ومذنباً ، ولم يخلُ مع ذلك من تأليف الدواوين وتدريسها ، وتشبيد المكارم وتأسيسها .

بلغني عن الفقيه أبي محمد بن حزم أنه كان يقول : لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي . وقد ناظره بميورقة ففلّ من غرْبِهِ ، وسبّب إحراق كتبه ، ولكن أبا محمد وإن كان اعتقد خلافه ، فلم يطرح إنصافه ، أو حاول الرد عليه ، فلم ينسب التقصير إليه .

وتوفى أبو الوليد الباجي ، رحمه الله ، سنة أربع وسبعين ، وهو بسبيله من تصنيف الدواوين ، في علوم الدين ، وقد أخرجت ما وجدت من كلامه في هذا الفن الذي أنا في إقامة أوده .

(أبو الحسن علي بن يسام الشنتريني ، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" القسم الثاني ، الجزء الأول . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا ببيروت ، 1979 ص . 94 - 96) .

«وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تريص بعضهم ببعض ، فهذا أمرٌ امتحنا به ، نسأل الله السلامة. وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أوكلها عن آخرها ، محاربٌ لله تعالى ورسوله وساعٍ في الأرض بفساد ؛ للذي ترونه عياناً من شنه الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدائم نفاذ أمرهم ونهيهم. فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم. فالملخص لنا فيها الإمساك للأئسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم ؛ فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقيّة تسعّه ، وما أدري كيف هذا ، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا. فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وجاء في بعض الأحاديث : ليس وراء ذلك من الإيمان شيء ، أو كما قال عليه السلام ، وجاء في الأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليعمتكم الله بعذاب». واعلموا رحمكم الله أنه لا عذاب أشد من الفتنة في الدين ، قال الله تعالى : (والفتنة أشد من القتل) (البقرة : 191) ، فأما الغرض الذي لا يسع أحداً فيه تقيّة ، فإن لا يعين ظالماً بيده ولا بلسانه ، ولا أن يزبن له فعله ويصوب شره ، ويعاديهم بنيتة ولسانه عند من يأمنه على نفسه ، فإن اضطر إلى دخول مجلس أحدهم لضرورة حاجة أو لدفع مظلمة عن نفسه أو عن مسلم ، أو لإظهار حق يرجو إظهاره ، أو الانتصاف من

ظالم آخر ، كما قال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأنعام : 129) أو لصداقة سالفة . فقد يصادق الإنسان المسلم اليهودي والنصراني لمعرفة تقدمت . أو لطلب يعانيه ، أو لبعض ما شاء الله عز وجل ، فلا يزين له شيئاً من أمره ولا يعينه ولا يمدحه على ما لا يجوز ، وإن أمكنه وعظه فليعظه ، وإلا فليقصد إلى ما له قصد غير مصوبٍ له شيئاً من معاصيه ، فإن فعل فهو مثله ، قال تعالى : (وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) (هود : 113) وفي هذا كفاية.

وأما ما سألتكم عنه من وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب ، فهيات أيها الإخوة ، إن هذا لمن أصعب ما بهتكم عنه وأوجعه للقلوب وآله للنفوس . وجوابكم في هذا أن الطريق هاهنا طريقان : طريق الورع ، فمن سلكه فالأمر . والله . ضيق حرج . وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهماً حلالاً ولا ديناراً طيباً يقطع على أنه حلال ، حاشا ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب ، فإن الذي ينزل منه في أيديهم ، يعني أيدي المستخرجين له بعدما يؤخذ منهم ظلماً فهو كمااء النهر في الحل والطيب ، حتى إذا ضربت الدراهم وسبكت الدنانير فاعلموا أنها تقع في أيدي الرعية فيما يتغفونه من الناس من الأقوات التي لا تؤخذ إلا منهم ، ولا توجد إلا عندهم من الدقيق والقمح والشعير والحمص والعدس واللوبيا والزيت والزيتون والملح والتين والزبيب والخل وأنواع الفواكه والكتان والقطن والصوف والغنم والألبان والجبن والسمن والزبد والعشب والخطب . فهذه الأشياء لا يد من ابتاعها من الرعية عمارة الأرض وفلاحها ضرورة . فما هو إلا أن يقع الدرهم في أيديهم ، فما يستقر حتى يؤديه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى ، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حق عند المتقلب عليهم ، وقد صار ناراً ، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته ، والقمع لمن خالفه والغارة على رعية من خرج من طاعته أو رعية من دعاه إلى طاعته ، فيتضاعف حر النار ، فيعامل بها الجند التجار والصناع ، فحصلت بأيدي التجار عقارب وحيات وأفاعي ، وبتاع بها التجار من الرعية ، فهكذا الدنانير والدراهم كما ترون غياناً دواليب في نار جهنم ، هذا مالا مدفع فيه

لأحد. ومن أنكر ما قلنا بلسانه فحسبه قلبه يعرفه معرفة ضرورية. كعلمه أن دون غد اليوم. فإذا فاتنا الخلاص فلا يفوتنا الاعتراف والندم والاستغفار. ولا نجمع ذنبين : ذنب المعصية وذنب استحلالها ، فيجمع الله لنا خزيين وضعفين من العذاب. نعوذ بالله من ذلك ، ولنكن كما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران : 135) ، هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة توجب العلم الضروري أن الأندلس لم تُخَمَسْ وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيب أنفس المستفتحين ، وأقرت لجميع المسلمين ، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، لكن نُقِذَ الحكمُ فيها بأن لكل يدٍ ما أخذت. ووقعت فيها غلبة بعد غلبة ، ثم دخل البربر والأفارقة فغلبوا على كثير [من القرى دون قسمة] ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشي ماترون من الغارات و [في] ثمار الزيتون ماتشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل التافه ، ومشى في بلاد المتغلبين يقيناً العرى الحالسة ظلم يظلم. وهذا باب الورع وقد أعلمتكم أنه ضيق.

وأما الباب الثاني فهو باب قبول التشابه ، وهو في غير زماننا هذا باب جيد لأنه لا يؤثم صاحبه ، ولا يؤجر ، وليس على الناس أن يتجنّبوا على أصول ما يحتاجون إليه في أقواتهم ومكاسبهم إذا كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مضموراً. وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه ، فإنما هو باب أغلق [.....] فرقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله لأن الغايات [.....] فإنما هي جزية على رموس المسلمين يسمونها بالقطيع ، ويؤدونها مشاهرةً وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما ، وقبالات ما ، تؤدي على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد. هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلي من الله عز وجل. والله لو علموا

أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبأدروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسره معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالتواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه.

فإن قلتم : نحن نجتنب اللحم ، فأنتم تعلمون علماً يقيناً أن المواشي المغنومة ليست تباع للذبح فقط ، بل تباع للنسل والرسل كثيراً وللحراث بها ، فتباع ويؤخذ فيها الثمن ، وهو نار لأنه بدل من المثلثون ومالٌ أخذ بالباطل ، ثم ينصرف في أنواع التجارات والصناعات في الملابس ، فيمتزج الأمر. فهذا مالا أحيلكم فيه على غائب ، لكن ماترونه بعيونكم وتشاهدونه أكثر من مشاهدتي له. وأنتم ترون الجند في بلادكم لا يأخذون أرزاقهم إلا من الجزية التي يأخذها المتغلبون من المسلمين فيما يباع في أسواقهم على الصابون والملح وعلى الدقيق والزيت وعلى الجبن وعلى سائر السلع ، ثم بتلك الدراهم الملعونة يعاملون التجار والصناع ، فحسبكم وقد علمتم ضيق الأمر في كل ما يأتي من البلاد التي غلب عليها البربر من الزيت والملح ، وأن كل ذلك غصب من أهله ، وكذلك الكتان أكثره من سهم صنهاجة الآخذين النصف والثلث ممن أنزلوا عليه من أهل القرى ، وكذلك التبن مزركة ، وأما القمح فهو أشبه ببسیر ، لأن الأرض وإن كانت مغصوبة فالزراع لزراعه حلال وعليه إثم الأرض ، إلا أن تكون الزريعة مغصوبة ، فحصلنا في شعل نارٍ [أشد] من ذي قبل ، ولكن التخلّص لنا ولكم أن لا يأخذ الإنسان فيما يحتاج إليه ما أيقن أنه مغصوب بعينه ، ولعلنا فيما جهلنا من ذلك أعذر قليلاً فإن النار المدفونة في الرماد أفتر حراً من النار الموجهة المشتعلة ، فواغوثاه .

(رسائل ابن حزم الأندلسي " الجزء الثالث " ، تحقيق الدكتور إحسان

عباس ، بيروت ، ، 1981 ص، 173 - 177) .

وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية . المحضرة الأثيرة . لمطالعتها وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم ، من أجل عدوان رجل منهم على يهودي جاء لامرجة السوق عندهم ، ماراه في بعض الأمر ، فزعم أنه سب الشريعة ، فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة عبد الله بن سلام واعتقله ، فكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلام وإكثار خشي وباله ، فخاطب السلطان بقرطبة «يعرفه» ماكان منه ويستأمره في شأنه ، فعجل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى إشبيلية في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله ، لمشارقة القصة ، والاحتياط على العامة فغدرًا معه وسط هذا اليوم ، وأنفذ معه ذا الوازرتين أبا الوليد ابن زيدون أحد الثلاثة كابري وزرائه المثناة وزراتهم ، عمد دولته ، «ألزمه» النفوذ مع الحاجب على بقية وعك كان متألماً منه ، ولم يعذره في التوقف من أجله . فمضى لطيبته مسوقاً إلى منيته ، وخلف ولده أبا بكر الفذ الوازرة ، المرتسم بالكتابة وراءه ، ساداً مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياماً ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلّفه ، أعجل بالانطلاق له ؛ فمضى بعينه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها . فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدثت الناس بنبو مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان ، وأن استمساكه بعلي مرتبته ، بعد مختصه المعتضد بالله ، كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية ابنه به يَغصُ باستمرارها ثقتاه المختصان به ، الخطيان لديه ، المستهمان لخاصته : ابن مرتين وابن عمار ، إلى أن عملا في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده ، فأمضى خلفه ، فعندها استساغا غصته ، واستهما مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان وتدبير دولته ولكل دولة رجال ، ولكل مكتب أبدال .

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، "الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة"
القسم الأول ، المجلد الأول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس ،
1975 ، ص 418 - 419 .)

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم الرابع



عصر المرابطين والموحدين

تمتد أيام المرابطين والموحدين زهاء قرنين ، انطلاقا من 462 / 1070 إلى عام 1269 / 667 ، وخلال هذه الحقبة ، استمرت الدولتان بالأندلس من تاريخ موقعه الزلاقة 479 / 1082 ، إلى منتصف المائة الهجرية السابعة / 1250 .

وكانت الأندلس إلى أيام قوة الموحدين تصل حدودها إلى جبال الشارات .
وعلى تباين سياسة الدولتين في عدد من الاتجاهات ، تجمعهما ثوابت تميز عصر المرابطين والموحدين بالأندلس ، وقد انفرد التاريخ الأندلسي في العصرين بما يلي :

- 1- نظم سياسية ، مخالفة للنظم التي سادت سابقا ولاحقا .
- 2- انبثاق الحكم السياسي من المغرب على الأندلس
- 3- التأثير الأندلسي في المغرب ثقافيا وحضاريا بلغ قمته خلال عصري المرابطين والموحدين .
- 4- عرفت الأندلس خلال العصرين تحولات كبيرة على جميع المستويات :

• جغرافيا

• ديموغرافيا

• اجتماعيا

• اقتصاديا

• ثقافيا وفكريا

وعن النصوص التي تقدم لها ، فهي تعكس صورا من العمل الرسمي لسياسة الدولتين بالأندلس ، إلى جانب نماذج من أنظمة الحكم والمعمار ، اقتباسا من وثائق رسمية ، أو نصوص مؤلفين معاصرين ، مع التركيز - أكثر - على الوثائق لأهميتها ، ولأنفراد عصري المرابطين والموحدين باستمرار وثائقيهما أكثر من أية دولة سابقة .

وسيسير عرض النصوص على تمييز كل من الدولتين على حدة مع توزيعها بين نصوص سياسية ، وأخرى اجتماعية ، والله سبحانه وتعالى التوفيق .

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المرايطون

نصوص سياسية

1 رسالة

كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية. يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذقونش أمير النصاري في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

(منقول عن المخطوط رقم 448 الغزيري بمكتبة الإسكوريال (FoL. 49 R. - 53V.) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له).

« الحمد لله الذي من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوح من سر الله ونعمائه [كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب ، سبب لنا إليهم المطلب ، ففقونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الذين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمايرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لإله غيره وهو أرحم الراحمين.]ولما بلغنا من استحواذ النصاري ، دمرهم الله على بلاد الأندلس ومعاقليها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكرياً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويقل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان. فخطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبأيا ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، أحسن الله في كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو

أسوداً ضاربة ، وسباعاً عادية ، شبيهاً وشباناً بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها فهي أمهم وهم بنوها يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزء رون إليها زمر الأسود ، فشحنا بهم القوارب وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففرع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هياتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعونهم منهم حاشى الخيل والدرك ، وهم مع ذلك لا يتالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماع ، ونهب للسلاح ، فكل استصغروهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، يخيل كالفتحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارئ تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعلمنا على السير ، [وكان قد تقدم إلينا بالمدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا عنه ، نعظوه المراكب ، ونسلموا إليه الشواني والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمنا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبيننا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن في ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطنين سريرة المخبتين ، لابسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقاياه ، وقد تجمع له جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار

الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلّوهم في بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنفاذ العباد . فجمعنا عساكرنا وصرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصد قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا في كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبأ وقرء ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث في الورد علينا ، فلدحقتنا وينينا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا ويقوا ، ونحن نخرج الطلائع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وينينا على لقاياه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثمانية ، ورد علينا بكتائب قد ملأت الافاق ؛ وتقلبت الخوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا في سوقهم الألواح ، وبطنوهم ملأ من الخمر ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أخبتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فتصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطيهم ، لا يقدرّون عسكرياً إلا عسكريه ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لقيفاً واحداً ، كهيموط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلاً يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارياً منه إلا إليه ، فلدحقتنا من يطلبون بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده في طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرياس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من

الكل إلا البعض ، ولجأ في الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لا يروعه منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ، ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخييته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلو من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، ونحن في ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدنا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلن لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذي لا يد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا ، فلتموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هارين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تشخه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنناهم بالسهمرية دون الخنز بالابر ، وضائق بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاريهم لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلاً ، وفكتت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجال منا على خيلهم الرماح ، فشكروهم بها فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربي المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وييدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا في الأرض مجذلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانتهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل

أو أقل ، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا ، قد أئخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب في المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلّتهم ، ويعثرون في أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين ، إلى أن جن الليل وأرعى سدوله ، ولواهارين ، وأسلموا رحايلهم صاغيرين (فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد. وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك. وأما الشياح والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأويار عدد ليلهم ، ولا يكلون في الانتقال ، ولا يستمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألفت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا ، وأخلصنا للمعتمد على الله نيابتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غافلين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميمهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مشاهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكايرنا نحو عشرين رجلاً ممن شهدت نجاته في المغرب ، وانقلبت خير منقلب. ولحقنا إشبيلية حضرة عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعا منه متى أحب مانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجع إلى نفس ، يذكرون مالمقوا ، ويتذاكرون مايقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم أنسى. والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله منّا منه علينا لا منّا عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليماً ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته».

(محمد عبد الله عنان ، "دول الطوائف" ، الطبعة الثانية القاهرة ، 1969 ، ص 446 - 450).

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله
في فتح أقلش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم 488 الفزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة - 54 أ 58 ب)

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأنام وعتاد الإسلام ، السعيد
الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذي أجله بحقه ، وأقر بسبقه ،
وأدام خلوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجند النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار ،
الذي شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماثل ، وفرق بين الحق
والباطل ، والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغاظ به
الكفر ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوته ، ويضمن مزيده ، وينصر
جنوده بمنه .

ولما أن وضعني أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة التشريف والعز
المنيف ، وألحقني من النعماء سريالها وأسعيتني أذيالها ، وصرف إلي من عدهه ويلده ما
أولاني نعمه ، ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمة ، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت
في الاجتهاد في الجهاد عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه ، وهيات من ماله عندي جيشه الموضوع
بيدي ، وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمينه رأسها ، وعلى تقواه
أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان
المعظم بجيش تصم صراوله ، وتظم كواوله ، راياته خافقة ، وعزماته صادقة ، ونبراته على
أسنة السعد ناقطة . ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين ، على جهات سميت منا ديننا
وتبعث هاديننا ، وانقادت وراءنا اعداد وأمداد ، بروزاً من كمون ، ونحركوا عن السكون ،
وانخنأ بشجر بياسة ، وقد توافد الجمع ، وملى البصر والسمع . وأخذت في الرأي أخمره ،

والعزم أضمره ، والدليل أشمره ، وجددت الاستغارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت في جميع أموري على حكمه خاضعاً متواضعاً.

ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطننا من هنالك ، وقد بان عنوان الأهبة ، والتأم بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضاً ، على أرض تفيض غيضاً ، ولسيرول الخيل إغراق ، وليروق البواتر إشراق ، وقد نطقت السنة الأعنة بقدام قدام ، وأشرقت كواكب الأسنة في غمام القتام ، وسدت الهزات كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقيل ، وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة «أقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والصور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق. وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، قدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتفناها اكتناف السبحة ببسطتها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العموم ، وحاروا وحاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها ، ونسف هاويها ، ونلذها بالرماح ، ونهزنا هز الفصن في أيدي الرماح حتى فض الختام ، وعرض منهم الإيهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالتسر ، ونفخ في صورهم ، وذارت دائرة السوء بدورهم ، ومحققتهم السيوف محق الرما ، وأذرتهم ربح النصر فصاروا بها ، ويطحوا بطح زرع الحصيد ، ويسطروا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخدة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فغروا إلى الأذقان ، وسبقوا إلى الموت والإذعان ، فماكدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنحننا حتى رضخنا ، ولاوصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا.

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبيقت ، وشغل الأخيد عن الملفت ، وألهمي الكثير عن من قل ، ونام الجهم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فوجئوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم المشور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الجد ، ونوهر لأقل غرب ، ولاملت حرب ، فحجث الجرائم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتعافوا بهدايا السبابا ، وتكاشفوا عن بقايا الحبايا ، ونصروا بنيانا صدعته الختوف ،

وغلّبت السيوف فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الإيمان ، وبدل الناقوس بالإذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فانجابت كريتهم ، وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشرّ دار ملتهم ، وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتها الحسام المجرد وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغبضت تلك الدماء الهوامر ، وغداً الخميس في الخميس ، مبيناً على ذلك التأسيس ، بحر أذيال الظفر في العدد الأوفر ، يشفع الأوالى بالتوالي ، ويشترى العوالي بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ، وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبية ، والقوم في السجن والحصر ، والحصن كالواحد في العالم ، والأصبع في الخاتم ، والمصور مأسور ، وصاحب الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضراً ونكالا مسافة اليوم ، إلى أن جزر النهار مده ، وبت الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، قد أمل الكال أيته ، وغلّبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للملحة بطلّاع تحرس جهاتها ، وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لكن كفاية الله خير من توقينا . وكان الطاغية زاده الله ذلاً ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد في الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسره إلى ذمر ، وانطوى على غمر ، فأقدم وصمّم ، وبس ماتيم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أرذونش ، وصاحب شوكتهم ألبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » ، وكا قاص ودان ، وعاجل ووان ، أخزى الله جميعهم ، وظل نجيعهم ، ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكت كفيته * لأتى سألت الله ربي وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ، وتقدموا فندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا وارسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده ويعثا من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً بهم على النبا العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفياثق ، ولا جار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استدنييت القائدين المجريين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليى أعزهما الله ، فجالا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذارع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المجتبي ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى في النهايات ، والأسنة تجول في آمادها ، والنصول تصول في أغمادها. وثرنا كما ثار الشهم بفرضته ، وطار السهم لفرضته ، وأمرت رجالا بلزومه المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر في أكتافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية ، وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لاه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتني سبيله ، وتبتغي دليله ، فما رفع الفجر من مجابه ، ولا كثر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل خمسة ، وقضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراق ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان. وعند ذلك نجم «العجم» في سواد الليل وإزياد السيل ، يهبطون إلى داعهم ، ويهرعون إلى ناعهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا باللديد وسجنوا

في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون واختف يرحلهم ، ينلمظون الخيالات ، قد قبالوا
 أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايروا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد «أبو عبد
 الله محمد بن أبي زنى» مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدر غرة وقلوب أشرة ، فانهوا
 بكلكل ورموا بجندل ، رشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد «أبو عبد الله»
 غير مول ، وتراجع غير صخل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فقرأى الجهمان
 ، وتنادى المسكران ، وأمسكنا ولا جين ، ووقفنا والأناة بين ، فعند ذلك تار الخصر ذمد بناء ،
 وأناط الصبر فأشرق معياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق
 مائجة ، وهذرت الشكائى هائجة ، وجحظت العيون غضبا ، وظلت البواتر سببا ، وأذن الحديد
 بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأضداد ، وتصاعلت الفيول ، وتهاوت القيول ، فعند ذلك
 تواقف القوم كوقفة الصير ، بين الورد والصدور ، فبرز فارس من العرب ، قطن فارساً منهم
 فأذراه من مركبه ، ورماد يدي مركبه ، فانتهج ، ما أرتج ، وانفتح الجهم ، وأصبح المحجم ،
 فعند ذلك احتياطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنت الفرسان ، وانذقت
 الفرسان ، ودجا ليل القمام ، وضاق مجال الجيش الزلج ، واختلط السمام بالأجسام ، والأرض
 بالأشباح ، ودارت رعى الحرب تفر بشكائها ، وثارت نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ،
 فلفظ العدو بتراد ، ولجزم القلوب انتهاد فدا وضج انهيار ، ولا مسخ الغبار ، حتى
 خضعت منهم الرقاب ، وقبلى رؤوسهم التراب ، واتصل انهلك بالشرك ، وعادت الضالة إلى
 الملك ، وقلم ظافر النكر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سلبيا ، وعجم حرد الإسلام فكان
 طيبا ، وغمرهم الحيف فهدوا ، وأظفأهم الحين فخذوا ، ومات جلمهم بل كلهم ، وما شجا إلا
 أقلهم ، وحانوا لجانوا وقيل كانوا ، وكشفت الهجوات ، وانجذبت تلك الزينات ، من رسوم جسموم
 قد قصفتها البواتر ، ووطئها الشوافر ، خاضعة الحشود ، عائرة الجودود ، وأخذت سائقنا في
 الطلب ، وضم السلب إلى السام وملئت الأيدي بنيل وأفي النكيل ، خيلا وبقالا وسلاحا
 ومالا ، ودروعا ، أكلهم خيلها ، وأثقلهم جملها ، فصاعنت ساجسا وصاوت معيسا ، فطر مورها
 كأنهم مضجوها ، وألترها كأنهم أعطرها ، احتزننا نوبا ، وأخذنا كأز لم تكن غصبا ، لنقطة

ولانكر ، وعظيمة ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتوت الدانية وزهد في جميع
 النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد
 طليطلة ، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالحضب الجسيم ، بل الطود
 العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحّدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، وهب لنا فتح
 الله ، شكرنا مولى النعم ومهديها ، ومعيد المن ومهديها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ،
 وبقي القاتلان محاصرين لمحصن أفليش آخدين بمختلفهم ، مستولين على رعايتهم. فضاخت أمير
 المسلمين أدام الله سروره ، ووصل حبره ، مثلما بالأمر ، مهنيّاً بالنصر ، لنحمد الله عز
 وجل ، تعالى ما وهب ، ونشكره على ما منى وسبب ، والله يتكفل بالمزيد ويشمخ القديم
 بالمجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولي الامتضان ، والملي الفضل والإحسان ، لأرب غيره
 ولا مهيود مراه.

3 رسالة

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر قيس بن يوسف تاشقير
 حين حاصرها ابن رقيس واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن الخطوط رقم 488 الفيزي المحفوظ بمكتبة الإسكندرية لوجه 55 أ - 61 ب).

من ملتزمي طاعة سلطانه ، وصمتجديده على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ، وجماعة
 سرقسطة من الجبل فيها من عباد الله.

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرقيق القادر والمجمل : لحرم الإسلام بمنه ، ومن حرب
 عظيم على المسلمين ، يزعمه عنهم ويدفعه.

كتابنا أيديك الله بتقواه ، ووفقك لافترار دارحشاه ، بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء

السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ، وادلهمت ضارواها ، فنحن في كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ، وأظلنا الهلاك والعطب ، قياغوثاه ، ثم ياغوثاه إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجميل الكرم والعوايد ، يا الله وبالإسلام ، لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته عداه ، وياحسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصلبان ، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبیح آثامها ، ويعمره بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن لخماراتها ومواخيرها ، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أضحوا حيارى ، بل هم سكارى ، وماهم بسكارى ، ولاكن الكرب الذي دهمهم شديد ، والضر الذي مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات قد كن من السترنجبيان الوجوه ، أن يروا فيهن السوء والمكروه ، وقد كن لا يبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشثوا في حجور الإيمان ، يصيرون في عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب الشيطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هي وقايد هذه العظام الفادحة ، والنواب الكاحلة ، هو المطالب بدمايها ، إذا أسلمها في آخر ذمايها ، وتركها أغراضاً لإعديائها ، حين أحجم عن لقاءها ، فإلى الله بك المشتكا ، ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك بأجناده ، وأمدك بالجم الغفير من أعداده ، نادياً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمحتملين السبعة الأشهر الشدايد الهالية في جنب مولاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ، وبلغ المدى بهم الضر الرجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرّون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أحسنوا فيها ولا تكملون. وما كان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على

مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصره ، بتلك العساكر التي أقر
العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انشيت وما انتهيت ، وأرعويت ، وما
أدنيت ، خائياً عن اللقاء ، ناكصاً على عقيبك عن الأعداء .

فما أوليتنا غناء ، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً
والتواء ، بل آذلت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين ، فيالله ويا للإسلام ،
لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعرازه أتبع الإحجام ،
ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة ، وللة رذيلة ، وطايفة قليلة ، يستنصر بالصليان ،
والأصنام ، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام ، وكلمة الله هي العليا وبده الطولا ، وكلمة الذين
كفروا السفلى ، وإن من وهن الإيمان ، وأشد الضعف ، الفرار عن الضعف ، فكيف عن أقل من
النصف ، فيا قبح من رضى بالصغار وسما خطة الخسف ، فما هذا الجبن والفرع ، وما هذا الهلع
والجزع بل ما هذا العار والضياع ، أتحسبون يا معشر المرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ،
إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والخذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ،
وتجدون في سائر بلاد الأندلس عصمها الله ، مسلماً من النجاة أو طريقاً ، كلا والله ليسومنك
الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها فداراً ، فسرقسطه حرسها الله ، هي السد الذي إن
فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ،
فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا
الدنية ، النار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ،
فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتنضاء جدّها واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ،
فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن
دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأجل ، ألا ترغب في رضوانه ، واشترآجنانه ، بمقارعة
حزب شيطانه ، والدفاع عن أهل إيمانه ، فاستعن بالله على عدوه وحره ، واعمد ببصيرة في
ذات الله إلى إخوان الشيطان وحره ، فإنهم أغراض للمنايا والختوف ، ونهر للرماح والسيوف

ولا ترض بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولاتك كمن قيل فيه :
يجمع الجيش ذا الألوفا ويغزوا ولا يرزأ من العدو فتيلاً

ولن يسعك عند الله ، ولا عند مؤمن ، عذر في التأخر والارعوا ، عن مناجزة الكفار
والأعداء وكتابتنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد ، وعند
ساير العباد ، في إسلامكم إيانا ، إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن مؤمنون ، بل موقنون
إجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا ، وأنت لا تتأخر عن تلبية نداينا ،
ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا ، فدفاعك إنما هو ذات الله ، وعن كلمه ، ومحاماة
عن الإسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة
العليا ، فكم تحمى من أمم ، وتحلى من كرب وغم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهي الأبعد
عن متانة دينك ، وصحة يقينك ، فاقبل بعسرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ،
ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفه عين فالأمر
أضيق ، والحال أزهر ، فعد بنا عن المظل والتسويق ، قبل وقوع المكروه والخوف ، والا فأنتم
المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن
أعدائنا ، وتثبيطكم عن إجابة نداينا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تحملك من
العار مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الحزبي أبداً ، فالله الله أتقوه ، وأيدوا دينه
وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار قال الله ، يا أيها الذين
آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة الآية ، ومهمى تأخرتم عن
نصرتنا ، فالله ولي الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد برىتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر
الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى ، ويغنيننا الله عنكم ، وهو
الحميد الغنى. ومن متحملى كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على مالم يتضمنه
الخطاب ، ولا استوعبه الإطباب بمنه ، وله أتم الطول في الاصغاء إليهم واقتضاء مآلديهم ، ان
شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وله (أى لأمير المسلمين) إلى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والكافية ببلنسية عند نزول ابن رذمبر عليها

(منقول عن المخطوط رقم 488 إسكوريال السابق ذكره لوحة 72 - 173).

كتابتنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووفقكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم من لطايف رضاه ، وعوارف نعماءه ، من حضرة مراکش حرسها الله ، لسبع خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة. وقد وصل إلينا كتاب الفقيه الخطيب القاضي أبي الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمناً من ذكر ما بلغه الوجل من نفوسكم ، ما لانزال نتوخا بحسبه إن شاء الله ما يفى بترفيهكم وتأنيسكم ، فلا يذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ، وتصيرهم ماصيروهم من محلتههم ، فرصة لمناهزتهم ، وانهزامهم بغير سبب سوى تخاذلهم المعتاد ، مع ما كانوا عليه من تكاثر الأعداء ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ما وعظناهم في ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ، ولانفعتهم الذكرى. وبعد فإننا لاندعكم بحول الله لضياع ، ولا تألوكم إلا احتيالا يذهب بمشيئة الله مانالكم من توقع وارتباع ، فطيبوا أنفساً ، واطمننوا قلوباً ، وآله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتاح العليم المنان الكريم لأرب غيره. واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاية أعمالنا كلاًهم الله وإياها ، نأمرهم بتسريب الأوقات ، وتعجيل إنفاذها نحوكم من كل الجهات ، وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالنا بأحق مكان من المراجعة والمحاماة ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح نتوخاه من لم شعثكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكثرثكم ، وحسم عللكم ، ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزهرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم ، ويربي النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً كثيراً خطيراً موفوراً.

وله (أي لأمير المسلمين) إلى المذكورين مجاباً لهم بهزيمة ابن رذمير إياهم في
«القلعة»

(منقولة عن المخطوط رقم 488 إسكوريال السابق ذكره لوحة 73 ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه ، وأسبع
عليكم عوارفه ونعماءه ، من حضرة مراکش حرسها الله في الحادي عشر من شعبان المكرم من
سنة ثلث وعشرين وخمس مائة ، غب ما وافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف اليوم الذي جرت
به خزيه المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك
وعزازه شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ، ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد
حول محتال ماسبق في علمه ، وما ألونا ، وهو عز وجهه أعدل الشاهدين ، جداً وعزماً وكدحا
لإعلاء كلمة الإسلام ، وحزماً ببذل الأموال وتخير الرجال ، واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع
بين الإيحاش والإيناس ، في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل
فيها السداد ، وبلوغ مدة جهاد في كل نحو والاجتهاد ، لو كان العون موجوداً ، ولم يكن
التعذير ... حاضراً عتيداً ، والله يخزي كل خائن ما ين بأسخاطه تعالى دابن جزاه ، ويرد به
برد مضمرة ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحول وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن
نكون لديكم حاضرين ، لأسرعنا بذلك مبادرين ، ولما ثنانا عن حمايتكم بأنفسنا ثان ، ولا قعد
بنا عن معالجة نصركم تراخ ولا توان. وقد جددنا الآن أحث نظر ، ونحن نردفه بما يكون عليكم
ألم وارد ، وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم ، فمالنا والله يشهدهم سوى
الذباد عنكم والدفاع ، والانفراد لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأتم
الاضطلاع ، والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو.

كتاب بتقليد خطة الشورى

صادر من أبي جعفر بن أبي جعفر بن أبي جعفر أمير مرسية إلى الفقيه أبي بكر بن أبي جمرة .

هذا كتاب تنويه وترفيع ، وإنهاض إلى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الأمير الناصر للدين ، أبو جعفر بن أبي جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل ، أبي بكر بن أبي جمرة أدام الله عزه ، أنهضه به إلى الشورى ، ليكون عندما يقطع لأمر ، أو يحكم في نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه ، وجده في اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريقة له ، بل تليدة متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقبل بأعبائها المحسن بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويهاً وترفيعاً ، ويبوئه من حظوته وتمجيده مكاناً رفيعاً . وكتب في التاسع لذي حجة سنة 539 ، الشقة بالله عز وجل .

نقلنا هذا الكتاب من التكملة لابن الأبار (القاهرة) ج 2 ص 526 ؛
وقد فاتنا أن تلحقه بالوثائق المرابطية المنشورة بالقسم الأول فألحقنا
هنا بالوثائق الموحدية .

موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والأخيار

نصوص اجتماعية

7 رسالة

والكافة ببلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم 538 إسكوريال السابق ذكره لوحة 11 أ - 12 ب).

«بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً. من أمير المسلمين
وناصر الدين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين.

إلى وليه في الله تعالى ، الأعز الأكرم الأخطى في ذات الله لديه ، أبي زكريا يحيى
بن علي ، والفقير القاضي أبي محمد بن جحاف ، وسائر الفقهاء والوزراء والأخيار
والصلحاء ، والكافة ببلنسية ، حرسها الله ، وأدام كرامتهم بتقواه.

سلام مبرور كريم ، مردد عميم على جميعكم ، ورحمت الله وبركاته ، وبعد. فإن
كتابنا إليكم ، كتبكم الله من أثر الحق واتباع سننه ، وأذرع الحزم ولبس جننه ، وسمع القول
واتبع أحسنه ، وحافظ على كتاب الله الذي يسره للذكرى وبينه ، وجعلنا وإياكم من جملة
بتقواه وزينه ، من مناخنا بكرنطة ، في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان ثلاثين وخمس
مائة ، ويحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الأكرم ، وكل قول فيعبده يترتب ويتنظم. وقد جاء
في الآثار : كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجزم.

وبعد أن نستوفى واجب الحمد والشكر ، ونذكر نعمه السابغة ، علينا أجمل الذكر ،
فنسأل الله توفيقاً قايماً إلى الرشيد ، وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته ، على
المنهج الأفضل والسنن الأحمد ، ونستعيذه من قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ، وموعظة لا
تنفع ، وصبيحة لا تطاع ، وهو يتبع ، ونصلى على محمد نبيه ورسوله الذي طهره تطهيراً ،

وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهده ، وصبر على مشقة البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذي رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ماكان الله له زواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه ، ووالوا من ولاه ، وعادوا من عاداه.

ولما كان أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذي مرّها في العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها في الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ، ولا أقامكم مقاماً يريدكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحنّاهم على عباده ، وأمحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم أثره ، وحسن مورده في الأمور ومصدره ، وكذلك «العامل» منكم و «القاضي» يقضيانه ، فليقدما أو لا تسديد أمرهما ، ولينظرا في إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح غيرهما ، فمن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا يسدده أموره لا يسدد أمر من تولاه. وعليكم أجمعين يتقوى الله في السر والإعلان ، والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتنزه عن فلتات اليد واللسان ، ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع الجاهل العليم ، ولينبه المعوج القويم ، ولن يزال الناس بخير ما لم يتساوروا ، فإذا تساوا هلكوا.

وأهم أموركم الصلاة ، التي هي سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ في الإسلام لتاركها ، فالزموها في جماعاتها ، ولا تخلو بشيء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ، وأخلصوا فيها لله العلي الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه «إن الصلاة تهني عن الفحشاء والمنكر».

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص في الدارين ، وتخير الرفقا وانتخاب الجلوسا ، فإن مثل المجلس كمثل القين ، والصاحب الصالح قوة في الدين ، وقرة في العين.

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد ، الذي هو من قواعد الإيمان والرشاد ، أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القائم الصائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام ».

والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية ، والحكم بالتسوية ، وإجراء أمورها على سبيل الحميدة المرضية ، فهي العنصر الذي منه الاستمداد ، والأصل الذي تعمر البلاد ، وتوفر الأجناد ، ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد ، وليعلم أن العدل يقسطها ، والجور يسخطها ، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها. ولا سبيل أن يستعمل عليها إلا من يستثق جانبه وتحسن الأحداث عنه. وأن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه ، وكان في نفسه ما يخفيه ، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به.

واعلموا ، رحمكم الله ، أن مدار ومجرى الأحكام والشورى ، في الحضر والبدا ، على ما اتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، فلا عدول لقاض ولا مَفْت عن مذهبه ، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ، ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أو صاحب بدعة فإياكم وإياه ، وخاصة وفقكم الله ، كتب أبي حامد الغزالي ، فليتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، وبحث عليها ، وتغلظ الإيمان من يتهم بكتمانها.

والخمر ، نزهكم الله عن خبايا الأمور ، التي هي جماع الإثم والفجور ، والباب المفضى إلى سواكن الفسق والشور ، فاجتهدوا في شأنها ، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه ».

وكذلك نؤكد العهد فيما نوصي به دايما ، مما أوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين من الأعشار والزكوات ، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة ، فليؤخذ ما فرض الله منها في نصابها المعلوم ، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين ، لأنه من فساد الدين.

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم ، ورحمة الله وبركاته ، وعلى من هناك من المسلمين».

الرسائل من الثانية إلى السابعة عند محمد عبد الله عنان : «عصر المرابطين

والموحدين» ص 533 - 544 ، 548 - 550 ، 741

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1964.

أنظمة السجن أيام المرابطين

يجب أن يتفقد السجن في الشهر مرتين أو ثلاثاً ، لينظر فيه أحوال المسجونين إذا كثر الخلق فيه. يجب أن يخرج منه من كان ذنبه خفيفاً ، ويتنفذ عليه الحكم الذي يليق به ويلزمه. يجب أن يستبرأ السجن في كل عام في شهر رمضان ، أو في عشر ذي الحجة ، أو في النصف من شعبان ، فإنها أيام عظام.

من سجن ، لا يطول سجنه جداً ، بل يتفقد عليه الحكم أو يطلق إلا في آجال المحكومات ، فإن لها آجالاً طويلة وقصيرة ، على ما يوجبه الحكم.

يجب أن لا يؤخذ في السجن إلا حبة [؟] وجهه عند إطلاقه على سبيل الإشارة بالراحة.

لا يحمل أحد في الخشبة إلا من استوجبها من الذعرة. لا يجعل في الخشبة إلا رجل واحد ، فإن السجن يتكلم بذلك على إطلاق أحدهما أجرة. يجب أن يأمر السجن أن يطلق من في الخشبة في أوقات الصلوات والحاجة للإنسان.

لا يسجن النساء مع الرجال في سجن واحد. لا يكون سجان النساء إلا شيخاً مزوجاً عفيفاً. ويتفقد سيرته فيهن ، ولا يطول سجنهن. يجب أن يسجن القاضي من وجب عليها السجن من النساء ، في حكم من المحكومات ، عند امرأة قابلة خيرة ، قد عرف القاضي فضلها ، إلى أن تنطلق ؛ ويجعل لها القاضي أجرة على ذلك بيت مال المسلمين.

لا يأخذ السجان من الصدقات شيئاً. لا يترك مع السجناء رفقاء يجلسون معهم فيقاسمهم في الصدقات ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يترك في السجن من الأمراء إلا واحد ، فبكثرتهم يدخل الفساد ، ويعيشون من الصدقات وهو خطأ ، من قطع ، لا يسجن ، بل يخرج من المدينة ، ويترك يتعطف على الناس ، حتى يبرأ. لا يضرب السجناء أحداً في

السجن باختباره ، يريد بذلك الترويع والاضرار ، ولا يمنع أحداً من زيارة مسجون.

يجب أن يكون لأهل السجن إمامً راتبٌ يدخل اليهم في أوقات الصلوات ؛ فيصلي بهم ، ويقطع له القاضي أجره مع الأئمة من بيت المال ، ويكون مأجوراً في ذلك.

لا يصلب أحد حتى يشاور السلطان في أمره ثلاث مرّات.

يجب أن يحدّ للعمّال ، ويمنع ، ويجدّ في ذلك ، أن لا يأمرؤا أن يضرب أحد بالسوط ، ولا يسجن أحد من الخدمة والعمّال أحداً ؛ ولا يأمر بضرب السوط إلا السلطان وصاحب المدينة والقاضي والمحتسب والحاكم فقط ، ومن فعل غير هذا ينكر عليه ويؤيخ ويؤدب ، ولا يسجن أحد من العمال أحداً الا باذن القاضي والسلطان.

«رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة» ص 18

وصف الادريسي لقرطبة ومسجدها الجامع

ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدنها ، ودار الخلافة الإسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء ، في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزي في الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلاق ، وحמיד الطرائق ، ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم ومراكب سنية ، وهم عليّة ، [وهي في ذاتها مدن خمس ، يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة ، سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وفي طولها من غربيها إلى شرقيها 3 أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد. وهي في سفح جبل مظل عليها يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة.

وفيها المسجد الجامع ، الذي ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميكا ، وطولا وعرضا ، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلّة ، وعرضه 80 باعا ، ونصفه مسقف ارتفاع حد الجايذة منه شبر وافرة في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع ، في طول كل جايذة منها 37 شبرا ، وبين الجايذة والجايذة غلظ جايذة ... [والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطحة ، فيها ضروب الصنایع المنشأة من الضروب المسدسة والموربيّة ! وهي صنع الفص وصنع الدواير والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكثف بما فيه من صنایع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفريّة ، والبياض الأسفيذاجي والزرقة اللازوردية ، والزرقون الباروفي ، والخضرة الزبخارية ، والتكحيل النقسي ، تروق العيون ، وتستميل النفوس ، باتقان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها. [وسعة كل بلاطة منها - أعني من بلاطات مسقفة - 33 شبرا ، وبين العمود والعمود 15 اشبرا ، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام. وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غربية ، فوقها قسي آخر ، على

عمد الحجر المنحور متقنة، وقد جصص الكل منها بالجص والجيار ، وركبت عليها نحور مستديرة ناتئة ، بينها ضروب صناعات الفسفس بالمغرة، وتحت كل سماء منها إزاء خشب فيه مكتوب آيات القرآن.

ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجز الواصفين وصفها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون ، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأعمى. وعلى هذا الوجه ، أعنى وجه المحراب ، سبع قسى قائمة على عمد ، وطول كل قوس منها أشف من قامة ، وكل هذه القسى مزججة صنعة القرط ، وقد أعيت المسلمين والروم بغريب أعمالها ، ودقيق تكوينها ووضعها ، وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء المذهب ، في أرض الزجاج اللازوردي ، وتحت هذه القسى التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش ، وفي عضادتي المحراب 4 أعمدة : اثنان أخضران ، وإثنان لازورديان ، لا تقوم بمال. وعلي رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان ، وعلى وجه المحراب مما استداره حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة [ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة خشب آبنوس ويقس وعود المجر ، ويحكى في كتب تواريخ بني أمية أنه صنع في فجارته ونقشه 7 سنين ، وكان عدد صناعه ستة رجال ، غير من يخدمهم تصرفا ، ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة ومسك لوقيد الشمع في ليلة 27 من شهر رمضان المعظم [ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه ، وفيه نقط من دمه وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد. وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشا بديع الصنعة ، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه. وعن يمين

المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر بني حايطي الجامع في ساباط متصل ، وفي هذا الساباط 8 أبواب منها 4 تنغلق من جهة القصر و 4 تنغلق من جهة الجامع. ولهذا الجامع عشرون بابا مصفحة بصفايح النحاس وكواكب النحاس ، وفي كل باب حلقتان في نهاية من الإبتقان ، وعلى وجه كل باب منها في الحايط ضروب من القص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك ، أنواعا شتى وأجناسا مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البراة وفيها استدار بالجامع في أعلاه لتمدد الضوء ودخوله إلى المستق متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة 4 أشبار في غلط 4 أصابع. وكلها صنع مسدسة ومثمنة مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضا.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغربية الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي منها 80 ذراعا إلى الوضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه. ومن هناك إلى أغلاه 20 ذراعا ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين : أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترى الصاعدان أسفل الصومعة لا يجتمعان إلا إذا وصلا أعلاها ، ووجه هذه الصومعة كله مبطن بالكذان اللكي ، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مثمنة تحتوي على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون ، وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسى دايرة على عمد الرخام الحسن والذي في الصومعة من العمدين داخلها وخارجها 300 عمودين صغير وكبير [وفي أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة ، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان. وللصومعة 16 مؤذنا ، ويؤذنون فيها بالدولة لكل يوم مؤذنا على توال ، وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهب ، وتفاحتان من فضة ، وأوراق سوسنية تسع الكبيرة من التفاحات 60 رطلا من الزيت ويخدم الجامع كله 60 رجلا وعليهم قايم ينظر في أمورهم ، وهذا الجامع متى سها إمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام ، بل يسجد بعد السلام.

«نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الموحدون

نصوص سياسية

10 رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي

« أمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله »

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ، واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذي بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويربهم رحيمة المختوم .

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم رافة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه من الحضرة العلية بتينمل حرسها الله تعالى في سادس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلنا - والحمد لله - وجناح الرحمة منضوض ، وطرف المكاره مفضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أبلغ لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي ، رضى الله تعالى

عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ، ورجاء في تضاعف الأمر بكل لبنة من لبثاته ، وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعملوا في الملأ الأعلى ذكره ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت ، التي أمر الله عز وجل أن ترفع : ويذكر فيها اسمه ولنتنعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتتزود بالتطوف على معاهد ماعهده من العوارف المتممة كل ذلك غرضاً في ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه.

وقد تم - بحمد الله تعالى - هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر في المصالح ، والرأي الجميل النظر ، وتفجرت - بحمد الله تعالى - منابع الخير وفاضت ، وعادت روايض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد البركات بعدما غارت في غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التي عمّت ملابسها ، ووعت الأئندة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها.

وإن الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقي ربه مبرأ من اتباع الهوى سليماً ، والشقي من أتى ملياً ، باكتساب الكبائر ملوماً ، «ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليها حكيماً» ، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب اللفق ويحل به كنفه الأمين ، وفي الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» وبرحمته سبحانه لعباده بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم العناء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقى الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه في كبيرة يغشاه وتغشاه ، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاء ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقيح الانتشار ، يستحلون

حرمت المسلمين من غير حلها ، وسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة
 والغلظة بطراً ورياءً في غير محلها ، وابتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهد الجبال عن
 حملها ، ويستنتظون من فواحش الأثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل
 المسلمين ، فضلاً عن استحالة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئون بها ، ومزورات يضيفونها
 إليهم ، ينسبونها ، وينظرون إلى احتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً
 ويحسبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيثون فيهم بكل غاضبة
 للقلوب منتزعة ، والنبي ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل
 عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يارب سل هذا فيم
 قتلني عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ، ولا يحرون بأذانهم ما يفعل
 الله بأموالهم ولا يخطرون « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم وما
 يشعرون » . هيهات هيهات ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في
 أقرب أمد ما يهدم هذا ، وجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم
 بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً . أما عملوا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم
 في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما عملوا
 أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوي في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل
 رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « المسلمون تنكفى دماؤهم ويسعى
 لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . لقد أمنوا مكر الله جراً عليه وإقداماً ، وأعمت
 الشهوات بصائرهم إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك
 وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخلص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يحور رسمه
 محو الفنا ، ويكتب يديه مما قدمنا من الخنا . لقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع
 المآثم ، الموقفة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ،
 المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى
 ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً في الانهائ بكثرتها وإمجاها ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال

الناس إغلا للصدور وإحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل - أصلحكم الله تعالى - عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعي أوعقه بحدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك .

ولقد ذكرنا لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاه دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالي ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه . اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك بما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم » تنبهاً على ما في أغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا - والله الشاهد - أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبقى [عظة] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وإن من ذلك الرأي الذميم والسعي المنقوم ، ما ذكر لنا في أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طى ما يوهمون به النصيحة ، ويستنبطون المكر في تصافاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ، وقرنوه بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، وباعجبا لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ، كيف تتكيف هذه الكبائر

وأنتم للأمور هنالك رصد ، أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمان تنتهك ، ولا يتمتع لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعنا يبحث عن ذلك ويحص ، ونظراً يفرق بين المشكل ويخلص .

ولاشك - والله أعلم - في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعي تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون مالا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن مشاهدة الأمور ومعاينتها ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفاسدها واختلالها ، وسبب قوى في انتفاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها في الباطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلط الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتقصد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب في الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وثبتوا وفقكم الله تعالى في الأحكام ، التي لا بد لكم من النظر فيها تثبت الحث [البحث] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد في الخصام وبالقوا في الإيصال .

ولا تنظروا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي إلى الهجوم عليها والاقترام ، ويخرج النظر عن التثبت في القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولا تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسماً ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأي منجحاً في سعيه ، وبين طرفي الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور - قال عليه الصلاة والسلام - أو ساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أو لئك المسبيين لتلك القبائح ، الساعين في صدماء
يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم ، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف
بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله ، في سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال
الشنيعية ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنأكل من ترون أنه
يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل
لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ومن هو منهم وداخل في
مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ،
فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجه
الحق ويقتضيه ، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا في
قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى أعلامنا بذنبه بعد
سجنه وتثقيفه ، لنقابله بما نراه ، ونجري الحق في مجراه.

وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولا يبالي أحسن الفعل
فيه أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعهها دون استبراء ويعت في ذلك بكل إقدام على الله تعالى
واجترأ ، ولا يتحفظ من موقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض ، وأن في ذلك
اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لا يحل
سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطلاعها ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن
أو يبيع ، حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع ،
ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وأمانته ، وتحققون ثقته وصيانتة ، فمن أبيع
له البيع والابتيع ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشكل والنزاع ، وتجري السنة
مجراها ويمثل الأمر المطاع. وكذلك فلتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغنموه منهن في
تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا من ذلك بجلية ، لنرسم لكم
فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجري إليه اقتضاؤكم.

والله الله في البحث على الخمر ، وتقدير النظر في أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكيثر والفجور ، وهي رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم . قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « الخمر جماع الإثم » فجدوا في طلبها في المواطن المهمة بشأنها ، واجتهدوا في إراقها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها ، فارعه ، والحظوة ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أماناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكاليء الرقيب ، ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف مايجوز شربه ، وما لايجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصاره ، وخذوهم بتوقف جذهم على ذلك واقتصاره ، فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً وفرعاً وأراقوه ، (الحلال بين والحرام بين) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ماأسكر كثيره فالجرعة منه حرام » .

وإن من يسعى في نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها ، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المفرم ، حتى أنهم لا يرضون في ضيافاتهم . إلا بأسمن الجزر ، وناهيك بهذا الاجترأ العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، ويادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخبروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدره على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ،

ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، نستعيذ به سبحانه من الخور.

وكذلك ذكر لنا . وفقكم الله تعالى . من التحكم في الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميمة ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ماتقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك ، فيعيشون فيها ويتحكمون ، ويجرؤون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولا كثيرا ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هناك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعله.

وقد خاطبنا بمثل ماخطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء في العاجل والآجل مآله ومعاده ، ومن يمتثل به ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمنا في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سواء منعه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحاباً مؤيداً ، واتخذوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير . أيده الله تعالى . على بسط العدل وإفاضته على الكل ، ورفع العبد المشغل ، وكل أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا في

التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً.

ولما كان هذا الأمر عندنا . وفقكم الله تعالى . أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وهاهي قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة ، وصلوا ابتدار شأنها بالمواسلة والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، ولا تقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ماتضمنه ، والاعتمال بكل ماشرحه وبينه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعد ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، وقرأوه على الكافة أعالي المناير ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والخواضر وأسمعوا به إفصاحاً وإعلاناً ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووجدانا ، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحساناً.

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتنثال مغنمه ، على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته ، فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم.

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدبنا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم ، شأن لا يفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجريتموه على مر الزمان وصبرتموه ، فلتتقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا . رعاكم الله . أن من شملته كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد ، في مضمار

واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون ، ولفظ الموحد بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناسف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض في الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى « إنا المؤمنون إخوة » فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقانا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم رعاكم الله . ظناً ، وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستأنفوا الناس بالتي هي أحسن ، وابدلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية مايمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الجميل ويتبين ، وسروا بمصالح عملكم وبشروا ويسروا . كما قال عليه الصلاة والسلام . ولا تعسروا وسكنوا ، ولا تنفروا .

واعملوا أن السعي في هذا الغرض واجب ، والاعتماد في رفع ذلك المانع الحاجب ، لايتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متألفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولمن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة والمناصرة والمؤازرة ، فهي سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحننا لكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت في ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقلوها رشدًا ، ونبهناكم تنبهاً بالغاً وللحال مايعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سحبتة ، وحفظ مااسترعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا . وفقكم الله تعالى . على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم ، =مألفيناها بحضرة مراکش . حرسها الله تعالى . من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، ومايجرى مجراها في وجوب الإزالة ، والإحالة ، فإننا كنا لا نبحث عن ذلك ، لتخيلنا أنه لا يجرؤ أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي

أظهر الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ما كان يحتجب ، طلعنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تظهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ماعهدنا عليه من الاعتدال والقوام ، يحكم ما أحكمه الإمام المهدي رضي الله عنه في القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو في حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا - وفقكم الله تعالى - نظرة أولى الألباب ، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب. والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

«نظم الجمان» لابن القطان ، المطبعة المهدية - تطوان ص 150 - 167

11 رسالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

إلى أخيه السيد أبي سعيد عثمان وأصحابه الطلبة بقرطبة ، يوصى فيها بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل وتحري الدقة ، وألا يقضي في أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره ، وأمددهم بمعونته ، إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا ، الأكرم لدينا ، أبي سعيد وأصحابه ، الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله ، ودام كرامتهم بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإننا نحمد إليكم الله

الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم نجله وسليته ، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله. وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه ، وكلاً جانبكم وحماءه ، من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته الاستعانة به والتوكل عليه ، وموالاته شكره على ما هدى أولياء أمره ، وأنصار دعوته ، وحماة كلمته من صرف أئنة المحبة والاهتمام ، وإحكام منابر الأحكام ، فيما وكله إليهم من أمور الإسلام ، إلى أن تجرى على السداد ، وتنسق على سبيل الإرشاد ، وتقسم على المهيح ، وقضى على المنهج ، وتسير في الواضح ، وتهدى على اللاجب ، ويسلك بها في المحدد ، الذي من سلكه أحمدت منه الآثار وأمن عليه العثار ، وارتضى له الإيراد والإصدار ، فيكون العمل فيها على اليقين ، الهادي إلى الصراط المستبين ، المأمون في سلوكه من المزلّة والضلال ، المرجو في الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحال ، فنسئله تعالى جده عوناً من قبله على هذا الغرض العام الجدوى يصاحب ، وتوفيقاً من لدنه في هذا النظر الشامل المنفعة يجاور وبصاياه ، وأنه أدام الله كرامتكم ، لما كانت مباني هذا الأمر العزيز أدامه الله على التقوى مؤسسه ، وأوامره ونواهيه على أمر الله ورسوله جرية مترقية ، وإليها في الأخذ والتركة مستندة ، وبقتضياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة ، إذ هي نور الحق وسراجة ، وعمود الصدق ومعراجة ، وسبيل الفوز ومنهاجها ، ورائد الثواب وبشيرها ، وقائد العقاب ونكيرها ، فمن ائتم بكتاب الله ، الذي هو الإمام المنادي والحق الواضح البدي ؛ ويسنة رسوله صلعم ، التي جعل العمل بها كالعامل بكتابه ، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده ، أمن من الغوائل ، في العاجل والآجل ، وبلغ من السلامة في الحالين إلى أقصى أمد الآمل ، ولم يوجد للباطل إليه سبيلاً ، ولم يتمكن للشيطان أن يجد في تضليله واستهواؤه صرفاً ولا حويلاً ، فتوفرت الدواعي على الدعاء إليها ، وحمل الكافة عليها ، وأخذ الجميع بما يفقههم لديها ، وقد أمر الله تعالى ، من أمر الناس بطاعته ، أن يحكموا بالعدل ، ويضعوا للعبد موازين القسط ، فلم يكن لهم يد من امتثال أمره ، والاستناد إلى حكمه ، وكانت الوجوه التي تفضي إلى الحق ،

في فضل قضايا العباد منتقبة ، والطرق المؤدية إلى مغنى الصدق ومعناه ملتبسة ومتشعبة ،
 فخرج فيها بنيات تخطى الصراط المستقيم ، وتضل الضلال البعيد ، فصار امضاءها من غير
 استناد إلى هذا الهدى المتبوع ، والعلم المرفوع ، خطراً على ماضيها ، وإنفاذاً على غير هذا
 السنن غرارا على منفذها ، ولما كان الأمر كذلك ، تعين ووجب وثبت وترقب ، أن نخاطب
 جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله ، شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً ، خطايا يتساوى فيه جميعهم
 ويتوازى في العمل فيه كافتهم ، ألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم ، ولا يريقوها
 بباد أو رأى من آرائهم ، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم ، ويتقرر فيما يروقه لديهم ،
 إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها ، وتؤدي على كنهها ، وتشرح حسب ما وقعت عليه ،
 وتنتهي بالتوثق والبيان إلى ما انتهت إليه ، وتقيد بالشهود العدول ، المعروفين في واضعهم
 بالعدل والرضا ، الموجبين للقبول ، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ،
 وحجج الظالمين في مقالتهم واستظهارهم في بيناتهم ، معطى كل جانب حقه ، موفى كل قائد
 قوله ، فتكون مخاطبتهم أعزكم الله ، ومخاطبة من يتناول هذا الكتاب وتوجه إليه هذا
 القصد ، خطاب من تحمّل الشهادة ويؤدي فيها الأمانة ، على ما يجب من البيان الذي لا
 يعتوره التباس ولا يطمس وجهه إشكال ، ويتوثقون في المظلومين بالدماء بحسبهم وتثقيفهم ،
 ويتكفون ما تصلكم به المخاطبة ، فتقفون عند مقتضاه ولا يعدلون عن شيء من معناه ،
 مراقباً كل منكم إلهه ومولاه ، علماً بأنه يعلم سره ونجواه ، وأنه يسمعه ويراها ، واعلموا
 وفقكم الله وأسعدكم ، أن هذا الحكم عام في جميع النوازل ، التي أطلقت السنة فيها القتل
 وسنته ، وحكمت به وشرعته ، كمن قتل نفساً وأقر بالقتل ، أو شهد العدول عليه به ، ومن
 بدل ديناً وارتد عنه ، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان ، باعتراف أو دليل أو شهادة مقبولة ،
 وماخير الأئمة فيه من قتل المحاربين والساعين في الأرض بالفساد ، والمتأملين أمر الله
 بالاستهزاء والعناد ، سواء سُنَّ ذلك كله أو وقع فيه ضرب يشاكله مجراه ، واحد في التوقف
 عن إمضاءه ، والتأخر عن تنفيذه ، إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه العمل من المجاورة. وكذلك
 وفقكم الله يكون التوقف فيما عدا المذكور من النوازل ، التي يكون [فيها] أحكام دون

النفوس من قتل الخطأ وديات الشُّجَاج وعقول الأعضاء ، وأورش الجراحات ، ووجه القصاص ، والقطع في السرقات ، إلى غير ذلك من القضايا المشكّلة في الأموال وإطلاقها واستحقاقها ، وفي الرقاب وإعتاقها واسترقاقها ، وملتبسات المناكحات والمعاملات ، ومأشبهها من الأمور التي الإقدام على الحكم فيها تهجم ، والعمل يغير استناد إلى مايجب تسور ، فتوقفوا أعزكم الله عن جميع ما فسر لكم ، ولو أخفه توقف الساعي في نجاته ، العامل لدنياء وآخرته ، وقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله من الحظر الوكيد ، والوعيد الشديد ، في إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، لا يسلم إلا من طريق العصمة ، ولا تهتدي إليه إلا أنوار الحكمة ، مايزع العقلاء ، ويكف الألباء ، ويحذرهم من سطر الله وعقابه ، ويخوفهم من أليم عذابه ، فعولوا على رسم في هذا الكتاب ، من التعريف بما يبطن ، وانهاء كل ما ينزل ، ليتصلكم من التوقيف ، والبيان والتعريف ، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء ، وتستبرق منه عليكم أنوار الائتنام والاهتداء ، ويتراعى لكم به الحق في صوره الصادقة ، ومثله المطابقة ، ومناظره الموافقة ، ومطالعه المشرقة ، بفضل الله ورحمته ، وملاك مايسدد مقاصدكم في جميع أحوالكم ، ويوجب لكم الرضا في كافة أقوالكم وأفعالكم ، تقوى الله في السر والجهر ، وخيفته في الباطن والظاهر ، وقذع النفس عن هواها ، وكبحها بلجام النهى عن الركن ، في ميدان رداها ، وطاعة أمره العظيم والجري على سننه المستقيم ، فذلك عصمة من الزلل وتوفيق في القول والعمل بفضل الله ، وقد وجب أكرمكم الله لهذا الكتاب ، بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة ، العامة المصلحة ، أن يعطى حقه من الإشاعة والتشهير ، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير ، ويجمع الناس لقراءته وتلقى مضمونه ، ويساوي فيه بين الغائب والشاهد والبادي والحاضر ، بإسماع من حضر ومخاطبة من غاب ، ممن يتعلق بنظركم ويدخل تحت عملكم ، فتوجهون بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم ، وعمل من أعمالكم ، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة ، وتعرف بركته واستشعار عائدته ، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز ، من إفاضة العدل ، ويسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين ، وسننه الواضح المبين ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى

وبركاته ، كتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمسمائة.

«المن بالامامة» تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ؛ دار الحرية للطباعة .

بغداد 1979 : ص 728 - 731

رسالة 12

بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبي يوسف يعقوب

استكتبها ولده والي إشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، ووجهها إلى الحضرة مع بعض أشياخ إشبيلية ،

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي جعل الإمامة قواما للحق ، ونظاما للخلق ، وقاماً على الذي أحسن رعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بنور الحق ، الساطع الأضواء ، المبلغ عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متم انوار الهدى ، ومجلى غياهب الظلماء والامام الأعدل الأهدى ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء. أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين يحضرون من الله حاضرة التوفيق ، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالإسم المبارك الكريم ، الذي أول من دعى به الفاروق رضوان الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمينه مافتح لملة الإسلام شرقاً وغرباً ، وأحال الدلو بيد ساقبهم فاستحالت

غريا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وألقى الناس بعطن من يمينه وأمانه ، جددنا من بيعته على الإسمية المباركة ، فرضا أوجب الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة أمان وإيمان وعدل وعبادة ، والتزمنا بها ، في اليسر والعسر ، والمنبسط والمكروه ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا بها بالعروة الوثقى ، والعصمة التي من يعلق بحبلها ، وأوى إلى ظلها ، فقد اعتصم بالجانب الأيمن الأوفى ، علما أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها ، العناية الربانية ، علينا بذلك عهد الله الأوكد الأئزم ، وميثاقه الأغلظ الأعظم وذمته التي لا يقطع حبلها على مرور الزمان ولا يصرم ، مستبصرين في هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين في التزام الطاعة على الحجة البيضاء ، عارفين بما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنة ، وعلى مضمن مانص فوق هذا ، التزم أهل إشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ثلث وستين وخمس مائة.

المصد الأخير ص 356 - 358

13 رسالة

من الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة الذين بغرناطة ، يشير فيها إلى وصول بيعتهم من أشياخ غرناطة ، وينوه بولائهم ووفائهم ، ويوصى بإكرامهم وبرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده. من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيد الله نصره ، وأعزه بمعونته.

إلى الطلبة الذين بأغرناطة أكرمهم الله بتقواه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القايم بأمر الله ، والداعي إلى سبيله ، ونوالي الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مسنى أمره العزيز إلى غاية تميمه وتكميله ، فإننا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه. وقد وصلنا كتابكم من عند الشيوخ من إغرناطة ، حرسها الله والموحدين ، وفق الله جميعهم ، ووفقنا عليه ، ورأينا ما تحملوه عن الموحدين بأغرناطة وجيرانهم من انعقاد إجماعهم على أجمع عليه شيخ أهل [الهدى] وأعيانهم من الأمر الذي أوجبوا على أنفسهم المبايعة عليه ، وأعطاه صفقة اليد فيه ، وقد وفقهم الله لما وفق إليه أهل أمره ، وذوى العصمة من طايفته ، والله تعالى يتقبل منهم عملهم ويعرفهم بركة ما التزموه ، ويعينهم على القيام بواجبهم والوفاء بحقه. وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورين بعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتها ، ما يجدون أثره في أحوالهم [وسريان] الانتفاع به في أقوالهم وأعمالهم ، فأعرفوا لهم حق وفادتهم ومكان رفادتهم وأحملوهم. خيراً بهم على الرعاية المتصلة ، والمبرة الحافلة المشتملة ، إن شاء الله تعالى ، والله ولي عونكم وصوبكم ، لا رب غيره والسلام الكريم العميم عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الثاني عشر من شوال عام ثلاثة وستين وخمس مائة.

نفس المصدر ص 362 - 363

14 رسالة

موجهة من السيد أبي إسحق إبراهيم بن الخليفة أبي يعقوب يوسف إلى الحافظ أبي عبد الله بن أبي ابراهيم وإلى غرناطة يبلغه فيها بدخول ابن همشك في الدعوة الموحدية.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الشيخ الأجل الحافظ الأعلى ولينا في الله تعالى ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم أدام الله عزه وكرامته بتقواه .

وليكم في الله تعالى إبراهيم بن أمير المؤمنين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله على ما أولى ومنح ، والصلاة على محمد نبيه الذي تبين به دين الحق ووضح والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، معبد دين الله ، بعدما عفى رسمه ومضى ، والدعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذي طهر بعدله البلاد وفتح ، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيه وأنجح ، وكمل فيمن جلا فيه الأمور الدينية وأصلح ، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه ، من قرطبة حرسها الله ، ولاجدد إلا ماعود الله بركة هذا الأمر العزيز من فتح ، لاتزال تفتح أبوابه وتتصل أعتابه ، وترفع قبابه ، وتتعرف مع كل حين انهلال مافيه وإسكانه. والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ، يصفو به سريال إحسانه وجلبابه. وإن من النعم التي ببركة هذا الأمر العزيز حديدها ، واقتضى بسعادته مزيدها ، واتبع بطريقها تأييدها ، وانجرف فيها لأولياء الأمر العزيز الموعود ، ووافقهم فيها الحد المصحب المسعد. وإن الشيخ أبا اسحق إبراهيم بن همشك وفقه الله ، كشف له عن وجه هداه ، وجلّى عن موارد رواه ، وتبين له أن هذا الأمر العزيز هو المركب المنجى ، السابق له السعادة الباقية المزجى ، الذي لا يؤخر عثار من صدف عنه ولا يرجى ، فبادر إلى الدخول فيه بدار من خلصت سرائره ، وطويت على موعة ضمايره ، ورأى أن تلك يحى به خطاياهم ويغفر جرايرهم. وأذاع الدعوة المهدية في جميع بلادهم ، وأعلن بها ، وأبدى الاعتلاق بعصمتها ، والتمسك بسنها ، ولقي الموحدين أيدهم الله بتقواه ، ملاقة اللاليد بظلمهم ، المتمسك بحبلهم ، المستنيم ، المنطوى على الولاء الأخلص ، والود الأسلم ، والحمد لله على ذلك حمداً تتوالى به فتوحه ، ويتصل به مبذول إحسانه وممنوحه ، وخاطبنا كم بذلك أدام الله كرامتكم لتجروا شكر الله تعالى على ما أسبغ من نعمه وأولى ، وتسلكوا معه سبيلا يكون أخرى بازديادها ، مامن عفا

وولى ، والله تعالى يوالي لديكم آله ، ويسبغ عليكم ظاهره وباطنه نعماءه ، والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب في شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمس مائة.

المصدر ص 415 - 416

15 رسالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ، ينبههم فيها باهتمامه بأمر الأندلس ، والعمل على نصرتها ، ومجاهدة أعدائها ، ويظمنهم على تنفيذ هذا العزم ، بما بعثه من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبي حفص ، تمهيداً لجواز الموحدين إليها.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده. من أمير المؤمنين أيداه الله بنصره ، وأمداه بمعاونته. إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فانا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القايم بأمر الله تعالى ، والداعي إلى سبيله ، ونوالي الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، محمى أمره العزيز إلى غاية تتميمة وتكميله. وأنا كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه ، من حضرة مراكش حرسها الله. وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر ، وضمن له من التأييد ، وتكفل له من التمكين ، وزاد من تبسطه وامتداد علوايه ، واتصال مضامره وخلوصه ، إلى كافة الأرجاء ، وتغلغله في كل الأنحاء ، لإكمال دينه وإتمام

نوره ، وبث دعوته وتصديق وعده ، لاتزال [موارده] الحافظة لصوره ، المبقية لأثره ، المثبتة لأركانه ، الممكنة لقواعده ، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة ، والمعاني على سريانه ، المزعجة لتشربه وجريانه ، مما يؤذن له بإيجازه مواعده ، وتتبع مضموناته ، حتى يستوى على مذهبه الذي لا غاية بعده ، ويقف على منتهاه الذي لا مطلع وراءه ، يقينا اطمأنت بمقدمات العابه القلوب ، وقرت على ظهور براهينه النفوس ، وعضدته الآيات البينة ، ونطقت به الآثار المفصحة ، وناقدت شد أحواله لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

ومازلنا وفقكم الله ، على أتم العناية بتلك الجزيرة مهددا الله ، والحرص على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة اشفاقا على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجمعين وردھا ، وماكادوها به من التلف والتحفيف والتنقيض ، وفقر الأفواه ، وكسر الشيوب والأرصاء ، لغيب مافض فيها من نور التوحيد ، وخفض مانصب من أعلام هذا الأمر ، والمناسبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستزمين بذمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السير ، ونجعل لها من الفكر حظا ، يستحق الصدق على ماسواه ، من الأفكار ، وبأخذ سبق على غيره من معينات الأمور ، ونراه من الأهم الأغنى ، والأول الأولى ، قياما بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناوئها ، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره ، وتواردها على مشاهدته ، وإدائتها به ، ولم يرع سمعا دعوة الحق التي ملأت الخافقين ، وقرع صوتهما مسامع الثقليين ، وتمكن أسباب التفرغ لذلك ، والتوسع فيه ، والنظر في أحكامه ، فيعترض من أهل هذه المغارب ، شواغب يثيرها الجهال ، ويبغيها النعقة الضلال ، فلا يسمع أسماها ، ولا يسوغ الإضراب عنها ، قياما بحق الدين ، وتوقيا من استشرء الشر ، وتوقد أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد ، لحسم عللها ، وإبراء أدوائها ، مايقشع غياباتھا ، ويظهر أقداءھا ، ويفضي إلى المقصود الأول من التفرغ للجزيرة مهددا الله ، والتوطيد لأمرها دوما .. الاشتغال بهذا الغرب يلط بأرجائه ، ويشتمل على جوانبه ، ويتخلل

زواياه ، وينتظم أو عاره وسهوله ، حتى صفى الله مشاريه ، وخلص من الشوب مشارعه ، ووقف بأهل الانزاء من أصناف مشغبية على تايب أنات بقلبه ، وندم على مافرط من ذنبه ، وعلى شقى قماذى في غلوايه ، ولج في قمرده فولى كل مااستحق ، وسهم خطة مارضى ، ووجد التايب برد الأمان ، وتبوا كنف الإحسان ، وحققت على العصاي كلمة العذاب ، وأخذه التياب ، والصبرورة إلى سوء المأل ، وشر المآب ، وربك بظلام للعبيد. ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد ، ويسط لها نعمة التمكين والتوطيد ، انعطف النظر إلى محل مثاره ، وسال سبل الاعتقاد إلى قراره ، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدها الله ، وتوفرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها ، ورأينا في أثناء مانحارله من مروم هذه الغزوة المتتممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكرياً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ، ومؤديا بما عزمنا عليه ، والله المستعان ، من التحرك لجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذي جعلناه نصب العين ، وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أغراضها ، التي انعقدت بها النية ، واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا لنترجو من المبلغ لأمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون مايتمم مبدأها ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه ، بالنعمة في أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وثنية ، فما ذلك على الله بعزيز ، وإذا طالعتم وفقكم الله هذه الأنباء ، واستعلمتم ما في ضمنها من البشائر ، وعنوانات الفتوح ، وآثار هذه القصور : وحملتكم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر ، والتفتت إلى ماعودة رأيتموها نعمى تحولتكم ، ورحمى انتحتكم وأتتكم ، وشرحت لها صدوركم ، وعمرتكم بها أحناكم ، وشغلتم بها مشاهدكم ، وسررتكم غايتكم وشاهدكم ، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء ، وتخرج منها صدور الأعداء ، ويكون للمؤمنين منها مطلع أمل ، وللكافر

مطلع هول ووجل ، عرفكم الله شكر النعمة بها ، وأعانكم على أداء واجبها ، وبلغكم الغاية الجميلة منها بمنه وبمنه. وإذا وصلكم هذا الكتاب ، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس ، وإرسالا بنسخه إلى من نأى عنكم ، حتى يجد أثر الاستبشار به ، ويترقب بمودعه الغايب والشاهد ، والحاضر والنأى انشاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

المصدر ص 399 - 304

نصوص اجتماعية

16 أنظمة الحسبة

فصل في تقسيم وجوه الحسبة في تغيير المنكر وبيانها

تغيير المنكر يفتقر إلى علم بحقيقته ، ومعرفة تمنع الإنكار على فاعله ، وإلى صبر ورفق في تولي ذلك بحسب محكمته ، وإلى قوة وجزالة فيما لا ينجح الرُّق في مثله ، وينحصر ذلك كله في ثلاثة أصول وهي :

المحتسب ونفس الأحتساب. والمناكر المحتسب فيها.

فهما أنتفض أصل واحد منها أختل وجه الحسبة ، وفائدة تغيير المنكر ، إذ قد يزدِّي / ذلك إلى منكر مثله ، أو أشدَّ مما يحتسب فيه ، وسنبيِّن كلَّ واحدٍ منها ، ونذكر من شروطه وأحكامه ما يكون إن شاء الله أصلاً في آستعماله ، وتنبهها على ما وقع من أمثاله ، والله المسدّد لا ربَّ غيره.

الفصل في المحتسب

وشروطه أربعة :

أن يكون مسلماً. مكلفاً. عالماً بما يحتسب فيه. قادراً على التغيير والقيام به.

فأما الإسلام ولعلم بما يحتسب فيه ، فشرطان في صحّة القيام بالتغيير ، لا يجوز ولا يتوجّه مع عدمها ، إذ لا يصحُّ تغيير الكافر وأحتسابه ، لأنّه ليس من أهله ، إذ التغيير أنصارٌ لدين الله تعالى ، والكافر جاحد له ، وأنّصاره لما جحدّه وكابر عليه محالٌّ وأستخفافُ

بأمر المسلمين ، إذ لعله إنما يريد بذلك التوصل إلى إذلالهم والتسلط والآستطالة عليهم ، فلا يصحُ تمكينه منه لقوله تعالى : (وَكُنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) . وقال صلى الله عليه وسلم : « لن أستعين بمشرك ».

وكذلك الجاهل يرجوه القيام بالحسبة والتغيير ، لا يصحُ قيامه فيما جهل حقيقته من المناكر ، أو جهل ما يجب عليه فيه من الإنكار ، فإن ذلك مختلف باختلاف المنكر وفاعله والمحاسب عليه ، فلا يستوى إنكار الولد على أبيه ، والعبد على سيده ، والرعية على الأمير ، وما في معنى ذلك مع غيرهم ، إلى نحو ذلك مما قد يؤول القيام به إلى ما هو أنكر من الأول ، فمن كان يجهل هذه الأشياء ، فلا يجوز قيامه فيما جهل منها ، ويجوز فيها علم وجود الشرط في ذلك الشيء .

وأما الشرطان الآخران وهما : التكاليف والقدرة على التغيير ، فهما لإيجاب القيام عمّن دخل فيه الشرطان الأولان ، لأن غير المكلف من صبي أو مجنون ونحوهما لا يتعين عليه خطاب ولا يلزمه قيام ، إلا أن من نهض من الصبيان إلى حد العقل والتمييز ، وعرف المنكرات ووجه التغيير ، فتبرع بالحسبة ، فقيامه صحيح ، وأجره على ذلك عند الله جزيل ، وهو إن لم يقم في ذلك غير آثم ، بخلاف المكلف ، وكذلك غير القادر على التغيير ، إما لأنه يوقن أو يقوى عنده وقوع المكروه به الذي أباح الله له معه الترك ، أو لأنه علم أن قيامه ذلك لا ينفع ولا يؤثر شيئاً ، فمن كانت هذه سبيله لفرض القيام ساقط معه ، وإنما على من شاهد ذلك الإنكار بقلبه ، والفرار ما أمكنه عن مشاهدته ، ويصح مع ذلك قيامه أن يبرع به باذلاً نفسه لله تعالى في موطن المخافة ، أو قاصداً لإظهار شعائر الدين في موطن الإعراض عن احتسابه والإضراب عن الانتفاع به ، لأن في ذكر ذلك والقيام به فائدة أخرى غير زوال المنكر من حيث التنبية على حدود الله تعالى ، والإعلان بشعائر الدين ، والانتقال من درية اللسان في التغيير ، إذ التماؤ في مثل ذلك على السكوت لكون القائم بعمله لا ينفع فيه قد يوهم الرضا بذلك ، ويشتهبه على من قل علمه ودينه التساهل بمثل ذلك واعتقاد جوازه ، فإذا قام أحد بمثل

هذا متبرعاً ، صحَّ احتسابه ، وعظم عند الله تعالى أجره ، وهو في سعة من التَّرك إن شاء الله تعالى ، بخلاف أنخرام الشرطين الأولين ، فإنَّ القيام مع عدمهما أو عدم أحدهما باطلٌ لا يصحُّ.

فصل

وآختلف هل العدالة شرط في القيام بالحسبة في تغيير المنكر أو لا ؟ فأوجب ذلك قوم ، ورأوا أنَّ الفاسق لا يحتسب ، واحتجوا على ذلك بأشياء تلزم لظهور الانفصال عنها ، والصَّحيح وجوب ذلك عليه كما قدَّمناه ، إذ وجدت الشروط المتقدمة ، وصحة فعله منه إذا وقع ، أمَّا وجوبه عليه ، فلاَّته مكلفٌ علماً مُنكراً يقدر على تغييره ، فتعيَّن عليه القيام به لقوله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليُغيِّرْهُ ... الحديث » وليس كونه فاسقاً في غير ذلك ، أو ممَّن شأنه فعل ذلك المنكر بعينه ، مخرجه عن خطاب التَّغيير فيه على غيره ، لأنَّهما فرضان متغايران لا يسقط أحدهما العصيان بترك الآخر ، وأياً قام به وأدَّى فرضه فيه فقد سقط عنه إثمُه ، وذلك أولى من اجتماع الإثمين وآرتكاب المعصيتين.

وأما صحة فعله منه إذا وقع ، فلأنَّ المقصود إزالة عين المعصية على طريق حماية الدِّين ، فإذا كان ذلك ، فهو احتسابٌ صحيح ، بخلاف تغيير الكافر ، وأيضاً فلا يوجد معصوم عن جميع المعاصي ، إلا من قرَّر له ذلك شرعاً. وفي بعض ذلك خلاف.

ويروى عن سعيد بن جبير أنَّه قال : إنَّ لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر إلا من أنكر فيه شيء ، لم يأمر أحد بشيء . وأعجب ما لكأ ذلك من قول سعيد.

فصل

وكذلك آختلف هل من شرطه أن يكون مأذوناً له في الحسبة من الإمام أو أحد الحكَّام ، فرآه بعضهم ، ومنع آحاد الرعيَّة من ذلك ، وهذا قولٌ فاسدٌ إذا حمل على إطلاقه وعمومه.

والصحيح أن ذلك ليس بشرطٍ ، وأن القيام بالتغيير على كل من شاهد المنكر واجبٌ على الشروط التي ذكرناها ، بدليل ما تقدم من عموم آي القرآن وصحيح الآثار ، قال الله تبارك وتعالى : (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون على المنكر). وقال صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيره ... الحديث».

إلا أن تغيير المنكر ينقسم على أقسام ، فمنها :

التنبيه والوعظ باللسان.

ومنها المباشرة في إذهاب عين المنكر باليد ككسر الملاهي ، وجرار الخمر ، ونحو ذلك.

ومنها الإرهاب والتخريف بالضرب والقتل وما أشبهه ، مما لعله يؤدي إلى قتال وجمع أعوان وفتن وأستطالة على السلطان. فهذا النوع خاصة ينبغي أن يتوقف عنه من لو يؤذن له فيه خشية مما يؤول إليه ويستدعيه من المناكر. فإن دعت إلى ذلك ضرورة يتعقبها القوات ، وتعذر لدن السلطان. كالقوم يكونون في البادية ، والرفاق في الطرق ونحو ذلك ، يروم أحد منهم أو فيهم غضباً أو فتكاً أو قتلاً. وما أشبه ذلك مما لا ينبغي إقراره وإهماله ، فوجب القيام في تغييره ، ودفعه بما أمكن ودعت الحاجة إليه على كل حال.

الفصل الثاني

في كيفية الاحتساب ، وحقيقة القيام في الله تعالى
غضبا له وانتصاراً لحدوده ، وحماية وذباً عن محارمه

وأحكامه ثلاثة : حسن التناول في الحسبة. وفهم مراتب التغيير. ومعرفة وجوه الكشف
عن المنكر.

فصل

في وجه تناول الحسبة

فأما التناول في القيام بتغيير المنكر والاحتساب على فاعله ، فينبغي للقائم فيه تحسين المأخذ ، وتقديم الرفق والتلطّف ، فيعلم من جهل برفق ولين ، وينبه من جار أو غفل بلطف وتبيين ، حتّى يستوي من زل ، ويهتدي من ضلّ ، إذا كان الرفق في ذلك كلّ مؤثراً ، والوقوع من فاعله نادراً ، أو كان من الجهالة بحيث يعذر ، أو من العزّة والظلم بحيث يجوز ، فإنّ الرفق في نحو هؤلاء أدعى للقبول ، وأوقع في درك المأمول ، ولا ينبغي له أن يرجع إلى العنف في شيء مهما أمكن الرفق ورجيت منفعتة ، ولم يكن داعياً إلى التهاون بالدين ، واستخفاف من أسرف من الفاسقين ، قال الله تعالى (وَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان آمراً بالمعروف ، فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يَحِبُّ الرُّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ»

وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابيُّ فقام يبولُ في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه ، مه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تررموه دعوه ، فتركوه حتّى بال. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : إنّ المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنّما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن ، ثم أمر رجلاً من القوم فجاء يدكّر قسنته عليه».

وحكى حماد بن سلمة : أنّ صلة بن أشيم مرّ عليه رجلٌ قد أسبل إزاره ، فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة ، فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : يا ابن أخي ، إنّ لي إليك حاجة ، فقال : وما حاجتك يا عمّ ؟ فقال : أحبّ أن ترفع من إزارك ، قال : نعم وكرامة ، فرقع إزاره ، فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة ، ولستمكم.

وأما إن خيف مع الرُّفق فوات عين المنكر ، أو اتّصال الاستطالة على مثله لاستخفاف المقوم عليه وقلة آتفاته ومبالاته ، وعلم أن الرُّفق لا ينفع في مثل ذلك ، وأمن أن يشير الإغلاظ منكرًا أشدُّ من الحاضر ، فينبغي المعالجة بما يقاومه ويصلح به ذلك الأمر من الشدّة والعنف ، وبحسب عظم المنكر وما يليق في مثله ، ويؤدّي إلى إزالة فعله على ما سنبينه إن شاء الله تعالى ، قال الله تعالى في صفة القوم يحبّهم ويحبونه ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »

فصل في مراتب التّغيير

وأما مراتب التّغيير للمنكر ، فمختلفة بحسب الفاعل وفعله ، ويجب فهمها على المحتسب ليضع كلّاً منها موضعه ، وهي على خمسة أقسام :

أولهما : التّعريف والبيّنة ، وذلك فيمن يعلم أنّه جهل ما يحقُّ عليه ، وإنّما وقع في ذلك المنكر على غرّة من نكرة وجهالة من أمره ، كالعالميّ يقع في دقائق الرُّبا والبيع الفاسدة التي قد تخفى ، وكالبدويّ الجاني لا يقيم أركان الصّلاة وشروط العبادات ، فهؤلاء ومن أشبههم ممّن يعذر بالجهالة أو الغفلة يجب تنبيههم على الصّواب ، وتعليمهم مواقع السّداد ، مع التّلطف والاستمالة بالرُّفق ، لينشطوا للقبول بالبشرّ ، ويتلقوا ذلك بالفهم ، فتسرح الفائدة ، وتقل الكلفة ، كما أخبر شيخنا الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله المشتهر بآبن أبي درقة رحمه الله قال : كنت مرّة في غرّة الشّباب ومبادي الطّلب ، فتشاغلت عن إحدى صلاتيّ العشاء إلى أن شارفت الفوات ، فأتييت عجلًا إلى بعض المساجد ، وأعتمدت بعض زواياه ، فصلّيتها مبادراً متجوّزاً في بعض أركانها ، وإذا بعض الشيوخ يسارقني النظر ، بحيث لم أشعر به ، فلما أتممت صلاتي ، وهممت بالانصراف استدعاني ، فأتيته ، فسألني قليلاً ، ثمّ قال : يا بنيّ ، رجلٌ تسلّف دراهم إلى وقتٍ ، فلما حلّ الأجل ، والغريم موسراً قادراً على الأداء ، تهاون بذلك واستخفّ ، ولم يزل يترأخى به إلى أن استحقّ دَمّ التأخير ، ثمّ أتاه بها بعد ذلك ناقصةً ، زُوفاً. فجميع بين جنسيّ الإساءة في القضاء ، فهل

يكون لهذا حظٌ في القبول ؟ فما أتمُّ كلامه حتَّى فهمت مقصده وتعريضه بما فعلت في صلاتي ، فخرجت ، ثم قلت له : فهمت يا عمُّ فما زاد على أن قال : قم يا بني بارك الله فيك ، فعُدْتُ لإتمام صلاتي ، وأثر ذلك عندي خير تأثيرٍ .

فهذا النوع من الرِّفق والتلطُّف في التعليم بحسب فهم صاحب النَّازلة وما يليق به ، أوقع في النفوس وأقرب إلى الإجابة من كثير من العنف والشَّدة .

الثاني : الوعظ والتَّخويف بالله عز وجل ، والتَّحذير من آسحقاق وعيده ، والتذكُّر بشدَّة عقابه ، وذلك فيمن علم أنَّ شأنه الوقوع في المناكر على علمه بها ، كمُذمِّن شرب الخمر ، والمواظب على الغيبة والتُّميمة ، ونحو ذلك من أنواع المعاصي التي لا يجهل تحريمها ، فالواجب تعهّد من آتصف بذلك بالوعظ والتَّخويف من الله تعالى ، والتلطُّف في إيصال ذلك إليه ، وتذكيره بالله سبحانه وتعالى فيما يحقُّ عليه ، فلعلَّ الله سبحانه سيقبله بذلك . ويلهمه رشد ، وبصره قصده ، قال الله تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) .

الثالث : الزُّجر والتَّقريع باللسان ، والشَّدة في القول والإنكار ، وذلك فيمن ظهرت منه مبادئ الوقوع في المنكر وهمُّ به ، ولم ينفع فيه وعظ ولا نهضة رفق ولا لطف ، فيجب حينئذٍ زجره وردعه بالقول الصَّارف له والمرهَب عليه ، ممَّا يليق في مثل ذلك كقوله : يا جاهل ، يا أحمق ، لئن لم تنته لأوقعن بك ، وما أشبه هذا ممَّا يصدِّق في نوعه ويكون أهلاً لقوله . ولا ينبغي له أن يتعدَّى إلى السبِّ الفاحش ، والذمِّ الذي لا يكون من صفة ذلك الفاسق ، فإنَّ ذلك إذا فعله كان منكراً ، يجب الاحتساب فيه على المحتسب .

الرابع : التَّغيير بمباشرة اليد ، وذلك فيمن رآه يحمل خَمراً ، أو يلبس ثوب حرير ، أو خاتم ذهب ، أو قابضاً على مالٍ مفصوبٍ ينازعه ربه أو واقعاً لمعصيةٍ ما ، فمثل هذا إذا أعوزه صرفه عن ذلك المنكر بالزُّجر ونحوه ، فواجب عليه بيده ، فيريق الخمر ، وينزع ثوب الحرير ، وخاتم الذهب عنه ، ويختطف الشيء المفصوب من يده ، فيرده على مالكه ، وما أشبه

ذلك من أنواع السُّعي في صرف ذلك المنكر ، وإذها به ودفعه عن تلك المعصية وأستدامتها .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى مكنكم منكراً فليغيره بيده » الحديث .

فقّه

إذا لم يمكنه إراقة الخمر إلا بأن يكسّر إناءها ، أو يقطع أو عيّتها فعل ، ولا ضمان عليه ، وإن أمكنه مع ذلك إبقاء الطّرف ولم يخش تغلباً عليه ، ولا فوتاً لشيء ، فأفتات بذلك ، ضمن قيمة الطّرف إن كان لمثله قيمة ، وصحّ به آتفاع في غير (الخمر) .

الخامس : التّغيير بالضرب وإيقاع التّنكيل والعقوبة بالفاعل ، وذلك في حق من تلبّس ولم يقدر على دفعه عنه إلا بذلك ، فواجب الوثوب عليه حتّى يزياله ، فإن دعت ضرورة إلى قتاله بالسّلاح وحشد الأعوان ، فذلك أيضاً واجب إذا لم يقلع عن ذلك المنكر إلاّ به . ولكن مثل هذا النوع قد تقدّم أنّ الأولى رفعه إلى الإمام ، أو إلى أحد الحكام ، ليكون ذلك عن إذنه وبأمره ، لما يتوقّع في نوعه من الفتنة بغير أمر السلطان ، مالم يكن في موضع لا يمكن فيه الاستئذان إلاّ وقد فات فعل ذلك المنكر ، فتجب مبادرته والسعي في صرفه .

تنبيه

إذا لم (يعلم) بالمنكر حتّى فات ووقع ، أو علم به فلم يقدر على دفعه بشيء من الوجوه التي ذكرناها حتّى آنقضى وأنفصل ، فلا يصح القيام في مثل هذا إلاّ بالأدب وإقامة الحدّ عليه بحسب مايتقاضاه منكروه ، وذلك أمرٌ يرجع إلى الولاية والحكّام ، ولا يكون لأحد الرعيّة النّظر فيه ، لأنّ فيه ، لأنّ بابه الأحكام لا التّغيير ، لآستحالة رفع منكرٍ قد آنقضى .

فإن كان ممّا فيه حدٌ متقررٌ بالشرع كالزّنى وشرب الخمر والسّرقة والقصاص وما أشبه ذلك ، فعلى السّلطان القيام بذلك ، وإمضاء حكم الله تعالى في الفاعل إذا ثبت ذلك عليه .

وإن كان ممّا لا حدّ فيه متعيّن ، كالغصب وفعل الرّبا ، والخلوة بامرأة أجنبيّة ،

والتعريض للكشف على النساء في المآثم وعند أبواب الحمامات ، والمؤلف بين الرجال والنساء على الفاحشة ، وبائع الخمر وحاملها ، وصانع آلات اللهو ، والتصاوير المحرمة ، وما أشبه ذلك ، فينبغي معاقبة كل واحد من هؤلاء بقدر جريرته ، وبحسب الاجتهاد في نازلته.

فصل

في معرفة وجوه الكشف عن المنكر

وأما وجه تعرف المنكر والكشف عنه ، فيفتقر إلى نظير واجتهاد بحسب قرينة الحال وظواهر الاستدلال ، فالذي يجب أولاً ترك التجسس والتعرض للوقوف على ذلك بالمباحثة ابتداءً من غير سبب ظاهر ، كاستراق السمع والتعريف بما عليه أهل دار أو محلة من منكر يتوصل إلى علمه بنغمات الملاهي ، وأصوات السكاري ، وانتشار رائحة الخمر ، وما أشبه ذلك ، فهذا في نفسه حرام ومنكر ، يجب تغييره على فاعله أو مراده ، قال الله تعالى : (ولا تجسسوا) .

وكذلك لو رأى أحداً معروفاً بالفسق وقد أخفى شيئاً تحت ثوبه ، فلا يجب كشفه ، ليتعرف هل هو خمر ، أو آلة لهو ، أو غير ذلك من أصناف المناكر ، فلعله كما ظن ، وفي ذلك أذى للمظنونين ، والله تعالى يقول : (إن بعض الظن إثم) ، فترك التعرض لمن يستتر ولم يظهر عليه شيء من دلائل تلك المعصية واجب ، وإن ظننت به .

فأما إن ظهر منه ما يدل على المنكر من غير تجسس ولا بحث مبتدأ ، كما لو مر على دار ، فسمع أصوات السكاري وآلات المنكر ، أو غلب عليها رائحة الخمر ، ونحو ذلك من الاطلاع بغير قصد على ثبوت المنكر لا محالة ، فواجب القيام في ذلك ، والهجوم على مثل هؤلاء ، والوقوف على ما دل عليه الدليل من تلك المناكر ، حتى تزال فاحشتها ، ويرفع نكيرها . فإن دلالة ذلك قد ظهرت من غير تجسس ولا ارتكاب نهى ، لأن الذي حرم في الأول التجسس لإزالة المنكر المظهر عليه ، لأنه واجب بعد الظهور .

فصل

وكذلك ينبغي للقضاة أو الحكام البحث والكشف عما أشتهر ذكره من المناكر ، وعرف بالجملة ظهوره وانتشاره ، وأنس الناس به ، كآثاخ النساء في السرور والحزن والمآثم يجتمعن لأنواع الملاهي والمناكر في الديار والمحلات ، وبعض الشوارع والحمامات ، وما أشبه ذلك ، وكذلك الفحص عن شهر بالفساد من بيع الخمر ، وجمع الفساق ، ومتخذي الديار المعدة لذلك ، وكالمهين بما لا يحل ، وأهل صنائع المنكر ، ونحوهم ممن يتصف بإدمان المعاصي في ذلك ، وآرتكاب المحظور بالإعانة ، ومن هو كالألة لوقوع المنكر على يديه ، ففي مثل هؤلاء يجب آجتهد الولاة والفحص في ذلك وآرتكابه عنهم ، وتفقد مظان ذلك منهم ، وآستعمال الحد في ردعهم ، وآستيلاء القهر والإخافة عليهم ، وإذا ظهوروا من ذلك على ما يوجب العقوبة والتشكيل فعلوه بهم على أعين الناس ، ففي ذلك إن شاء الله ردع لظهور المنكر ، وتطهير لمواضع الفساد ، وإظهار لشعائر الإسلام ، فواجب الآن على الحكام الآبتداء بالكشف والبحث في مثل هؤلاء لأن الشر والفساد قد كثر جداً وآنتشر ، وتحقق صحة كون ذلك مشتهراً في المواضع ، فلا ينبغي للقاضي التهاون به وترك القيام فيه حتى يرفع إليه ، إذ قد لا يرفعه أحد لما أنس الناس اليوم من كثرته ، وآعتادوا من ملازمته ، حتى لا يكاد أحد ينكره ، فإهمال البحث عن ذلك مؤد إلى استمراره وآستدامته مع قلة القيام به ، وليس آبتداء البحث في مثل هذا محظوراً من جهة أنه يظن من قبيل التجسس ، بل هذا هو الواجب إن شاء الله تعالى ههنا ، لأن البحث والكشف إنما يكون تجسساً محظوراً فيمن آستتر ولم يشتهر عنه ذلك بكثرة الظهور عليه ، أو آتخاذه ذلك المنكر كسباً ودأباً حتى عاد أمره بذلك معلوماً بالإغضاء عن مشتهرات المناكر ، وترك البحث عن قطع موادها إلى وعيد قوله صلى الله عليه وسلم لما سأله زنب : أنهلك وفيما الصالحون ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم إذا كثر الخبث » .

فصل

من أطلع على منكرٍ قد آنقضى ، وفات بالوقوع ، بحيث لا يمكن تغيير الفاتت ، إلا أنه يتعلق على فاعله حدٌ مشروع كالزنى وشرب الخمر ، أو عقاب مجتهدٍ من الحكام كمعارضة النساء وحمل الخمر وما أشبه ذلك (بما آنقضى فعله) آنقطعت مدته ، (ولم) يعلق به سبب لاستدامة تلك المعصية ، فإن كان فاعلُ ذلك ممن شأنه التستر والمراقبة من مشاهدته على تلك الحال ، فلا حرج (على) من رآه وياشر ذلك منه في ترك الشهادة بذلك عند السلطان ، بل هو أولى لأنه ستر عليه ، وذلك مندوب إليه ، وحسنٌ مع ذلك أن يعظه ، ويتقدم إليه من القول بحسب ما يليق بالفاعل وفعلته ، على نحو ما قدمناه .

وإن كان الذي فعل ذلك من شأنه المجاهرة والآنهماك وقلة المبالاة بمن أطلع عليه ، والإقدام على الاستخفاف والتهاون بمن شاهده ، فالأولى في مثل هذا إن شاء الله إقامة الشهادة لله ، ليستولي عليه من حدود الله تعالى ما يدعوه إلى حفظ شعائره ، ويردعه عن الاستهانة بمحارمه ، وتصرفه عن الإعلان بنفسه والفرق بينهما أن من تعرض بالمجاهرة وأستخف بأطلاع المسلمين على فواحشه ، قد حاول خرم قانون الحق وأستباح حمى آداب الشرع وذلك منكرٌ آخر أفحش مما وقع فيه ، فيجب تغييره عليه ، لأن أنتهاك معالم الشرع بإبداء الفواحش وإعلانها كبيرة ، غير موقعة المعصية نفسها ، فوجب أن ينتهي فيمن فعل إلى حكم قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصاب من هذه القاذورة شيئاً ، فليستتر بستر الله ، فإنه من يبيدي لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » . فدل أمره صلى الله عليه وسلم بالآستتار ، على أن المجاهرة بالمعصية معصيةٌ أخرى ، ودل قوله صلى الله عليه وسلم « من يبيدي لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » ، أنه لا ينبغي تركه ، بخلاف المستتر بذلك ، فكان القبض عليه هو نفس تغيير منكر المجاهرة وكف أنتشارها ، ودفع استحقاق ما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا عمل النكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم » .

وليس كذلك من ظهر عليه نادراً بغير اختياره ، فإنه لم يقصد إلى إبداء صفحته ،

اللهم إلا أن يبلغ ذلك إلى الحاكم ويثبت عنده ثم فيه حدٌ ، فلا يجوز له تركه بوجهٍ ، ولا يحلّ له العفو عن حدود الله بحالٍ من الأحوال ، ولو كان الواقع في ذلك أفضل الناس وأرفعهم ، فزُلْ مرةً في عمره ، ويادر بالإقلاق والثوبة ، فلا يغنيه ذلك بعد بلوغه الحاكم من إقامة حدود الله تعالى عليه.

والفرق في ذلك بين الشاهد والحاكم قوله صلى الله عليه وسلم : « من ييدي لنا صفحة وجهه نقم عليه كتاب الله ».

وقوله صلى الله عليه وسلم لما كلم في أمر المخزومية التي سرقت في غزوة الفتح : « أي والذي نفسي بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، فهذا تجريح على الحاكم في إسقاط مظاهر عليه من الحدود ، فلا يجوز له فيه عفو أصلاً ، لأنه حق الله تعالى تعين عليه تنفيذه ، وليس كذلك غير الحاكم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم له زال : « يا هزال هلا سترته بردائك ».

وعلى نحو ذلك فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. فهذا يدل على أن الستر على المسلم إذا لم يجاهر بالمعصية ولا آستخف بالاطلاع عليه ، أولى من فضيحته إذا فاتت ، مالم يبلغ الحاكم.

فصل

وأما إن كان المنكر الذي ظهرت عليه ثم استدام فيه من مواقعه الحرام ، ويتكرر ذلك المنكر مع الترك ، كالرجل يطلق أمراًته ثم يقيم معها ، أو يعتق عبده ثم يستصحب التمسك برقّه ، وما أشبه ذلك ثم يكون تركه سبباً لبقاء ترك المعصية واستدامة ثبوت المنكر ، فواجب على من علم ذلك القيام بالشهادة ، وأداؤها عند من يقبلها من الحكّام ، وسواء آستتر بذلك فاعله ، أو جهر على كلّ حالٍ ، وفي أسرع أوقات الإنكار ، لأنه مستصحب للمنكر بإقامته على استدامة المعصية والملك ، وتركه أو إهماله إعانة على الاستكثار من المحذور ، فإن أهمل

الشهود ذلك ، ولم يقوموا بتلك الشهادة مع التمكن والقدرة ، فهي جرحة بهم ، وسقوط لعدالتهم ، لما قد توجه عليهم فتركوه من فرض القيام بتلك الشهادة التي فيها تغيير ذلك المنكر وحسمه ، وقد شاركوا في تلك المعصية إذا لم يفعلوا.

فصل

وينبغي للقاضي إذا خاف أن تتعذر عليه الإحاطة بحفظ الحوائز والأسواق وشوارع المسلمين ومجتمعاتهم من وقوع المناكر ، وتعرف ما يعرض في ذلك من التوازل ، أو خشي أن يتشاغل عن آستيفاء البحث والكشف والنظر بما يتشابه من أمر الخصوم ونوازل الأحكام ، وأن يختار أمناً عدولاً عارفين في ذلك ، يتفقّدون ما جعل إليهم من الحوائز والمواضع ، ويرفعون إليه ما يتعذر عليه النظر فيه من ذلك ، وإن أفرد لكل سوق وحومة أميناً منها ينظر في ذلك فعل ، بحسب آجهاده ، وحاجة الناس إلى ذلك ، ووجود القائم به فإن ذلك من التعاون على الخير ، الواجب على كل / منهم لقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى).

الفصل الثالث

في المناكر المحتسب فيها

قد تقدّم القول في بيان تأكيد الوجوب في القيام بتغيير المناكر ، وحماية معالم الشرع ، وحفظ شعائر الإسلام على الولاية والحكام ، فإنه يجب عليه من تفقد أحوال الناس ، وتعرف ما يكون من المناكر ، والبحث عل مظانها ، والسعي في حسم موادها ، وقطع علاقتها ، وإظهار الترهيب في ذلك ، والتنكيل في العقوبة ، والقهر المانع من التهاون بها ، والمجاهرة بأسبابها ، ما لا يجب على غيرهم من آحاد الرعية ، ونحن ذاكرون في هذا الفصل إن شاء الله تعالى أمودجا ممّا آعتيد وقوعه ، وكثرت المجاهرة بنوعيه من المناكر المألوفة في هذا الوقت ، لتكون المبادرة مصروفة إلى إزالتها ، والعناية موقوفة على تفقدها وإحالتها ، وتطهير المواضيع ونفوس العوام من ملازمتها ، وأيضاً في الأطلاع على ما رسمه من معتادها

، تنبيهٌ على ما ذكره من أشباهها وأمثالها ، يتقبط لذلك من علم حدود الشرع ، وسعى في مصالح الخلق ، إذ الإحاطة بجميع محدثات المنكر ، أو محاولة استقصائها محالٌ لا يمكن ، لأنه لا يجري على قياس ، ولا يرجع إلى أصل ، فنذكر الأهم ، والله المستعان ، ومنه النص والإحسان.

المناكر المعتادة في معاهد الصلوات ، ومعالم الديانات

فمن ذلك ما اشتهر كونه ، وعرف بضرورة الأحوال وجوده ، من ترك كثير من الناس وجمهور العوام القيام بصلاة الفرض التي هي الدين ، وفصل ما بين الكفرة والمؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك ، أو قال : الكفر ترك الصلاة » ، وهذا أهم ما ينبغي الاهتمام به ، ويحق على القضاة وسائر الحكام وآحاد المسلمين القيام فيه ، وبذل الجهد والاجتهاد في تفقد أحوال من ظاهره التقصير والإهمال ، وعلى الحكام مولاة أخذ الناس بذلك ، والاشتداد على الكافة فيه قبل كل شيء ، من سائر الأحكام.

ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى عماله : إن أهم أموركم عندي الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

وكذلك يجب عليهم المبالغة في التنكيل والعقوبة لمن تعرف منه الإضاعة والتفريط وقلة المراقبة ، وحدٌ / ذلك من الضرب الشديد إلى السيف ، وذلك بسبب الترك القليل والكبير ، والإبابة من فعلها ، فهذا يترك حتى يخرج وقت صلاة واحدة ، ثم يقتل في قول كثير من أهل العلم.

وإذا علم أحد من أهل الجفاء (والبدواة) ومن يتوهم فيه ترك الصلاة والجهل بإقامتها ، فينبغي للحاكم مباحثته ، وينزل إلى سؤاله في ذلك بالرفق والهن ، حتى يتعرف هل يحسن القيام بها (وما) لا بد من وظائفها من حيث يفهم العاصي عنه ذلك ، لا من حيث سياق الفقهاء وتقاسيمهم ، فإن أطلع من مساءلته على معرفته بذلك ، كما لو أخبره المسؤول بعدد

ركعات كل صلاة ، وما تشتمل عليه الركعة من قراءة وفعل ، وما يراد بتكبيرة الإحرام والتسليم وما كان مثل هذا فليخل عنه ، فإن ذلك دليل على إقامة الصلاة ، وإن تحقق عند اختباره أنه غير عالم بها ، فإن كان لجهل يعذر في مثله ، كما لو كان حديث عهد بالإسلام أو كان الذي جهل مما يخفى مثله جفاة العوام ، وما أشبه ذلك من الأعذار التي يكون لها وجه ، ولا يفهم منه تهاونه ، فينبغي أن يعلمه ويأمر بتعليمه حتى يحسن ذلك ، وإن كان جهله لثقله وصلاته وكثرة استهزائه ، فليحسن أدبه ، ويجتهد في عقوبته ، ثم ينظر في تعليمه أيضاً ، فربما وجد اليوم أشياخ ذوو كبرة ولعلمهم ما صلوا قط ، فما أشق أن يكون اليوم عقوبة هؤلاء ، إن لم يكن قتل.

وكذلك يجب تعليم من يراه يصلي ، ولا يحسن أرامها ، ولا يعرف إقامة أركانها في الركوع والسجود ونحو ذلك ، فيتعين على كل مسلم علم هذا أو بشاره ، القيام به ما أمكنه ، فإن هو أقره بعد علمه فهو آثم ، وأشد ما يتأكد ذلك على الحكام كما قدمناه.

ومن ذلك ما يخص الرجل من أهل داره وحشمه وأصاغر بنيهِ من لدن سبع سنين فصاعداً ، من أخذهم بإقامة الصلاة ، والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وكما يجب من معرفة مفروضاتها ، وتعليمهم ما لا تستقل إلا به ، كأحكام النضوء والغسل ، وما يوجبهما وينقضهما ، ودخول الوقت ، وإثم الفوات ، وما يتعلق به صحة الصلاة وفسادها ، كل ذلك فرض على ذي العيال والأهل ، يجب فيه تعهده لهم ويشدد إثمهُ ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» ، الحديث.

فينبغي الآن للقضاة والحكام تنبيه الناس على ذلك ، ووعظهم فيه ، وتذكيرهم ، فإنّه قد علم وتحقق إغفال الجمهور بل الكافة تفقد من أحوال أهلبيهم وعامة عيالهم ، وصار أعلى مرتبة أهل الدين والفضل مراعاة أنفسهم وحفظ ذواتهم ، فضاخ الأهل والعيال ، فقلما توجد اليوم امرأة أو عبد أو وليدة فوق السبع تصلي إلا نادراً ، فإننا لندرك وإننا إليه راجعون.

ومن ذلك إهمال كثير من الناس وأهل الأسواق والحرف والأجراء شهود صلاة الجمعة ، وهي من فروض الأعيان على كل رجل مكلف وغير مريض ولا مسافر ، لا يسع أحد من أهلها التخلف عنها لغير عذر ، وقد تمالى كثير من أهل الصنائع اليوم ، والأجراء وغيرهم ، على تركها وأطراح حضورها ، وساعدهم على ذلك كثير من الخاصة والأعيان الذين يستعملونهم استكثارا يعملهم في الوقت المستحق لحضور الصلاة ، وربما كان في هذا النوع من لا يصلي ألا ، جمعة ولا غيرها ، مادام على شغله ، فيجب على الولاة البحث عن هؤلاء ، والتنقيب عن عرف عنه ذلك ، والأشتداد على فاعله ، والمساعدة عليه ، واضطرار الكافة إلى شهود الجمعة بما يؤدي إليه الاجتهاد ، ويقتضيه النظر والحال إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك إسناد الإمامة في الصلاة في كثير من المساجد إلى العوام والجهال ، وقد لا يحسنون شروط الإمامة ، ولا يعرفون أحكام الصلاة فيما تصح به وتبطل ، وربما وجد فيهم من لا يقيم القراءة لكثرة اللحن وتحريف بعض الحروف ، فهؤلاء ينبغي منعهم من ذلك حتى يتعلموا ، بل يجب منع اللحن من القراءة ، وإن كان وحده في صلاة أو غيرها حتى يتعلم إن كان يمكن ذلك فيه ، لأن تغيير القرآن باللحن ونحوه منكر ، لا يحل إقراؤه . وأما إن كان لا يقدر على التعلم لأعوجاج لسانه بعجمة أو نحوها مما لا تكون في وسعه معه إقامة أصلاً ، فليجتهد في تجويد أم القرآن وسورة إن أمكنه بحسب وسعه ، ويقتصر على ما أحكم من ذلك في صلاته لنفسه إن شاء الله تعالى .

ومن كان لا يحسن القراءة ، ولا يحفظ شيئاً البتة ، كمبتدئ الإسلام ونحوه ، فليصل مأموماً إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك قراءة القرآن بالألحان المطرية ، والترجيع المشبه بالغناء ، الملهي لسماعه عن الخشوع والاعتبار ، وتجويد (...) عند مواضع القرآن ، فهذا منكر يجب المنع منه ، وتنزيه القرآن عنه ، بل الألحان نفسها مما ينكر في الشعر ، وينبغي التنزه عن الحضور لها وسماعها ، فكيف بآيات الله تعالى ومقدس كلامه .

فأماً بإيراده على التَّجويد والصُّوت الحسن فمرغَّب فيه ، لأنه من أحكام التَّلَاوة ، وفيه من التشويق إلى الخير ، والتَّذكير بالله تعالى أجمل موقع للقلوب الخالصة للذكر. فقد قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا لحسن صوته بالقرآن ، وتجويده لقراءته.

ومن ذلك حضور بعض النساء المتوقِّئ أمرهن كالشَّابات الممتلئات لحما ، اللتي تتوقَّع الفتنة مساجد الجماعات ، وفي ذلك ضررٌ كثيرٌ ، وفساد كبيرٌ ، وإذا أدَّى حضورهن إلى هذا ، فهو منكر يجب قطعه ، ومنعهن المسجد لأجله. فقد منعهن عائشة رضي الله عنها من دون هذا فقبل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعهن من الجمعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن ، فأين زمانها رضي الله عنها حين قالت ذلك من هذا الزَّمان ، وانتشار البدع والحدثان ، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

ومن ذلك ما قد كثر الآن وانتشر حتَّى عمت به البلوى ، وتلاعب قوم فيه لفساد الفتوى ، كالحلف بالطلاق ، والأيمان اللازمة ، وكتطبيق الرجل امرأته ثلاثاً في كلمة واحدة مؤثراً لذلك ، وكله منكر وتحريف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغيير لشعائر الدِّين يجب منعه في الابتداء ، ويلزم جميعه إذا وقع على كلِّ حال.

فأماً الحلف بالطلاق والأيمان اللازمة أو عتق ، فأرتكاب لنهيه صلى الله عليه وسلم إذ قال : « لا تَحْلِفُوا بِالطَّلَاقِ ولا بالعتاق ، فإنَّها من أيمان الفساق ».

وقال صلى الله عليه وسلم « من كان حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أو لِيَصْمِتْ ». وفيه مع ذلك تعريض للوقوع في منكر آخر ، وهو أنَّ الحالف بالطلاق إذا حنث فقد لزمه الطلاق. وقال الله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعقود). وهذا عقد على نفسه . طلاقاً بشرط ، فوجب مع وجوده ، فبأنَّ وجب فإنما يقع عليه حين الحنث ، وربما كان في حال حيض المرأة ، أو دم نفاسها ، أو في طهر قد مسَّ فيه. وهذه الأحوال لا يجوز ابتداء الطلاق فيها ، ولا تعتمد

إيقاعه ، فكذا لا ينبغي له التعرّض للوقوع فيما يحرم عليه ، وهذا كلّه إذا كان الحالف يجتنب الحنث ويتوقّاه ، ويعلم محافظته على حدود الله تعالى ، كما قال مطرف وآبن الماجشون : من آتت الحلف بالطلاق فذلك جرحه فيه ، وإن لم يعلم له حنث فيه والعلة في ذلك ما قدّمناه من ارتكاب النّهي ، والتعرض لما لا يجوز.

فأمّا من يتهم بإخفاء الحنث في ذلك ، والبقاء على حكم الزّنى ، فهو في حقّه أشدّ وأدهى ، فينبغي ويجب على الحاكم الاشتداد في ذلك ، والتّجريح على من عرف بالحلف به ، والعقوبة له بما يستحقّه على حسب وقوعه منه في إكثاره وإقلاعه ، وما يعرف من توثيقه وأستسهاله ، فقد روى زياد عن مالك : أنّه يؤدّب من حلف بالطلاق.

وأما تطبيق الرجل أمراته ثلاثاً في كلمة واحدة ، فمنكر يجب توقّي فعله ابتداءً ، ويلزم إذا وقع. قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ) إلى قوله : (وتلك حدود الله ومن يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً قبل : يعني الرجعة ، فأمر تعالى بالطلاق المشروع وهو واحدة ، فالثلاث في كلمة تعدّ لحدوده تعالى ، وظلم من فاعله ، وهو مع ذلك لازم بما دلّ عليه في الآية قوله تعالى : (لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً). فكان المتلقى من عموم ذلك أنّ من تعدّى ما حدّ الله له من طلاق السنة فطلق ثلاثاً ، فقد سدّ على نفسه باب التّرجاع ، إن حدثت له نية في ذلك بما لزمه من طلاق الثلاث ، لأنه لو لم يلزم لما حذّر فوات الرجعة بقوله تعالى : (لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً). والتّطويل في الاستدلال على ذلك موجود في كتب الفقهاء وعليه جميعهم ، وكافّة أهل العلم ، لا يخالف في ذلك أحد ، إلّا من لا يتعدّ بخلافه.

وكثيراً ما يقع الناس اليوم في التّساهل في ذلك ، ويطلب الفتوى أن تحلّ في واحدة ، وهذا من أمرهم أنكر وأشدّ بلاءاً من الأوّل ، فينبغي للحاكم حسم ذلك كلّه بمنع الناس ابتداءً من استعمال لفظ الثلاث ، والاشتداد عليهم في قصده ، وإن أدّى الاجتهاد إلى أدب فاعله ، بحسب ما يليق بمثله فحسن.

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاثاً جميعاً ، فقام غضبان ، فقال : « أيلعب بكتاب / الله وأنا بين أظهركم؟ » .

وكان علي بن أبي طالب وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما يعاقبان الذي يطلق ثلاثاً في كلمة . وهو قول مالك .

والذي ينبغي من عقوبة من يطلب الفتوى في ذلك ، أو أفتى بحله في واحدة ، أشد وأبلغ في التنكيل والردع الزاجر لأمثاله ، لأن هؤلاء أهل الوسوسة والتشبيب على الضعفاء ، فواجب تفقد مثل هذا ، وإزالته من نفوس العوام ، فهذا اليوم فاش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

المنكرات المعتادة في الشوارع والمحلات

من ذلك استرسال السكارى في مخالطة الناس ، والاستطالة بآثار السكر من العبث والهجر ، ومأشبه ذلك من منكر أحوالهم ، وكذلك غيرهم من أصناف الفساق والمجاهرين بأنواع المناكر ، كاسترسال النساء حالتي السرور والحزن في الإعلان بأنواع الملاهي البادية ، وإظهارها على الأصوات العالية في أسراب يتهادين على تلك الحال من موضع إلى آخر ويتعارفنه بينهن بالزحف ، وربما اجتمع إليهن الرجال للنظر والتعرض ونحو ذلك ، فواجب مهما عثر على شيء من ذلك القبض على فاعله ، وإبلاغ العقوبة فيه من مثله ، إلا أنه ينبغي من جميل الأخذ فيما اعتاد النساء من ذلك ، أن يتقدم الحاكم إلى الناس في مثله ، بالإعلان بالنداء وإشهار العقوبة ، ليتسامع النساء بذلك فيجتنبنه ، ويكن على حذر من الوقوع بهن ، فيزعهن وأزع الخوف ، فمثل هذا واجب قبل القبض عليهن ، لأن الناس قد اعتادوا ترك القيام فيه والإنكار ، فإغفالهم داع إلى أخذ النساء على حال غرة ، وقد يكون في ترك ذلك بعض الفتنة ، وضده كثير من الأمائل والمستترات اللاتي لو تحققت ذلك ما أقدمن عليه ، أو لمنعهن منه أولياؤهن ، ولما تساهل فيه من عاداته التساهل بحرمان الله ما لم يزعه قهر السلطان .

فينبغي تفقد مثل هذه الأنواع في الشوارع والمحلات وحيث يبدو أثر المجاهرة به ،
تفقداً كافئاً لأهله ، وراذعاً عن مثله ، يعظم الله به الأجر ، ويدراً به علائق الشرِّ .

ومن ذلك ما اشتهر عن قوم بأعيانهم من منكرٍ عرفوا به ونسبوا إليه ، كمتخذي
الملاهي وأنواع الغناء المحرَّم والآلات والزمر صناعةً وحرفةً يكتسبون بها ، ويستأجرون عليها
عند السُرور والحزن مثل الزقَّانين والمغنين وسائر الملهين بما لا يحلُّ لهم ، فهم أعوان الشياطين
في تحريك النفوس لكُ شرِّ ، وتوثيب أهل / المعاصي على كلِّ نكرٍ ، فينبغي للقاضي ابتداء
البحث والكشف عمَّن شهر بذلك وآرتسم به ، والقبض عمَّن وجد منهم ، وإبلاغ الزجر فيهم ،
والوعيد إلى ما يربح به توبه من يغلب على الظنَّ إنابته ، ويعاقب في كفِّ هذا الصَّنْف من
الرِّجال والنِّساء وتفقد حالهم أبداً ، فهم منشأ الفتنة ، ومثار أسباب الفسادِ .

ومن ذلك تعرُّض الفسَّاق وأهل الشرِّ والدُّعارة لحرم المسلمين وأعراضهم ، باتخاذهم
المجالس على قوارع الطُّرق لأذى المارِّين من المسلمين ، إمَّا بإطلاق القول فيهم من الغيبة ونشر
العيوب ، والهجن في المنطق . وإمَّا بالتعرُّض للنِّساء ، والكشف عن عوراتهنَّ ، والأطلاع على
محارمهنَّ بالجلوس في مظانَّ ذلك من أبواب الحمامات ، ومواضع تكرَّرهنَّ ، طلباً لمخاتلة
الكشف عليهنَّ ، واستمالتنَّ بالتعريض ، والمخالسة بالكلام ، وما أشبه ذلك من صنوف
المنكر ، فواجب فيمن عرف بمثل هذا المبالغة في نهيه وزجره ، والعنف عليه ، والعقوبة إن كان
لذلك وجه ، ويمنع هؤلاء الصَّنْف ومن يتَّهم بمثله من آتخاذ المجالس في مثل طرق المسلمين ،
ويستظهر عليهم بالوعيد الصَّادق والقهر المانع .

ومن ذلك الدِّيار المعروفة بالفساد وإلف المعاصي ، كبيع الخمر ، والجمع بين الفسَّاق
ونحو ذلك ، فما عرف منها بهذا وجب البحث عن سكَّانه ، ومن يتَّهم بذلك من أهلها ،
وأجتهد في تنكيله وعقوبته بما ثبت عليه من ذلك ، ثمَّ إن أمنت عودته وإلَّا كلف الانتقال
والجلاء عن موضعه الذي عرف فيه بالشرِّ ، وأعتيد غشيانته لذلك ، وجلب إليها أهل الصِّلاح
والخيرة ، ففي مثل هذا حسَمُ لمادةِ هذا المنكر إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك تبرج النساء المتصرقات بأنواع الزينة البادية ، وأسباب التجميل الظاهرة على حال إختيال في المشي ، واستعمال منتشر الطيب ، واستظهار ما يستدعى الفتنة ، فمثل هؤلاء ينبغي منعهم من التصرف على هذه الحالة.

وكذلك يجب منع النساء فيما بينهن (في) المآثم والحمامات ونحوها من الاسترسال في إظهار ما يخفى من محاسنهن ومصون أجسامهن ، وما يدعو إلى أطلاع بعضهن على ما لا يحل لها من الأخرى ، فإن المرأة أكثر محاسنها وخفايا جسمها ، يحكم له بحكم العورة ، فيجب ستره عن النساء ، كما يجب عن الرجال.

ومن ذلك اجتماعهن في الجبانات والمواضع التي تتخذنها مجالس للتنزه / على من يمر عليهن من شبان الرجال ، وقد يعارضهن بتلك الحالة كثير من الفساق ، وربما جلبهم على المرور عليهن ما اعتيد من اجتماعن ، وعرف من أغراضهن ، وقد يعمدن إلى نصب الأخبية على الجبانات تهايباً وزعماً أن تستتر من تطيل الجلوس منهن ، وهذا أدعى إلى الشهرة والشر ، وأشد لصرف أعين الفساق وقلوبهم إلى من فيها ، مع ما يتوقع من جرأة من لا يتقى الله تعالى على موافقة المعاصي بها ، لاستتار الكائن بها عن كثير من الأطلاع عليه ، فهذا كله من المناكر التي يجب الاشتداد عليها ، والمنع منها بحول الله تعالى.

وكذلك اجتماعهن في بعض الأسواق التي يضطرون إليها ، كسوق الغزل ونحوه ، وربما خالطهن الرجال وسفلة السماسرة ، وحادثوهن وتمازحوا بما لا يحل ، وذلك منكر ظاهر ، ومدعاة إلى الشر ، وأرتكاب محارم الله تعالى ، فينبغي لأظفارهن إلى ذلك أن يقدم هناك أمناء ويختار ثقات السماسرة ومسئوهم ، ويمنع من كان متهماً من التصرف لهن ، ويعين للنساء موضع مستتر يخصصن للجلوس في قضاء ما يحتجن إليه من ذلك ، بحيث لا يخالطهن فيه من يجتاز أو ينصرف من الرجال.

ومن ذلك اتخاذ بعض الناس ما يؤول إلى أذى المسلمين ، والتضييق في الشوارع عليهم.

كتكادس المرحاضات المستخرجة من سُروب المحلّة وقنوات تلك الحومة ، وتركها كذلك في المواضع الضيّقة بحيث يتنجّس المارُّ ، وقد يقع فيها الصُّبيان ، والماشي ليلاً ، ورُبّما كان المطر ومال بعض ذلك مع الماء وخالط كثيراً من طرقات المسلمين ، فعظمت المضرة ، واشتدّت المصيبة.

وكذلك ما يكون في بعض السطوح من قطر ميازيب تجري بغسالة ونجاسة في موضع ضيق ، لا يكاد المارُّ يسلم من شرّها.

وكذلك آتخاذ مرابط الدوابّ على الطرق ، وبحيث ينال المارُّ من (ضيق) الموضع بها وتعذر الجواز ، وروع كثير من الناس مضرة ظاهرة ، ورُبّما عاد تنجيسهم وتلوّث ما يكون من أروائهم وأبوالهم.

وكذلك آتخاذ الكلاب العّادية في الحومات ، وعلى أبواب الديار ، فقد تعدّو على كثير ، وبراغ لها الجَمّ الغفير.

وكذلك مخالطة الناس وآزدحامهم ، إذ لا يتسع ذلك ، كالأسواق وضيق الأزقة ، فقد يفضي إلى أذى المسلمين في تخريق أثوابهم وتلوّثها ، وتكليفهم المشقة في التحرّز منها.

فجميع ما ذكرناه من هذه الأصناف / التي شأنها الإباحة في الابتداء ، لولا ما يعترضها من أذية المسلمين التي نبهنا عليها ، فوجب أن يمنع على الصّفة التي تؤذي ، لأنّه حينئذ منكر يجب تغييره ، والتقدم إلى الناس في آجتنابه.

وأما إن أمن الأذى أو خفّ ، كما لو جمعت الرّحاضة بقدر ما ينقل من غير تراخٍ أكثر ، أو أوقف رجل دابّته على الطّريق بقدر ما يركب أو ينزل ، أو يشدّ عليها حملاً أو يضعه ، أو لو مرّ رجلٌ يباح له آتخاذ الكلاب بكلب موثوق في يده ، أو ضمّ صاحب الشّوك أو الخطب أطرافه وشدّها ، بحيث لا تؤذي في الغالب ، أو مرّ بها في المواضع الواسعة التي يمكن

التحرّز منها ، ولا يتعدّر العدول عنها ، فكلّ ذلك على هذه الصّفة مباح ، لأنّ للنّاس ضرورة إلى مثل ذلك ، فلا يصحّ منعه على الإطلاق ، إلّا بشرط وجود الأذى. أو غلبة وقوعه لعرف العادة.

ومن ذلك ما يستخفه بعض النّاس من أذى البهائم ، والعنف على الدوابّ ، كإثقالها بالأحمال التي لا يستقلّ بها ، وإرهاقها في سرعة المشى بالضرب والزّجر الشّديد ، حتى يستخرج منها فوق وسعها ، مثلما اعتيد فعله الآن من حمالي الزّرع ، ونقالي الحجارة والجصّ ، والخدمة من الزّماليين وغيرهم ، فهذا من المناكر التي يجب الاحتساب فيها ، ومنعهم منها ، وصرفهم على كلّ حالٍ عنها ، وسواء كانت الدّابة تُثقلها أو لغيره ، ولا حجة له في كونها ملكه ، فإنّ الحيوان محترم ، وحفظ النّفوس واجب ، حتّى لو آتق أن يرى أحد وقد حمل نفسه فوق ما يطيق من ذلك ، وعنف عنها عنفاً يظهر منه سوء نظره لها ، لمنع من ذلك ، وقهر على إزالته ، وجُهدٍ عليه إن أباه.

« تنبيه الحكام » لابن المناصف دار التركي للنشر - تونس 1988 : ص 314 - 341

خبر ابتداء بناء الجامع الكبير الجديد باشبيلية ومساق الخبر على [330] اختلاف السنين.

وفي هذه السنة من شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الاتيق ، فهدمت الديار في داخل القصبة له ، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية ، وجميع عرفاء أهل الاندلس ، ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدو ، فاجتمع باشبيلية منهم ومن أصناف التجارين والنشارين الفعلة لأصناف البناء أعداد ، من كل صنف صنّاع مهرة في كل فن من الأعمال أفراد وكان الذي دعا أمير المؤمنين لبنائه ما خصصه الله به من الدين والورع ، وأن يخص اشبيلية بالتمصير والتسكين بأشرف مرأى ومسمع ، وإن كان قد قطنها في مصيف

ومريع ، وكان الموحدون الفاتحون لها قد اتخذوا في قصبتهم بداخل اشبيلية جامعاً صغيراً لصلاتهم في أيامهم وجمعهم ، فضاقت عند استيطانهم عنهم لتناسلهم وترادف وفود الموحدين إليهم بالعساكر ، وكان أيضاً جامع مدينة اشبيلية المعروفة بجامع العذّس قد ضاقت باهلها ، فيصلون في رحابه وافنيته ، وفي جوانب الاسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة ، فرمما فسدت صلاتهم ، ولم تمتد قط فيما سلف من الأمانة هم ملوكهم وأمرائهم في السيّرات إلى توسعته والزّيادة فيه ، للذي كانوا عليه عاكفين من تهالكهم في الإمارة وهويهم في ضلال الفتنة بينهم ، وإهمال المسلمين بغير حماية ، لعمارة في دار قراره إلى أن جمع الله تعالى الإسلام بهذا الأمر العزيز بالتوحيد بعد فترة ، وبهذا الخليفة الامام أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم الذي سمت به الخلافة ، وأنافت به المعالم والديانة أعظم إنافة ووصل لنصر جزيرة الأندلس بعساكره المنصورة ، فحاز الدخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس فأسس من الماء بالأجر والجبار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض ، وجمع الفعلة بكثرة الرجال ، والحدام وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدو ، بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته وصقل صفحته بالآتقان لشبيده وتوثيقته ، وأنفذ أمره العالي ببناؤه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة ، لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السّنين مدة إقامته بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف ، وجاء في أبهى المنظر الشريف ، وأعجز في بناؤه من تقدمه ، وبقي في ميزانه ذخيرة رحمة له [332] مقدّمة ، قارب به جامع قرطبة في السّعة ، وليس في الأندلس جامع على قدره وسعته ، وعدد بلاطاته ... وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسه ، وصاحب تقييد الإنفاق أبو داود يلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال ، ومن الحفاز على هذا البناء من أهل إشبيلية أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الينافي ، ثم شركهم في النظر عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد العنسي الغرناطي فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة ، فعزل وعزلوا واستبدلوا ، ورجع النظر إلى أبي داود

واستبد به مع خاصته تحت أمره ابراهيم الدباغ مع مشاركة ابن زهر المذكور ، وكانت سُرَب المدينة تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع فنكبت عنه ، وأخرجت بطريقها منه وصرفت إلى جهة الجوف منه على أوسع مجرى وأوثق مَسْرَى على سَرَب واسع وعمل بأعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض جارٍ إلى الوادي تحت الأرض قاطع.

واهتبل العرفاء واستعرفوا ، وتحققوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال ، في العمل بصنعة الجبس والاقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال ، وأقبوا يسار المحراب ساباطاً في الحائط يمشي في سعة فيه الماشي معداً لخروج الخليفة عليه من القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة ينذر منه المنذر على بابه الخاص الرفيع ، وعلى يمين المحراب إقباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند اخراجه للخطبة وادخاله فيه ، وصنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، اتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك ، من غريب العمل ، وعجيب الشكل والمثل ، مرصعاً بالصنل ، مجزعاً بالعاج والأبنوس ، يتلألاً كالجمر بالشعل ، ويصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال في عمله من الذهب الابرز يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً ، ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب مختصرة من قضبه ، وثيقة لحجبه ، وكان الخليفة يتطلع بناءه في أكثر الأيام بنفسه ، فيصل لرؤيته ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص ، مع أعلام إخوته وأشياخ مملكته ، ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته ، ويشير لهم بالجد في البناء ، والوثاقة فيه والاستعلاء ، والعكوف بعمل الأمانة والديانة وترك الأهواء ، ويعطيهم البركات ، ويعددهم على ذلك العمل بالصَّلَات ، حتى انكملت جهاته الأربع بالبناء ، وعقد الأقواس منه بالاقباء ، وكمل التسقيف ، ثم حان انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى حضرته مراكش في الرابع عشر [334] من شهر شعبان المبارك من عام أحد وسبعين وخمس مائة ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصباغ إلى مواطنهم ، فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً قمرياً وتحرك أمير المؤمنين إلى حركته المذكورة.

قال المؤلف : وفي المثل « الحديث شجون » ولما ذكرت بناء هذا الجامع الكبير اندرج مع ذكره جامع إشبيلية المعروف بجامع عدبُس عند أهل إشبيلية فدامت الخطبة فيه على ما كانت في مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بالاندلس إلى ما أذكره.

ذكر الامر بالخطبة يوم الجمعة في الجامع الجديد الكبير بالقصبة وانتقال

الخطبة من الجامع المنسوب لعمر بن عدبس بإشبيلية.

قال المؤلف ولما انصرف السيد الوالي على إشبيلية : أبو اسحاق ابراهيم بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم من زيارة أبيه من حضرة مراكش الى إشبيلية يوم السبت الثامن عشر من ذي الحجة ، بموافقة الرابع والعشرين من أبريل العجمي ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة أنفذ أمر أبيه الذي أمرَ به من الزام الناس حضوره صلاة الجمعة والخطبة في الجامع المذكور ، فكانت أول خطبة خطب فيها على منبره الرفيع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة ، والموفي ثلاثين من ابريل العجمي المؤرخ ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة ، وكان أول خطيب فيه السيد المذكور وأقام الصلاة للناس فيه أبنا القاسم عبد الرحمن بن عفير اللبلي أحد خدام السيد الناسخين له كتبه ، وارتفعت في هذا اليوم الخطبة والجمعة من جامع عمر بن عدبُس المذكور بإشبيلية وأزيل منبره من موضعه ونُحِّي إلى جانب الحائط الغربي من الجامع المذكور. وكانت المقصورة أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك ، وفرت في بلاطات السقائف الجوفية والشرقية ، وذلك يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان سنة سبعين وخمسائة ، وكان القاضي عمر بن عدبُس قد ابتناه عام أربعة عشر ومشتين للهجرة. والحديث شجون يوجب ادخال ماتقدم مع ما تأخر : ووجد الناس في السارية في البلاط الثاني من جهة الشرق المقابل لمحراب الجامع : جامع ابن عدبُس مكتوباً في السارية المذكورة بخط قديم : يرحم الله الامام عبد الرحمن بن الحكم الامير العدل المهدي الامر ببناء^٥

هذا المسجد على يدي عمر بن عبدس [336] قاضي اشبيلية سنة أربع عشر ومائتين. وكتب عبد البر بن هرون. ووصل الأمر أمير المؤمنين أبي يوسف بقراءة سورة اذا جاءك المنافقون في الركعة الثانية من صلاة الجمعة. فصلى بها الخطيب يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الاول عام احدى وتسعين مائة.

ذكر بناء صومعة هذا الجامع

قال المؤلف : وهذه الصومعة الفايت وصفها للناطقين ، السابق حديثها إلى المخبرين لا صومعة تعدها في جميع مساجد الأندلس : سمو شخص ورسو أصل ، ووثاقة عمل ، وبنيان بالآجر ، وغراية صنعة ، وبدائع ظاهرة ، قد ارتفعت في الجو ، وعلت في السماء ، تظهر للعين على مرحلة من اشبيلية مع كواكب الجوزاء أمر ببنائها أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عند وصوله إلى اشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثالث عشر من صفر من عام ثمانين وخمسائة. ونزل خارج اشبيلية في البحيرة بمجشر ميلين. فعندما تحرك من اشبيلية إلى الغزوة المذكورة أمر عاملة أبا داود يلول بن جلداسن أن يشتغل مدة مغيبه في الغزوة ببناء سور حصين على قصبة اشبيلية يمر من مبدأ بنائه [337] أمام رجة ابن خلدون داخل اشبيلية وبناء صومعة للجامع تكون في اتصال السور مع الجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للقطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع إلى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل فابتدأ أبو داود بهدم الديار وحفر أساس السور أمام الرجة المذكورة فلم ترم الحال الا نحو شهر ونصف وتوفي أبو داود ، ثم توفي اثر ذلك الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في الغزوة المذكورة على حسب ما اشرحه رضي الله عنه ، فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف باشبيلية بعده أعرض عن بناء سور للقصبة وأمر العامل الذي ولي باشبيلية عوضاً من أبي داود : محمد بن أبي مروان الغرناطي ببناء الصومعة المذكورة وامضاء أمر أبيه في بنائها والجهد في عملها ، وقد كان العريف أحمد بن باسة فتح أساسها لصق الجامع فوافق فيه بئراً معينة

الماء فردمها بالأحجار والجيار ، ويلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور. ونظر في تقييد الاتفاق على بنائها العامل المشرف محمد بن سعيد المذكور. فابتدأ بناءها فبنائها العريف بالحجر المسمى بالطجون العادي المنقول من سور قصر ابن عباد ! وصنعها بغير ادراج ، انما يصعد اليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة [338] ثم عزل ابن سعيد عن العمل بإشبيلية بعد شهر ، وتعطل بناؤها إلى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين في عام أربعة وثمانين وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء ما اختل في الجامع ، فشرع فيها بعمل العريف علي الغماري بالآجر الذي هو حد من بناء الحجر المذكور ، وأصلح ما اختل في الثلاثة بلاطات في الجامع من جهة الشرق وجهة الغرب والجوف وأتقنها ، وحسن بناءها ، وعدل الجامع بالأدراج من جهة الغرب ، وسطح حواليه بالحجر الكدان ، وصنع في داخل المسقف شمسيات من زجاج وسطحه بالآجر وفي خارجه. ودام في ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً ، وسافر عن إشبيلية إلى الحضرة فيتعطل ، ثم يعود البناء في الصومعة وفيه لازم الجلوس بنفسه على البنائين في المدة التي كان يعاود فيها البناء ، فلما وصل أمير المؤمنين وهزم الله أذفونش الطاغية أهلكه الله على ما ذكرته أمر رضي الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغربية الصنعة ، العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت في منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون في إعلانها على رأيه وبلغ وطره مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسى [339] أصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ريعاً من حديد ، موثقاً هناك في تلاحك البنيان بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح وصدومات الأمطار ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته ، وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالاً كبيراً يعقوبية عملها الصانع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره ، ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهيل حتى وصلت ، ورفعت بالهندسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ووضعت في العمود وحصلت

فيه وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه ، ومحضر ابنه ولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك في يوم الاربعاء عقب ربيع الآخر ، وبموافقة التاسع عشر من مارس العجمي ، من عام وتسعين وخمس مائة ، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الابريز [340] ويشعاع رونقها ، ويتداخل الخبر مع الخير.

ذكر بنيان الاسواق حوالي الجامع المذكور وانتقالها من جانب جامع ابن عديس اليه.

أمر أمير المؤمنين أبو يوسف رضي الله عنه بتوسعة رحاب للجامع حيث يصلي الناس ان احتاجوا الى ذلك. فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من السوق المعروفة عند الناس باشبيلية بسوق المسمار قديماً ، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام اثنين وتسعين وخمس مائة وأمر بتقدير قيم الدور المهذومة والرباع التي للناس فيها ، فحضر المقدرون عن الامر العالي من أهل اشبيلية لذلك ، فممنهم من قدر بحسب ديانتهم وأمانتهم ، ومنهم من قدر بشهواته ، فامضى الأمر تقديرهم ، ودفع أمير المخزن عن الأمير القيم فيها لاصحابها على حسب ما ذكرته واتصل الهدم حتى الى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم ، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان ، وأحسن نوع في ذلك الشأن ، عجيبة غريبة في الزمان ، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع : أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلان باب الجامع الجوفي [341] منه ، فلما كملت هذه الأسواق بحوانيتها بالبناء نقلت اليها سوق العطارين وسوق التجار من البرازين وسوق المركطين والخطاطين ، وتزاحم الناس باعتبارهم في المزايدة في كرائها وغما الخراج في ذلك نمواً غالباً ، واعتباطاً متمادياً. وعمر الجامع بالصلوات الخمس فيه لزاماً ، واستبق الناس اليه ركعاً وسجراً وقياماً ، فضخم شأنه ، وعظم مكانه ، ومر أمير المؤمنين على هذه الأسواق عند انتقاله من

صلاة احدى الجمعات فسر بما رآه من عمارته ، ويدار الناس إلى طاعة الله وطاعته ، وشكر الله تعالى وحمده ، واغتبط بما بناه الله تعالى وخلده.

ابن صاحب الصلاة ، « تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ... » تحقيق د. عبد الهادي التازي ، العراق ، 1979 ، ص 509 - 523

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم الخامس



عصر بني نصر

عصر بني نصر

يدور موضوع هذه النصوص عن مملكة غرناطة خلال حكم بني نصر ، هذه المملكة التي نشأت بعد سقوط المدن الاندلسية في يد الاسبان ، فأعلنت وجودها مايقرب من ثلاثة قرون (منذ تأسيسها على يد الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر 629 هـ / 1232م إلى أن تم تسليمها إلى القشتاليين سنة 1492 / 898).

تواكبت عوامل كثيرة جعلت هذه المملكة تصمد أمام هزات كثيرة ، أهمها :

. موقعها الجغرافي وتوفرها على سلسلات جبال تُتخذُ حصونا للدفاع عن حوزتها ، كجبال البشرات ، وسيير امورينا ، وسيير انيبادا ...

. خصوبة أرضها وتنوع إنتاجها وثروتها المعدنية وماتنتاز به أرضها من كثرة العيون والأنهار ، ساعد على الرفع من اقتصادها ، فتفوق الغرناطيون في ميداني الصناعة والفلاحة وتربية المواشي وتنظيم قنوات الري واستعمال الطواحن المائية والهوائية.

أما كيفية توزيع هذه الاراضي واستغلالها فسنجد الاشارة اليه في النصوص .. التي تبرز إلى جانب ذلك واقع مملكة غرناطة السياسي الذي كان يطبعه التقلب والاضطراب ، فما إن تنعم بالاستقرار قليلا حتى تهب فتن إما داخلية أو خارجية

. داخلية : نتيجة الصراعات القائمة بين افراد اسرة بني نصر عن عرش غرناطة فجل الملوك الذين تعاقبوا على عرشها خلعوا او قتلوا من طرف إخوانهم أو أبناء أعمامهم ،

. خارجية : لأن المسيحيين كانت أطماعهم ممتدة للحصول على ماتبقى من الأندلس في قبضة المسلمين ، الذين كانوا يدفعون الجزية لموك قشتالة رغبة منهم في السلم ، في حين يرفض بعض

الملوك اعطاء الجزية فتهب الحروب بينهما.

في غمرة هذه الاحداث الداخلية والخارجية التي تنعكس آثارها على اقتصاد البلاد ترتفع أصوات ملوك غرناطة مستنجدين بملوك المغرب - بني مرين - الذين لم يكونوا يتأخرون عن بعث امدادات عسكرية ومادية اليهم ، وسنجد رسالة - ضمن النصوص الواردة - من انشاء ابن الخطيب على لسان ابي الحجاج النصري الى ابي عنان المريني ، تبرهن على ماقلنا وتمثل مدى العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وغرناطة آنذاك.

نستشف من هذه النصوص مدى ماوصلت اليه مملكة غرناطة من تقدم حضاري سواء في فن العمران أو تنظيم الحفلات الى غير ذلك من مظاهر الحضارة ولاغرو ، فغرناطة هاجر اليها جل المثقفين والفنانين واصحاب الفكر والأدب من المدن الاندلسية الاخرى الذين رفضوا العيش تحت سيطرة المسيحيين ، وبذلك أصبحت مركزا ثقافيا وحضاريا من أهم المراكز في العالم آنذاك ، وإطلالة على كتب التراجم التي ألفت في ذلك العصر ككتيبر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان لابن الاحمر والاحاطة والكتيبة الكامنة لابن الخطيب الخ ... كافية للبرهنة على ماحققته مملكة غرناطة من ازدهار ثقافي ، حيث يلاحظ القارئ أن كل ترجمة تتضمن مؤلفات عديدة لصاحبها ، خضم زاهر ، وتراث فكري يتناول شتى فروع المعرفة ، ماوصلنا منه لا يمثل الا النزر اليسير ، الذي استقيننا من بعضه هذه النصوص ، ولكنه يشكل أهمية كبرى ، خصوصا أن مؤلفات ابن الخطيب عن غرناطة تعتبر المصادر الاساسية ، يزيد من أهميتها أن مؤلفها كان وزيرا لدولة بني نصر ومعاصراً لأحداثها ، وعنها اعتمد المؤرخون المتأخرون.

أما المصادر التي انتقينها منها هذه النصوص فهي :

- 1- الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (713 - 776 / 1313 - 1374) حققه د. عنان ونشره بالقاهرة سنة 1973 - 1977 ، في اربع مجلدات الكتاب بمثابة موسوعة عن تاريخ غرناطة منذ نزلها العرب الاوائل حتى عهد الغني بالله محمد الخامس ، كما يورد المؤلف

حوالي خمسمائة ترجمة من بينها علماء وأدباء الاندلس.

2 - اللوحة البدرية في الدولة النصرية . تح محب الدين الخطيب ، ط 2 ، بيروت 1978

لنفس المؤلف ، وفيه تلخيص لاهم الاحداث السياسية في عصر بني نصر حتى عهد الغنى بالله

3 - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (لابن الخطيب) ، يتكون من ثلاثة أو أربعة

أجزاء ، الجزء الاول والرابع لازالا مفقودين ، الجزء الثاني حققه د. أحمد المختار العبادي ونشره بالقاهرة 1968 . الجزء الثالث حققته دة. السعدية فاغية ونشرته بالدار البيضاء سنة 1989 .

يتضمن الكتاب احداثا مغربية واندلسية ، ومايتعلق بالاندلس تدور أحداثه ما بين

سنتي 760 هـ 764 . أي منذ خلع الغنى بالله ولجؤه الى المغرب صحبة ابن الخطيب حتى عودتهما

الى غرناطة واسترجاع الغنى بالله للملكة ، والكتاب يصور واقع غرناطة السياسي والاقتصادي والاجتماعي خلال هذه المدة.

4 - لنفس المؤلف ربحانة الكتاب ونجعة المنتخب ، تح. د. عنان القاهرة 1980 ، جزاءن .

والكتاب يضم مجموعة كبيرة من الرسائل الدبلوماسية المتداولة بين مملكة غرناطة

وغيرها من الدول ، ولاتخفى أهمية هذه الرسائل في ابراز جوانب متعددة عن الوضع العام لمملكة غرناطة.

5 - جينة الرضى في التسليم بما قدر الله وقضى ، لابن عاصم مخطوطة الخزانة الحسنية

رقم 2648 ، يتضمن بعض الاخبار عن غرناطة .

6 - لايمكن أن نغفل تاريخ ابن خلدون ولو أنه غير أندلسي . كما تجدر الإشارة الى

مصدر متأخر اعتمد صاحبه على مؤلفات ابن الخطيب وغيرها من مصادر ضاع جلها وهو نفح

الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرئ (ت 1041 / 1631) تح. احسان عباس . بيروت

1968 ، 8 اجزاء .

بقي أن نشير الى ملاحظة وهي اختلاف هذه النصوص عن غيرها من النصوص

التاريخية من حيث أسلوبها الذي تطفئ عليه الصنعة والزخرف اللفظي ، فإبن الخطيب كان

احسن من يمثل اتجاه الصناعة في النشر ، الذي كان شائعاً في عهد بني نصر ، ومادامت كتبه هي المورد الذي لا غنى عنه لكل باحث في تاريخ غرناطة فما عليه إلا أن يتكلف عناء قراءته.

في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملك سريرها وأحكم تدبيرها (1)

قال المؤلف : هي غرناطة وأغرناطة اسم أعجمي ، مدينة كورة إلبيرة ، وتسمى سنام الأندلس . وإلبيرة . التي انتقل منها الملك إليها عام أربعمائة من الهجرة الكريمة . على نحو فرسخ وثلاث فرسخ ، ولها من الشهرة بنفسها وأعلامها ماهر معلوم .

وأغرناطة من معمور الاقليم الخامس : يبتدىء من بلاد يأجوج ، ثم يمر على خراسان ، ثم يمر بسواحل الشام ، ثم على كثير من بلاد الأندلس الى البحر المحيط الغربي . فهي قريبة من الاعتدال ، شامية في أكثر الأحوال . بينها وبين دار الملك الأول قرطبة . أعادها الله . تسعون ميلاً ، وهي منها بين شرق وقبلة ، والبحر الشامي بين غرب وقبلة على أربعة برود ، والجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات بين شرق وجوف والكنبانية بين جوف وغرب ، فهي لمكان جوار الساحل ممارة بالسك والبواكر ، طية للتجار ، ركاب للجهاد في البحر . ولمكان استقبال الجبال مقصودة بالفواكه المتأخرة اللحاق متماسكة في الجدوب معللة بالمذخرات . ولمكان استدبار الكنبانية واضطبان البراجلات بحر من بحار الحنطة ، ومعدن من معادن الحبوب المفضلة (والحرير والسكر) . ولمكان جبل الثلج شلير الشهير في جبال السفرة اطرت بها المياه وصح الهواء ، وتعددت البساتين والجنان والتف الدوح وكثرت الأعشاب الطبية والعقاقير الدوائية . ومن فضائلها أن أرضها لا تعدم زريعة ولا ريحاً أيام العام .

وفي عمالتها المعادن الجوهريّة من الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرقشيشا والازورد . ويجبالها ويطاحها الاندارسيون والسنبل والجنطيانا . وشعرائها القرمز الى غلة الحرير الذي فضلت به تجراً وقنية هذه الكورة فلا يشاركها في ذلك إلا البلاد العراقية مقصرة عنه رقة ولدونة وعتاقة .

وفحصها الأقيحُ . المشبه بالغرطة . حديث الركاب وسمر الليالي . قد دحاه الله في بسيط تخترقه الجداول والأنهار ، وتتزاحم به القرى والجنان : في أحسن الوضع وأجمل البناء ، ذرع أربعين ميلا ، تحدد الهضاب والجبال المتظامنة منه بشكل ثُلثي دائرة ، فعدت المدينة منه فيما يلي المركز مستندة الى أطوار سامية ، وهضاب عالية ، ومناظر مشرفة .

ويشتمل شكل هذه المدينة العظيمة . وما يرجع اليها من أرباضها . على جبال خمسة ، وسهل فسيح الساحة ، بعيد الأقطار ، متراكب العمارة ، لا يتخلله خراب ولا بياض على حد ما . عليه كُور النخل . قد ضم من النسم مالا يحيط به إلا من كنب الحركات وأحصى الأنفاس . إلى الجسور المحكمة ، والمساجد العتيقة ، والأسواق المنتظمة . يشق البلد النهر الشهير المسمى بهدارة آتيا من جهة الشرق ، ويجتمع بخارجها بوادي شنجل الآتي من قبليها ، فيشق الفحص الأقيح ولا يزال يعظم مدّه بما ينضاف اليه من فضول السقي ومواقع الأنهار بأحوازاها ، الى أن يمر بأشبيلية وقد صار نبلا عظيما .

ومدينة (الحمراء) دار الملك مطلة على معمرها في سمت القبلة : تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعازل المنيعه والقصور الرفيعة ، تعشي العيون ، وتبهر العقول . وتنحدر من فضول وأفياض حوائرها في سفحه جداول تسمع على البعد أمزاجها مياهها وأفياض حوائرها وبركها في سفحه جداول تسمع على البعد أمزاجها .

ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة ، والادواح الملتفة ، فيصير من ذلك خلف سياج تلوح لمجوم الشرفات البيض أثناء خضائه فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين .

وأما ما حازه السهل من جوفيه فمضى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جده من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب على خمول أثمان الحضرة بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منية . ويحيط بها

ويتصل بأذيالها من العتار الثمين الذي لا يعرف الجمام ولا يفارق الريح ما ينتهي المرجع العملي منه الى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدنا هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطةً وانتظاماً ، يرجع الى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحمام والدواجن ماثلة ، منها في حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين ، بها الجُمْل الضخمة من الرجال ، والفحول الفارهة من الحيوان للثائرة وعلاج الفلاحة ، وفي كثير منها الحصون والارحاء والمساجد. ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التي بأيدي الرعية ، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى أهلة : منها ما انبسط وتمدّن فاشترك فيه الألوّف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة تنصب في نحو خمسين منها منابر الجمعات وقُدُّ الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله. ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الأرحاء الطاخنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحي.

(1) ابن الخطيب : اللّحة البدرية ص 21

ابن الخطيب : اللّحة البدرية ص 22

فصل

فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجنات والجهات (1)

قال المؤلف رحمه الله : ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرايه ولذلك ماقلت فيه بعض الأغراض :

بلد يحف به الرياض كأنه * وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة * ومن الجسور المحكمات سواره

فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة ، إلا مالا عبرة به مقدار غلوة ، أما ما حازه السفّل من جَوْفِهِ ، فهي عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، يضيق جُذُهُ من عدا أهل الملك ، عن الوفاء بأثمانها ، منها ما يغل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غُصَّت الدكاكين بالخضر الناعمة ، والفواكه الطيبة ، الثمر المُدْخَرَة ، يختص منها بمستخلص السلطان ، المرور طوقاً على ترائب بلده ما بينهن منية ؛ منها الجنة المعروفة بفدان الميسة ، والجنة المعروفة بفدان عصام ، والجنة المعروفة بالمعروى ، والجنة المنسوية إلى قداح بن سحنون ، والجنة المنسوية لابن المؤذن ، والجنة المنسوية لابن كامل ، وجنة النخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عمران ، والجنة التي إلى نافع ، والجرف الذي ينسب إلى مقبل ، وجنة العرض ، [وجنة الحفرة] ، وجنة الجرف ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة العريف : كلها لانظير لها في الحسن والدّمانة والربيع ، وطيب التربة ، وغرقد السقيا ، والتفاف الأشجار واستنجادة الأجناس ، إلا ما يجاورها ويتخلّلها ، مما يختص بالأجاس الموقفة ، والجنات المتملكة ، وما يتصل بها بوادي سنجيل ما يقيد الطُرف ، ويعجز الوصف ، قدمك منها على الأنهار المتدافعة العُباب ، المنارة والقباب ، واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصُّقع ، ما قصرت عنه الأقطار. وهذا الوادي من محاسن هذه الحضرة ، ماؤه رقرق من ذوب

الثلج ، ومجاجة الجليد ، وممره على حصى جوهريه ، بالنبات والظلال محفوفة ، يأتي من قبلة
علام البلد إلى غربه ، فيمر بين القصور النجدية ، ذوات المناصب الرفيعة ، والأعلام المائلة .

ابن الخطيب : الاحاطة 115/1

فصل

فيمن تداول هذه المدينة

من لدن أصبحت دار إمارة باختصار واقتصار (1)

قال المؤلف : أول من سكن هذه المدينة ، سكنى استبداد ، وصيرها دار ملكه ومقر
أمره ، الحاجب ، المنصور أبو مثنى زاوى بن زيرى بن مناد لما تغلب جيش البربر ، مع أميرهم
سليمان بن الحكم على قرطبة ، واستولى على كثير من كور الأندلس ، عام ثلاثة وأربعمئة
فما بعدها ، وظهر على طوائف الأندلس ، واشتهر أمره ، وبعد صيته . ثم اجتاز البحر إلى بلد
قومه بإفريقية ، بعد أن ملك غرناطة سبع سنين ، واستخلف ابن أخيه حبوس بن ماكسن ،
وكان حازماً داهية ، فتوسع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمئة . وولى بعده حفيده
عبد الله بن بلكين بن باديس ، إلى أن خلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمئة ، وتصير أمرها إلى
أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك لمتونة عند تملكه الأندلس ، ثم إلى ولده علي بن يوسف .
وتنوب إمارتها جملة من أبناء الأمراء اللمتونيين وقرابتهم كالأمير أبي الحسن علي بن الحاج
وأخيه موسى ؛ والأمير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر بن إبراهيم ؛ والأمير أبي الطاهر قميم ؛
والأمير أبي محمد مزدلى ؛ والأمير أبي بكر بن أحمد محمد ؛ وأبي طلحة الزبير ابن عمر ؛
وعثمان بن بدر اللمتوني ؛ إلى أن انقرض أمرهم عام أربعين وخمسائة .

وتصير الأمر للموحدين ، وإلى ملكهم أبي محمد عبد المؤمن بن علي ، فتناوبها جملة

من بنيهِ وقرابته ، كالسيد أبي عثمان بن الخليفة ؛ والسيد أبي إسحاق ابن الخليفة ؛ والسيد أبي إبراهيم بن الخليفة ؛ والسيد أبي محمد بن الخليفة ؛ والسيد أبي عبد الله ؛ إلى أن انقرض منها أمر الموحدين.

وتملكها المتوكل على الله ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله محمد يوسف بن هود في عام ستة وعشرين وستمائة ، ثم لم ينشب أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي ، جي هؤلاء الأمراء الكرام. والينا ، رحم الله من درج منهم ، وأعان من خلفه ، إلى أن توفي عام أحد وسبعين وستمائة. ثم ولي الأمر بعده ولده وسميه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام ، وتوفي عام إحدى وسبعمائة. ثم ولي بعده سميهِ محمد إلى أن خلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتوفي عام أحد عشر وسبعمائة في ثالث شوال منه. ثم ولي بعده أخوه نصر بن مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله ، فأرتب أمره ، وطلب الملك اللاحق به مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج ، فغلب على الإمارة ، ثاني عشر ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة ؛ وانتقل نصر إلى وادي آش مخلوعاً ، موادعاً بها إلى أن مات عام [اثنين وعشرين] وسبعمائة. وتقادى ملك السلطان أمير المسلمين أبي الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووثب عليه بعض قرابته فقتله ، وعوجل بالقتل مع من حضر منهم. وتولى الملك بعده ولده محمد ، واستمر سلطانه إلى ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وقتل بظاهر جبل الفتح. وولى بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لباب هذا البيت ، واسطة هذا العقد ، وطراز هذه الحلية ، ثم اغتاله ممرور من أخا بيث السرقه ، قبضة الله إلى شهادته ، وجعله سبباً لسعادته ، فأكب عليه في الركعة الآخرة من ركعتي عيد الفطر ، بين يدي المحراب ، خاشعاً ، ضارعاً ، في الحال الذي أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، وضربه بخنجر مهبي للفتك به ، في مثل ذلك الوقت ، كان ، زعموا ، يحاول شخذه منذ زمان ضربة واحدة ، على الجانب الأيسر من ظهره ، في ناحية قلبه ، فقضى عليه ، وبودر به فقتل.

وولى الأمر بعده محمد ، ولده أكبر بنيه ، وأفضل ذويه ، خَلْقاً و خُلُقاً و حياءً و جوداً ،
ووقاراً و سلامة و خبريه ، ودافع دولته من لايعبأ الله به ؛ ثم تدارك الأمر سبحانه ، وقد أشفى
، ودافع وكفى ، بما يأتى في محله إن شاء الله . وهو أمير المسلمين لهذا العهد ، متع الله به ،
وأدام مدته ، وكتب سعادته ، وأطلق بالخير يده ، وجعله بمراسم الشريعة من العاملين ،
ولسلطان يوم الدين من الخائفين ، المراقبين ، بفضله .

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار . ويأتى في أثناء
التعريف برجالها كثير من تفصيل ما أجمل ، وتتميم ما بدأ ، وإيضاح ما خفى ، بحول الله
تعالى .

فصل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده ، وفرغنا من تصويره وتشكيله ، وذكر
قراه وأجناته ، وقصوره ومنتزهاته ، فنحن الآن نذكر بعضاً من سير أهله ، وأخلاقهم ، وغير
ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار ، فنقول :

أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد ، أحوال سنية ، والنحل فيهم معروفة ؛
فمذاهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتهم للأمرء محكمة ،
وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة ، وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ،
وشعورهم سود مرسل ، وقُدُورهم متوسطة معتدلة ، إلى القَصْرِ ، وألوانهم زُهر مُشرية بحمرة
وألَسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها غرب كثير ، وتغلب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم أبية في
معاني المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البرَّير والمهاجرة كثيرة ؛ ولباسهم الغالب على
طبقاتهم الفاشي بينهم ، الملف المصبوغ شتاء ، وتتفاضل أجناس البرز يتفاضل الجودة ،

والمقدار ؛ والكثبان والحريز ، والقطن ، والمرعزى ؛ والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ،
والمآزر المشقوقة صيفا ، فتبصرهم في المساجد ، أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، في
البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة.

وجندهم صنفان ، أندلسى وبربرى ؛ والاندىلى منها يقودهم رئيس من القرابة أو حضى
من شيوخ الممالك. وزيتهم في القديم شبه زي أقتالهم ، وأضدادهم ، من جيرانهم الفرنج ،
إسباغ الدروع ، وتعليق الترس ، وجفاء البيضات ، واتخاذ عراض الأسنة ، وشاعة قرايبس
السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفهم ، كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها.
ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا ، إلى الجواشن المختصرة ، والبيضات المرهفات ، والسروج
العربية ، واليلب اللطمية ، والأسل اللطيفة والبربرى منه ، يرجع إلى قبائله المرينية ،
والزناتية ، والتجانية والمغراوية والعجيسية ؛ والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس ، يرجع
أمرهم إلى رئيس ، على رؤسائهم ، وقطب لعرفائهم ، من كبار القبائل المرينية ، يمت إلى ملك
المغرب بنسب.

والعمائم تقل في زى أهل هذه الحضرة ، إلا ماشاء في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ،
والجند العربي منهم. وسلاح جمهورهم العصى الطويلة ، المشاة بعضى صفار ذوات عرى في
أواسطها ، تدفع بالأنامل عند قذفها تسمى «بالأمداس» ؛ وقسى الإفرنجية يحملون على
التدريب بها على الأيام ؛ ومبانيهم متوسطة ، وأعيادهم حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ؛ والغناء
بمدبنتهم فاش ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها ، كثيراً من الأحداث ، كالحفافين
ومثلهم.

وقوتهم الغالب ، البر الطيب ، عامة العام ، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة
والبوادي والنفلة في الفلاحة ، الذرة العذبة ، أمثل أصناف القطني الطيبة.

وفواكههم اليابسة عامة العام ، متعددة ؛ يدخرون العنب سليما من الفساد ، إلى شطر

العام ؛ إلى غير ذلك من التين ، والزبيب ، والتفاح ، والرمان ، والقسطل ، والبلوط ،
والجوز ، واللوز ، إلى غير ذلك مما لا ينفد ، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في
استعماله.

وصرفهم فضة خالصة ، وذهب إبريز طيب محفوظ ، ودرهم مربع الشكل ، من وزن
المهدي القائم بدولة الموحدين ، في الأوقية منه سبعون درهما ، يختلف الكتب فيه. فعلى
عهدنا ، في شق ، « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وفي شق آخر ، « لا غالب إلا الله ،
غرناطة ». ونصفه وهو القيروط ، في شق ، « الحمد لله رب العالمين » ؛ وفي شق ، « وما النصر
إلا من عند الله ». ونصفه وهو الرُّبُع ، في شق ، « هدى الله هو الهدى » ؛ وفي شق ، « العاقبة
للتقوى ».

ودينارهم في الأوقية منه ، ستة دنانير وثلاث دنانير ؛ وفي الدينار الواحد ثمن أوقية
 وخمس ثمن أوقية. وفي شق منه ، « قل اللهم مالك الملك بيدك الخير » ، ويستدير به قوله
تعالى « إلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ». وفي شق ، « الأمير عبد الله يوسف ،
بن أمير المسلمين أبي الحجاج ، بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر ، أيد الله
أمره ». ويستدير به ، شعاع هؤلاء الأمراء ، « لا غالب إلا الله ». ولتاريخ تمام هذا الكتاب ،
في وجهه ، « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ». ويستدير
به ، « لا غالب إلا الله ». وفي وجه ، « الأمير عبد الله الغنى بالله ، محمد بن يوسف بن
إسماعيل بن نصر ، أيد الله وأعانه ». ويستدير بريح ، « بمدينة غرناطة حرسها الله ».

وعادة أهل المدينة ، الانتقال إلى حلال العصير أوان إدراكه ، بما تشتمل عليه دورهم ،
والبروز إلى الفحوص بأولادهم ، مُعَوِّكين في ذلك على شهادتهم وأسلحتهم ، وعلى كتب
دورهم ، واتصال أمصارهم بحدود أرضه. وحليهم في القلائد ، والدمالج ، والشنوف ،
والخلاخل الذهب الخالص ، إلى هذا العهد ، في أولى الجدة ، واللحن في كثير من آلات
الرجلين ، فيمن عداهم ؛ والأحجار النفسية من الياقوت ، والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر ،

كثير من ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة ، أو أصالة معروفة موفرة.

وحريهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم بالجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام وحسن المحاور ، إلا أن الطول يندرفيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباقيات ، والتماجن في أشكال الحلي ، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها ، عين الدهر ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه ، بعزته وقدرته.

(الخبر عن منازل الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد أن

غلب على القلعة من ثغور ابن احمر) (1)

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية ، ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة. وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتد مخنقتها وأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة إثنين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبث ، وانصرف إلى بلده. وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد. ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها ، وقدم عساكره إلى العدو مع وزيره عسكر بن تاحضريت. وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته. وتلاقت الأساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في

عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضه المجاز. وأمل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصناع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار. واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاوله. وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة. وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليسرب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحياء الفعله من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغتم ذلك ، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد. وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكرأ به. وترصد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق ، وضاعت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان. وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا على البلد فبذله وخرجوا فوفى لهم. وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم مما فاتهم ، وخلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس. وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضرت عقوبة على تقصيره في المدافعة ، مع تمكنه منها بما كان لديه من العساكر. وانكفا السلطان إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله ، وإنجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

(الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين) (1)

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز ، شرع السلطان في إجازة العساكر الغزاة من المطوعة والمرتزة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدو إلى العدو. ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها ، واضطرب معسكره بفنائها ، وبدأ بمنازلتها. ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو ، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً ، وأنزلوا بهم أنواع القتال ، ونصبوا عليها الآلات. وجهاز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الرزاق لقطع المرافق عن المعسكر ، وطال ثواؤهم بمكانهم من حصار البلد ، ففئت أزودتهم وافتقدوا العلوفات ، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر. واحتشد الطاغية أمم النصرانية وظهره البرتقال صاحب أشبونة ، وغرب الأندلس ، فجاء معه في قومه. وزحف إليهم لسته أشهر من نزولهم. ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمته بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم. وأحسوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته. وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً ، وتزاحفوا ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسقاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم. ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان : عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب ، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى مالك أفريقية ، وغيرها من حظاياهن فقتلوهن واستلبوهن. وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرمو المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصادفهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم ، فأحطوا به وتقبضوا عليه ، وولى

السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وأتكر قتل النساء والولدان ، ووقف منه لمنتهى أثره ، وانكفاً راجعا إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى الجبل. ثم ركب السفين إلى سبتة في ليله ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم. وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

(1) عبد الرحمن بن خلدون : (732 - 808 / 1332 - 406) تاريخ ابن خلدون ،

المسمى ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي الشأن

الاكبر ، تع ذ خليل شحادة ، 8 ج ، بيروت 1981 ، انظر الجزء السابع ص 346

الاحداث في عهد ابي عبد الله محمد ثالث ملوك بني نصر (1)

في عام ثلاثة وسبعمائة ، نقم على قريبه الرئيس أبي الحجاج بن نصر الوالي بمدينة وادي آش. أمراً أوجب عزله عنها ، وكان مقيماً بحضرته فاتخذ [الليل] جملاً وكان أملك بأمرها ، وذاع الخبر. فاستركب الجيش ، وقد حد ماينزل في استصلايه ، وجدد الصكوك بولايته خوفاً من اشتغال الفتنة ، وقد أخذ على يديه ، وأغرى أهل المدينة بحريه ، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به ، فدهموم وعاجلوه ، فتغلبوا عليه ، وقيد إلى بابه أسيراً مصفداً ، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صبراً ، وتما فتحة كبيراً ، وأمن فتنة عظيمة. وفي شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماح النبأ العظيم ، الغريب ، من تملك سبتة وحصولها في قبضته ، وانتزاعها من يد رئيسها أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم ، الرئيس الفقيه ، ابن الإمام المحدث أبي العباس العزفي حسبما يتقرر في اسم الرئيس الفقيه أبي طالب إن بلغنا الله ذلك ، واستأصل ماكان لأهلها من الذخائر والأموال ، ونقل رؤساءها ، وهم عدة ، إلى حضرته غرناطة في غرة المحرم من العام ، فدخلوا عليه ، وقد احتفل بالملك ، واستركب في الأبهة الجند ، فلمسوا أطرافه ، واستعطفه شعراؤهم بالمنظوم من القول ، وخطباؤهم بالمنثور منه ، فطمأن روعهم وسكن جأشهم ، وأسكنهم في جواره ، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية واتفقدهم في الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختلاعه

في يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أحيط بهذا السلطان ، وأتت الحيلة عليه ، وهو مصاب بعينيه ، مقعد في كنه ، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه ، وفتكت بوزيره الفقيه أبي عبد الله بن الحكيم ، ونصبت للناس الأمير أبا الجيوش نصراً أخاه ، وكبست منزل السلطان ، فأحيط به ، وجعل الحرس [عليه] ؛ وتسومع بالكاتنة فكان البهت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلقوا بالحمرء ، يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بانتهاب دار الوزير ، وبها من مال الله مايفوت الوصف. وكان الفجع في إضاعته على المسلمين ، وإطلاق الأيدي الخبيثة عليه عظيماً ؛ وفي آخر اليوم عند الفراغ من الأمر ، دخل على السلطان المخلوع ، الشهداء عليه بخلعه ، بعد نقله من دار ملكه إلى دار أخرى ، فأملى رحمه الله ، زعموا ، وثيقة خلعه ، مع شغب الفكر ، وعظم الداهية ، وانتقل رحمه الله بعد ، إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة ، أقام به يسيراً ، ثم نقل إلى مدينة المنكب ، وكان من أمره ما يذكر إن شاء الله.

ومما يؤثر من ظرفه ؛ حدث من كان منوطاً به من خاصته ، مدة أيام إقامته بقصر نجد ، قبل خلعه قال : أرسل الله الأغربة على سقف القصر ، وكان شديد التطير والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العشر وكان من جملتها غراب ، حاد النعيب والصياح ، فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القسي ؛ فأبادوا من الغربان أمة ؛ وتخطأ الحنف ذلك الغراب الخبيث [العبقان] فلما انتقل إلى سكنى الحمرء ؛ ظهر ذلك الغراب على سقفه ؛ ثم لما أهبط مخلوعاً إلى قصر شنبيل تبعه ، وقام في بعض السقف أمامه ، فقال يخاطبه رحمه الله : يامشثوم ، يامحروم بين الغربان ، قد خلصت أمرنا ، ولم يبق لك علينا طلب ، ولا بيننا وبينك كلام أرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغل بهم ؛ قال ، فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقته ، وخفة روحه.

قال ابن عاصم عن اسباب سقوط غرناطة : (1)

« من استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا في المسلمين ثارا ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ؛ وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ؛ وتحريضهم بالكيد والخلافة بين حمايتها في الفتن المبيرة ؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة ؛ فالحرب إذ ذاك سجال ، ولله في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللمنعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال ، وروية وأرتجال.

وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، وموافقة وممانعة ، ومحاربة ومودعة ؛ ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطل الخديعة للمجاهدين ؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ؛ وأنه مهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ؛ وهو يُسرُّ حسناً في آرتغائه ، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وآبتغائه. فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال ؛ وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه ، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه ، وراجع أوليات عقله وتجربات حدسه ، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه ؛ فأنا أناشده الله ، هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتما ، وأصبح من خطب طرقهم مفتما ؛ ونظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدير في العيشة المستحسنة ؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية أربابهم وصلبانهم ، أو

(1) جنة الرضى لوجه 123

عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أخبارهم ورهبانهم ؛ فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يُشرب قلبه حب التثليث ؛ ويكون صادق اللهجة ، منصفا عند قيام الحجة ؛ فسيعترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مرّ له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط ويفعله ذا آهتبال ، وإن نسب لذلك المعنى ، فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع النبال ؛ هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ؛ وملته الغراء ، وشريعته البيضاء ؛ ودينه الخفيف القويم ، ونبيه الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ؛ فكيف نعتقد هذه المزية الكبرى ، والمنقبة الشهيرة ؛ لمن عقده التثليث ، ودينه المليث ؛ ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ؛ وملته المنسوخة ، وقضيته المنسوخة ؛ وختانه التغطيس ، وغافر ذنبه القسيس ؛ وربه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضرج بالدماء ، وسقي الخل عوض الماء ؛ وأن اليهود قد قتلته مصلوبا ، وأدركته مظلوما ، وقهرته مغلوبا ؛ وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف ؛ فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال الذرة ، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة ؛ اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين»

رسالة من السلطان النصري أبي الحجاج إلى السلطان المريني أبي عنان بقلم ابن الخطيب (1)

... أما بعد حمد الله ذي العظمة والجلال ، والإحسان والإفضال ، الذي لا يقصد إلا وجهه بالمقاصد الزاكية والأعمال ، ولا يؤمل إلا فضله في جميع الأحوال . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله خاتم الأنبياء وخيره الإرسال ، الملجأ المنيع عند اشتداد الأزمات والأحوال .. والرضا عمن له من القراية والصحابة والآل ، بدور ملته التي لا يفارقها صفات الكمال ، وأعلامها الذين سرت بهم مكارمهم مسرى الأمثال . والدعاء لمقام أخوتكم الأصيل الجلال ، سلالة الملك الطاهر الخلال ، والمجد الفسيح المجال ، بالتوفيق ، الذي يظفر من الله

بالأمان ، ويحصل به من مرضاته على الفخر البعيد المنال. فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم من الأعمال الصالحة أوفرها وأوفاهها ، وحملكم من رضوانه على أقوم المسالك وأهداها. من حمراء غرناطة حرسها الله ، ولا زايد بفضل الله سبحانه ، ثم بما عندنا من المعرفة بمجدكم الذي أقل الملك بنيانه ورفع شأنه ، إلا ما يرجى من عوائد الله الجميلة وصنائه الكفيلة ، وسننه الجزيلة ، وجانب أخوتكم موفى حقه من التعظيم الذي يجب لمجده العالي وحسبه الصميم ، وأصالته المعضود حديثها بالقديم ، المتناسق فخرها تناسق العقد النظيم. وإلى هذا أنجح الله في مرضاته أعمالكم ، وعرفكم من عوارف رضوانه ، ما يتكفل بنيل الحسنى لكم. فموجبه إليكم أن هذه الجزيرة الأندلسية ، من لدن أذن الله في افتتاحها بسيوف هذه الأمة الكريمة ورماحها ، وأطلع في آفاق القصية لهذه الأمة المحمدية ، نور صباحها ، حتى تبوأها الإسلام داراً ، وحمد فيها استقراراً ، وملاً هضابها ووهادها أنواراً ، وأوسع فيها من دعا مع الله آلهة آخر هواناً وصغاراً ، لم تزل أيدى من بها المسلمين ، بإخوانهم من أهل تلك العدو حرسها الله معقودة ، وأكفهم إلى التماس إعانتهم ممدودة وآمالهم إلى مصارختهم مصروفة ، وعلى إمدادهم موقوفة.

فهي تستروح من تلقائهم نسيم الفرج عند الشدائد ، وتلتمس منهم جميل العوائد وملوك الإسلام بتلك العدو ، قدس الله أسرارهم ، وضاعف أنوارهم ، تنافس في نصرها همهم ، وتطمح إلى إحراز الفخر بإعانتها شيمهم ، ويتراهن في ميدانها بأسهم وكرمهم ، حتى دونوا فيها المفاخر الباقية ، والأعمال الراقية ، والصنائع الشهيرة ، والوقائع الكبيرة ، يتوارث ذلك الآتي عن الذاهب ، ويقوم منها الحاضر بحق الغائب ، غضباً للدين الخفيف ، وحمية للملك الأصيل والحسب المنيف ، وغيره على الحرم ، وأنفة للخلق الكريم ، وامتناعاً لكلمة التوحيد وشفقة للقطر الغريب الوحيد ، بين البحار الزاخرة ، والأمم الكافرة والمرام البعيد . ولما صير الله ملك العدو إلى سلفكم الأرضى ، وجدد الله عليهم ملابس رضوانه وقبوله ، وجزاهم بما أسلفوه من مرضاته ومرضاة رسوله ، أنسبوا بعزائمهم الراضية [ذكر الملوك الماضية] وعمرها بمكارمهم العالية مفاخر الأمم الخالية ، وصار إلى نظهرهم جملة من بلادها مثل الجبل

ورندة ومربلة وما إلى ذلك ، حرسها الله ، ليكون محط رحال المدد ، ومستقر مايجيزونه من الفرسان والعدد. فقر جنابها ، وقوت أسبابها ، وأعدّوا لغزوهم ركاباً ، ولجأهم الأرضى باباً ، وعاملوا الله فيها على الصفقة الرابعة والأعمال الباقية الصالحة فكان من عزم السلطان المجاهد الأرضى ، جدكم الأعلى ، ماهو معلوم ، وفي صحف الفخر مرسوم ، من اقتحامه لجج البحار الطامية ، وثبج الأمواج المترامية ، وجهاد الأمم الباغية ، وقل الجيوش الطاغية ، حتى عز الإسلام بمضا حسامه ، وسعدت الملة المحمدية بسعادة أيامه. ثم سلك ولده جدكم السلطان المعظم أبو سعيد رحمه الله سبيله ، وآتبع دليله ، فجهز إلى نصرها جيوشه المنصورة وأساطيله ، وسرب إليها ماله الجم وقبيله حتى علم أعداؤها أن لها ناصراً عزيز الانتصار ، وملجأ منيع الجوار. ثم تلاه والدكم محل أبينا السلطان المعظم أبو الحسن ، فجاهد عدو الله فيها حق جهاده ، وشهد البر والبحر بصدق جلاده ، وسمح فيها بنفسه النفسية وأمواله العظيمة وأولاده ، وعامل الله على الصفقة الرابعة التي يجدها في معاده ، ولم يضل التمحيص فيها عزمه الأمضى ، ولا كف جهده الأرضى ، فاستولى على غايات الفخر وآماده ، بما هو معلوم بين عباده الله وبلاده ، وبينما نحن ننتظر من مقامكم الذي هو سلالة ذلك المجد الصراح ولباب ذلك الحسب الوضاح ، وفرع ذلك الفضل المتألق تألق الصباح ، ماعود أسلافكم من الإصرار والإسجاج ، والأعمال الكريمة الاختتام والافتتاح ، وأن تسلكوا مسلكهم في نصرها وإمداد وحماية بلادها ، وتشابروا على تخليد الفخر وإحراز مرضاة الله التي هي أنفع الذخر ، حتى ينشرح بكم صدر الإسلام ، وتربى أيامكم فيها على غيرها من الأيام ، فمثلكم من يجرى على أعراقه الكريمة جرى الجياد العتاق ، وينافس في الأعمال التي تتكفل بالثناء الخالد والعز الباقي ، إذ تعرفنا أن ملك قشتالة ، قد طمع في تلك البلاد المذكورة وكلب عليها ، وحشد قومه إليها ، وأعلق بها أطماعه ، وحرك لها أشياعه وأتباعه وإن آماله بها حائمة ، والحركة إليها في أرضه قائمة ، فإن من بها من الحماة وذوي المرتبات قد اختلت أحولهم ، بسبب ما تأخر من واجبتهم وتعذر في هذه المدة الطويلة من مرتباتهم ، فتبدد الكثير من عددهم ، وضاع ماتوفر على الأيام من أسلحتهم ، وعددهم ، واشتد الإشفاق على تلك

البلاد المسلمة أن يعالجها هذا العدد بانتهاز فرصة ، ويجرع العباد والبلاد بالله أقطع غصة ، ويهتبل الغرة في بعض معاقليها المنيع ، ومصانعها التي اعتمدتها أسلافكم بحسن الصنيعة ، ويطنى نور الله في آفاقها ، ويستبيح حماها ، واستمسكها بذلك الملك واعتلاقيها . فحاطبناكم بهذا الكتاب ، نشرح لكم أحوالها ، ونطلب من نظركم لها من يهد خلالها ، ويبسّر آمالها ، وإن ظهر لكم أن تبادروا بشيء من المال ، الذي غناؤه فيها في الوقت كبير ، وقليل ما يرد في تلك الجهة كثير تبكون به حركة العدو إليها ، وتقدمونه مدداً بين يديها ، فذلك ما لا ينكر على حسبكم الرفيع الأصالة ، الشهير الجلالة ، فلم تدخر الأموال لأهم من هذا الغرض ، ولا وضعت في أولى من هذا الواجب المفترض . وإذا تعرف العدو أن غايتكم بها موصولة ، ومكارمكم فيها مبذولة ، كذبت مساعيه ، وخاب بحول الله أمله الذي يرتجيه . وهذه البلاد الأندلسية عصمها الله ووقاها ، وحفظ بها كلمة الإسلام وأبقاها ، هي عدة لأسلافكم الكرام إلى معادهم ، ومتجر حسناتهم وركاب جهادهم ، وصحيفة أعمالهم الزكية ، ومنصة آثارهم الملوكية ، لم يزل بعزائمهم استعدادها ، ومن مكارمهم استعدادها ، وأنتم صميم ذلك المجد الذي تعودت إعانتته ونصره ، وعرفت من عوارفه ، مالا يطاق حصره ، وأولى من يحقق ظنونها ، ويشرح صدورها ، وقر عيونها . وقد وجهنا إلى جبل الفتح مدداً من الرماة ، وشرعنا في اتباعهم بجملة من الرجال الرامحة الحماة ، يقيمون لنظر من به بخلال ماتنبليج الاخبار . ويظهر ما يبرزه الليل والنهار ، وعرضنا عليكم هذا القصد ، الذي مازال سلفكم رضي الله عنه ، عليه يثابرون ، ويمزيتة على الملوك يفتخرون ، ومرضاة الله سبحانه ، بمبادرته يبتدرون ، وأنتم تعملون في ذلك إن شاء الله ما يليق ، بمجدكم الأصيل ، وحسبكم الأثيل ، حملكم الله على ما يكون لكم فيه الذكر الحميد ، والقصد السديد ، والعناية الإلهية التي لا تبديد . وهو سبحانه [يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم] ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في الثالث عشر لمحرّم من عام خمسين وسبع مائة .

(1) ابن الخطيب : ربحانة الكتاب ونجمة المنتاب ج 1 ص 359

قال ابن عاصم في خاتمة الصورة الثالثة من كتابه : (1)

كانت خزانة هذه الدار النصرية ، مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، وبتيمة من الجواهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمانية من الفيروزج ، وعلى كل واق من الدروع ، وحام من العدة ، وماض من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة ، وسلوك جمّة ، وأقراط تفضل على قرطى مارية ، نفاسة فائقة ، وحسناً رائعاً ، ومن سيوف شواذ في الإبداع ، غرائب في الإعجاب ، منسوبات الصفائح في الطبع ، خالصة الحلبي من التبر ؛ ومن دورج مقدرة السرد ، متلاحمة النسيج ، واقية للبأس في يوم الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ؛ ومن جواشن سابغة اللبسة ، ذهبية الحلية هندية الضرب ، ديباجية الثوب ؛ ومن بيضات عسجدية الطوف ، جوهريّة التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ؛ ومن مناطق لجينية الصوغ ، عرضة الشكل ، مزججة الصنع ؛ ومن درق لمطية ، مصمته المسام ، لينّة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ؛ ومن قسى ناصعة الصبغة ، هلالية الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالخواجب ، إلا آلات فاخرة ، من أتوار نحاسية ، ومناور بلورية ، وطيافير دمشقية وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيريّة ، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ؛ وكل ذلك ألهمه شواظ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف والفرقة ؛ فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقصر ديار الملوك المؤثثة النعمة عن بعضه فضلاً عن كله.

جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى لرحمة 124

حالة غرناطة

في عهد السلطان أبي سعيد البرميكو المغتصب (1)

وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر واختلال السيرة وتشغيب الحامية التي لافوقها ، فحضر مدعى وليمة الدائل بها لأول ولايته ، رجل الذبا ، فالتهم الخلا والكلأ ، وأعدم بإعدام الغلة أسباب الرخا ، وفتح أبواب البلا ، وموه لأول أمره بيت النهى عن المنكر الذي هو جرثومته العظمى ، وتصاريفه غايته القصوى ، وسمح ببعض المكوس فأعطى قليلا ثم أكدى ، ولم تمر الأيام إلا وقد عاد في قيئه وأضاف الرعايا بشؤمه وكلفهم ارتباط الأفراس بعد اغرامهم أرزاق جنده ، وإنزال دورهم بغرباء ديوانه ، وانحط في مهاوى الشمات برتبة الأمر ، وأنقض من منصب الملك فقعد للعرض وقد حشر الناس ضحى في موقف أجلس معه بسريره بعض السوق عاري الرأس ، مثلة من مثل الخلق ، غير مقصر في مخاطبة من مر به عن غاية الإفحاش والتبجح بمعرفة الهنات ، فلقد حدث صاحب شرطته ، وهو لا بأس به ، قال أطرته باجتئاب الناس الخمر في أيامه ، وتحت استداده ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لي في الملأ المشهود ، والحشيش كيف حالها ؟ قلت ماعشرت على شيء منه . فقال هيهات ، انزل إلى بيت فلان وفلان وفلان ، وعد كثيرا من الساسة والأوغاد والصفاعين ، رسم مكانهم ونسبهم نسبة الأصمى أفاذا العرب ويطونها ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفته ، وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة . قال وانصرف إلى ما ذكر فو الله ما أخطأت شيئا مما رسمه ، ولا فقدت شيئا مما ذكره لغشيانه بيوتهم واتخاظه في جملة منتابهم ، يقول فهو والله أستاذي في الشرطة ! وساعات محارلته طاغية الروم فتمرس به وأثر الحران في معتاد أغراضه لفساد ما بينه وبين عدو برشلونه وأعطاه الضمة . فعند فراغه من صلاح ذات بينهما ، فغر عليه فاه ، وشمر لمطالبتة . وحسن ما بينه وبين الملك المريني فنة الإسلام التي إليها تحيز لاغتراره بمن في اعتقاله من قرابته المغرى بهم لسان الإرجاف . فرجعت الرسل من قبله خيب اللبانات من بابه ، مودعة من نجوى المسلمين واستعداد الصالحين ما يوجب الاهتزاز ويحرك الامتعاض ، ناقلة من غريب شكله في كثرة التفاته ، وجفاف ريقه ، وعرى رأسه ، وتشمير ذراعه ، وسخافة عقله ، غرائب

تُوَسُّ بِهَا الْأَسْمَارُ وَتُوشَّحُ الْفَكَاهَاتُ.

وَأُلْحُ سُلْطَانُ قَشْتَالَةَ فِي تَسْلِيمِ السُّلْطَانِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ لِيَتَوَلَّى شِدَّ أَزْرِهِ وَبِجَهْدِهِ فِي جَبْرِ حَالِهِ ، وَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ الْمَعَاذِيرَ فَنَبَا عَنْهَا سَمْعَهُ ، وَرَفَّقَ - عَنْ غَرَضِهِ - فِي رَفْعِ السَّلَامِ عِنْدَ إِخْفَاقِ مَطْلَبِهِ ، وَلَمْ يَقْبَلِ الْعَوْضَ مِنْ ضُرُوبِ مَلَاظَفَتِهِ ، فَتَرَجَّحَ الرَّأْيُ عَلَى تَوْجِيهِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ.

وَقَدْ كَانَ الْإِسْطُولُ تَأَلَّفَ بِفَرَضَةِ الْمَجَازِ مِنْ سَبْتَةِ مَوْرِيَا بِجِهَادٍ مِنْ ظَهَرَ بِهِ مِنْ عَدُوِّ بَرْشَلُونَةَ. وَوَصَلَتْ أَسَاطِيلُ الرُّومِ الْمَسْخَرَةُ فِي غَرَضِ إِجَازَتِهِ قَدْ أَرْكَبَهَا مَلِكُ النَّصَارَى وَجُوهَ خِدَامِهِ ، فَقَعَدَ السُّلْطَانُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي قُبَّةِ الْعَرْضِ الْمُتَخَذَةِ بِجَنَّةِ الْمَصَارَةِ ، وَوَقَعَ الْبَرِيحُ بِبَرْزِ النَّاسِ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَثْيَحِ ، وَاسْتَحْضَرَتِ الْهِنُودُ وَالطُّبُولُ وَأَوْعِيَةُ الْمَالِ صَبِيحَةَ يَوْمِ السَّبْتِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَالٍ مِنْ عَامِ التَّارِيخِ.

وَاسْتَحْضَرَ السُّلْطَانُ فَصَعَدَ إِلَى الْقُبَّةِ ثُمَّ نَزَلَ وَقَدْ أَلْبَسَ خُلْعَةَ الْمَلِكِ ، وَقِيدَتْ لَهُ فَرَسٌ شَقْرَاءُ مَطْهَمَةٌ ، حَلِيهَا ذَهَبٌ بِحَتٍّ ، وَنَشَرَتْ حَوْلَهُ الْأَوَلِيَّةُ ، وَقَرَعَتْ الطُّبُولُ وَرَكِبَ السُّلْطَانُ مَشْتَبِعًا إِيَّاهُ غُلُوةً ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ وَقَدْ التَفَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ جَلَى عَنِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ لَدُنِ الْكَائِنَةِ الْوَاقِعَةِ بِهَا فِي جَمْلَةٍ كَثِيفَةٍ ، وَبَلَى مِنْ رَقَّةِ النَّاسِ وَإِجْهَاشِهِمْ وَعُلُوِّ أَصْوَاتِهِمْ بِالْإِدْعَاءِ مَا قَدَّمَ بِهِ الْعَهْدُ ، إِذْ كَانَ مَظَنَّةُ ذَلِكَ سَكُونًا وَعِفَافًا وَقَرِيبًا قَدْ ظَلَمَهُ اللَّهُ بِرَوَاقِ الرَّحْمَةِ ، وَعَظَفَ عَلَيْهِ وَشَائِجُ الْمَحَبَّةِ إِلَى كَوْنِهِ مَظْلُومُ الْعَهْدِ مُنْتَزِعُ الْحَقِّ ، فَتَبَعَتْهُ الْخَوَاطِرُ ، وَحَمَيْتْ لَهُ الْأَنْفَاسَ وَاللَّهُ يَعْرِفُهُ عَوَارِفَ عَنَائِتِهِ ، وَيَلْحَظُهُ بَعِينَ رَحْمَتِهِ. وَاسْتَدْعَى عَقَبَ انْصِرَافِهِ الْأَمِيرَ الْمُعِينِ شَجَاءً فِي نَحْرِ عَدُوِّ الدَّوْلَةِ الْمَرِينِيَّةِ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ أَبُو زِيَانٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى بْنِ يَغْمَرَا بْنِ ابْنِ زِيَانٍ ، فَأَجْرَى عَلَى الرَّسْمِ مِنَ الْهِنُودِ وَالطُّبُولِ وَالْخُلْعِ وَأَتْبَعَ مِنَ الْبَابِ السُّلْطَانِي مِنْ قَبِيلِهِ ، فَاضْطَرَبَ الْمَحَلَّةُ بِخَوْلَانٍ مِنْ وَشَطٍ وَوَادِي سَبْرٍ ، وَرَفَلَ الْمَلِكُ الْمَرِينِيُّ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَغْرَفِ فِي حَلَةٍ عَزَّ تَنْدَى جِدَّةً وَفَخْرًا مَذْخُورًا لِيَوْمِهِ طَارَ شَهْرَةٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَوَّلُ فِي تَمَامِ النِّعَمِ وَتَحْسِينِ الْعَوَاقِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

(1) ابن الخطيب : نفاضة الجراب 2 / 183

احتفال الغنى بالله بالمولد النبوي (1)

لعام 764 هـ / 1363 م

وفي شهر ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبعمائة استدعى السلطان الناس إلى بنيته الضخمة ، سمر الركاب ، وحديث الرفاق ، وحجة الهمة ، وفذلكة الحسن ، التي ابتدعها الحين ولايته الثانية ، هذه المنقذه من البأساء ، الفاتحة بالقبول أبواب السماء ، واتخذها مجلسا عاما ، وإيوانا للمشورة جامعا ، فأغرى بها نفس الملك ، وخاطر التهم وأطاع داعي التوسع ، وتجاوز الغايات ، إذ عمد إلى المشور القديم أثر سلفه ، فصيره دكا ، واستضاف إليه ما جاوره تبجرا ، فأقام بشرفه مجلس القعود ومنتصب سرير الإمارة ، ومفترس أريكة الملك والتحية على سرير الإمارة ، أعباء الأحوال التي تطمح إليها قدر الخلفاء جفاء ورحبا وزليجا وعمدا ونقشا وزخرفا ، ورفع مكانها عن أرض الإيوان فوق القامة ، تطل عليه منها القسى المزخرفة ، قائمة فوق عمد المرمر المخروط طولاً يعبى الخطو ، ويتعب الذرع ، تحته أدراج ثلاثة ، قد غطى كل ذلك اللبن المغشي بالزجاج الملون بين قائم وقعيد ، ومشتري ومفصول وأقلت سقف القبة العليا عمد أربع كأنا فردن من أديم الصباح ، أخذها على بدانتها الخراط ، فترك بها من الأسورة والتحايز ما يبهت العين ويذهل الفكر ، قامت على أربعها قبة سامية على سائر المسقف ، قد منطقتها بحر الزجاج ، عديم الفياصل ، "عبرة لأولي الأبصار" ودارت به المسقفات أخذة نهاية الاحتفال خشبها ، بالغة أقصى المبالغ سموكها ، تناظر منها مسقفان ضخمان قبلة وجوفا ، قد برزا في الشكل الخمس وتفننت فيهما الصنائع ، وتعددت الأشكال والفحوص ، ولطفت النقوش ، وتناسبت الأصباغ ، وماج بحر الزليج في جميع حيطانها ، يعلو محصور خواتمه طرة نقش بها منظوم يجمع فصول السياسة قد علت حروفه ورق الذهب الإبريز ، وتراكم خلالها سحق اللازورد وغشيت الأبواب المفضية إلى دهليز القصر والدورة النسوبة لخزانة الطيب ومدخل القبة المعينة للجمهور وقبة خزانة العطاء على ضخامة الألواح وعراضة المصاريع بالصنغ المصقول المخطوط ، صنائع يفصل بين حدودها قضيب الشبه المموه بالنضار ومسماره ،

وامتد بين يدي هذه القبة منخفضا تلثي القامة الدار القوراء المخصوصة بإسم المشور الخاص ،
إيوان فخم تسير فيه العين ، حيث البساطة والسذاجة ، والانفساح والضياء ، يقابل مدخلها
القبة الموصوفة مفضيا إلى المشور الثاني ، وقد حف بهذا الإيوان المسقف الطويل المذكور بلاط
أبي الوليد القائم على عمد المرمر المخروط ، مائلة كأعناق الغيد ، تقل من تيجان القسي كل
بديع ، وفي المسقف عن يسار الداخل البهو المطل على البلد ، المحدث إلى ماوراء من مراصد
البيات وحدود الثغور ، المصغي سمع محتله إلى أهزاز المياه المنحدرة عن فيوض برك القلعة ،
ولغط الخلق كدوي الدبر في بيوتهم دورها ، وبهذا البهو كان مشول السلطان يوم الكائنة ،
فاختص هذا المكان بمزية الظهور ، وخصوصية الطائفة ، وأفرغ عليه لقب النصر ، ومثل بوسط
هذا القصر الفسح الأقطار الصهرج الغريب الشكل ، المقطرة أضلاعه قطعا من دوائر ، تصب
فيه ميازيب الخصاص الرحبية ، المربية أقطارها على القامة الإنسانية ، وأسود النحاس من
الموهة الموهمة إحكاما وأجراما أشبال الحيوان تناسب عن العباب المتدراك ، ويفضي المدخل
إلى المشور الثاني المنحط عن شكل الأول وذرعه ، المشتمل على السقائف والميضات ، ومقاعد
الكتبة وقبة العرض ، واستجلاء الرقاع ، ومباشرة المتظلمين ، والمشول لتحية العامة ، المفضي
بأبه إلى الطريق المجاور إلى المسجد العتيق ، خلف الزخرف أثر السلطان أبي الوليد رحمه الله
عليه.

فأقام ليلتئذ بهذا المصنع ، المنقطع القرين في معمور الأرض على حياله من توسط
الإحكام إياه بنية المولد الكريم ولما يكمل أوله فضلا عن تاليه ، فرفع وسطه بالهندام الهائل ،
المسخر في مهرة الملاحين ورؤساء البحرين ، متناء الأصل عن الذؤابة ، بعيد مهوى الورقة
الساقطة ، ممتازا بحسن الشكل ، ساميا في الجر كالصعدة إملاسا واستقامة ، ولم يرض بعده
في الهواء حتى أضيف إليه مثله لاءم بينهما الإحكام شدا ودسرا ، ورفع بأعلاه السقف المرفوع
و"الظل المدود" ، الحباء الشهير النسوب اتخاذه لهمم السلف من هذا البيت ، يسع كنه ، وتعم
طنبه الجمع المشهود ، واللفيف المحشود ، والبيض والسود ، المحملة أجزاؤه الظهور الغزيرة من

دواب البحر ، المؤلف بعضها إلى البعض بعري الحديد التي لا تنتهي القدر البشرية إلى ماوراءه ، الجامع من الرقوم والأوراق والأصباغ ما لا تتعاطاه البطاح إذا حلت أوكيتها السحاب الدكن ، وحت عليها الغمام الوطف ، ولا الرياض حلاها الحزن ودبجها المزن ، ومن الجدل الفارة ثعابينها إلى أقاصي المطارح وغايات المراسي والمساحب كل قوي متين ، وثعبان مبین ، ومن الجلود المخروزة بخيوط الحرير واللجين على الأشكال المتعددة ، الطاعن في نحر الجو بالجامور الهائل والتاج الفخم ، المتعدد القسي والتفافيح والتفاريع ، المرسل الهيدب ، الفلكي النطاق ، الأقعي الذيل ، المتناسب الأكر ، المغير ذائب المآذن الشهيرة ، وصواری المراكب مدن البحار الزاخرة ، فعلت أذياله سماء الإيوان على تباعد أقطاره ، فجاء عبرة الأبصار ، وخبرا باقيا على الأعصار ، وعم أرض القبة العليا بالفرش الرفيعة ، قد علتها أريكة الملك ، لابسة زي التجلة ، موثرة شعار الوقار بياضا وخصوصية ، وجللت أرض المشور جمعاء الحصر النظيفة والأنظار العجيبة ، ولزقت بحيطانه منها الأستار البديعة اللطيفة ، ودارت بالبركة الصخرية من حسك البلور والشبه ما تقصر عنه ديار الملك وخزائن الخلائف ، وتخللت الساحة العريضة أجرام المنار الرحيبة الأقطار السامية العمدة ، الفيلية الأرجل ، المتعددة الأقراط ، أشجار عادية ، وأجرام نحاسية عكف الصنّاع على إيلاف أعضائها أياما ، فجاءت موثرة للبهت ، مبلدة للفكر ، وأجرام من الحسك بين الشكل الأقور والمخروط ، مقاعد للشمع ومنابر لجذوع الموم ، إلا مالا يحصى من الأنوار والمشاكي وأوعية المشاعل وجلال الشمع وخشاشه ، بحسب الأماكن والشوكات والتفاريع ، وانطلقت على تلك العمدة الشمعية وجذوع بناء النخل أيدي سدنة بيوت الله عند غروب القرص ، فأشعلت ذوائبها بالنار ، فأزهر الدوح الأشب ، وراق المرأى المعجب.

ولما اجتمع الناس ، وماج من دون الأبواب البحر ، وكاد يرديهم على انفساح المدى الضفط ، برز السلطان في خاصته فاقتعده أريكة الملك مغريا بتلك الأوضاع حسن نظره ، ومتخير ترتيبه ، ثم أذن للناس على طبقاتهم ، فاستقروا عن تزامم وتدافع وعلاج أنسأهم

مضضه التعجب من هول ما أفضوا إليه ، يغشون كرسي الملك مطرين ومحيين ، فيسبهم بشره ، ويشملهم بالجميل وحسن المقارضة رده ، ويبهت أبصارهم شكله ، ويهرهم رواؤه لمكان تاج العمة التي أصار إليها زي الملك بالأندلس ، وكان غفلا منها قبله ، ونباهة الجلسة التي عينتها همته ثم أقيمت الصلاة جامعة ، وعند الفراغ أحكم الخدمة والعرفاء ونبهاء المماليك ترتيب الناس ، فكان يحل الغرفة من مجلس السلطان شيوخ القبائل ، والأشراف بنو القواطم ، ونسباء الملوك ، وأهل العلم ، وبين يديه الصوفية والفقراء فيما انخفض بين يدي جلسته من المشور الخاص وهم لهذا العهد كثير عددهم من المتسببه والمتجردين ، وأرباب الخرق المسافرين ، والأعجام الواردين ، ويتلوهم التجار وقد جمع هذا العهد منهم المئين فيهم العدد من المشاركة والتونسيين وغص المشهد الرحب بسائر الطبقات ، وعيون الرعية قد ألبسوا أثواب الزينة ، واختالوا في فاخر الكسوة ، ثم كان الرسم من الشروع في ذكر الله ، والإنصاب أعشار القرآن وبالغ الوعظ ، ثم اندفاع الأغاني وزفير اليراع الأجوف ، وطاف على الناس النبهاء من وجوه الخدام والمماليك الروقة قد تمنطقوا فوق الأقبية الديباجية ، وبرزوا في زي الانشمار ، على رؤوسهم أفلاك الموائد الخشبية الفسيحة الأقطار ، المتلاعبة بالأفكار ، في مجال الاعتبار ، بما تنتهي إليه أجرام الأشجار ، ماثلة في حلل الرقوم البديعة ، والنقوش الغربية ، بعد تعميم الناس بالوضوء في الأواني الكريمة السنع الممهاة الصقل ، الموهمة سحانها مرأى الذهب البهت ، قد أقلت جواربها المنشآت وأجواؤها الخرقه من أصناف الطعام ماشكت جوده مسارح البهم وبيادر الدواجن ودنان الدهن وقناني المرى وأوعية الخلل ومخازن العبير والتابل وكور النحل ، قد تفنن فيها العلاج شيا وقلوا وتكبيبا وحشوا في مصران الحوايا وتحميمصا وتربيبا باللبوب والبزور ، وحلوى وجوارشات ، ودارت فوقها من قرص خبز الحواى بدور لم يشنها المحاق ، وطرق تنهادها الرفاق ، تعد ذلك حتى ذلك إذا أعيا العد وحير الفكر ، وأوجب البهت بذى العلية المستاثرة بالدنو من الأريكة فثملوا من نخب ذلك المطعوم ، ثم تلاهم التجار والغرباء تحفيا وسروا وإيثارا واعراقا في نسب المروة ، ثم استتبع جميع الأصناف ، ثم نقر عن الزوايا والليات والمنعرجات والدهاليز والمراصد والأبواب ، فعم البر ، وشمل الرزق ، ولم يكذ

المدى يبعد حتى أطل ركاب تال يحمل من موائد اللطف والفواكه اللبيسة المزاج عجمها ونواها وأعالي قشورها والكعك البديع والتفاح الحلو في أوعية وأطباق خشبية رومية ، مما يطرف بها تجار "جنوة" وما يصاقبها من الجزائر الروميات ، ملبسة بالورق الذهبية ، مرصعة بالزجاج المرسوم فيه صور الحيوان والأشجار ، عبرة للأبصار ، قد تراكم بها الفاند الرفيع الذي قصر عنه قريع الطبرزدن محشو باللباب ، وموحى إليه بقوى الأفارقة الهندية ، والهاضومات الطبية. وعند انصرام الظلام والفراغ من الصلاة طلعت مع الصباح هودج الجفان الجوف أخذان التذهيب والتمويه ، مشتملة على البحر من طعام الثرد وغذاء الریق ، فكان الحال في طعام هذا المدعى وأوانيه منقطعة على المثل ، مغربة في بعد الشأو.

وتقدم السلطان بثقوب فهمه ، ولطف حسه ، وأصيل إدراكه ، وصحة خياله ، إلى اتخاذ آلة تخبر بمضى ساعات الليل ، فأنشئ ليلتئذ بإشارته مكنان غريب خشبي أجوف ، في مثل القامة ، صير منه شكل الاستدارة إلى ذي جهات اثنتي عشر ، في أعلى كل جهة منها محراب ، قد شمل الجميع الصبغ والتزيين واستقل برأس الشكل شمعة موقدة ، قسم جرمها أجزاء بانقسام ساعات الليل ، وأخرج من عند كل خط يقسم جسدها ، ويعين الساعة فيها سبب من الكتان يتصل برأس غلق المحراب الظاهر فيمنعه من الهوى والنزول ، وفوق محذب المحراب خرت محكم يقضي إلى شكل سدى يعترض مجراه قائم من الحديد مثبت في رأس الغلق الذي يسد المحراب ، وخلفة كرة من النحاس بندقية الشكل ، يمنعها ذلك القائم المعترض للمجرى من الإنحدار ، وخلف الغلق شكل يهدي رقعة منظومة تعرف بمضي الجزء من الليل ، فإذا استولت النار على الشمعة ، وبلغت إلى حد الساعة ، أحرقت السبب المتصل بما ذكر فأنحدر الغلق ، وزال المانع عن سقوط الكرة فهزت واستقرت في بعض الصحن النحاسية المصونة ، المغرة بالشهرة ، وبرزت الرقعة فأوصلها القيم على ذاك المسمع فأنشدها.

أغرى التجريب بهذه الآلة ، على ما تقتضيه طبيعة نارها وفتيلها والهواء المحصورة في تجويفها ، فصح عملها ، واطرد صرقها ، وخفي قصدها ، وخف نقلها ، فكانت أخرى

حصيلاتها موقعة على نظم النداء بإذان الصبح ، من غير إخلال وعد ، ولا إخلال بوقت ، فجاءت طرازا على حلة الصنيع الفخم. وأتي ذكر ما أنشد بجرائها من المنظوم عند ذكر الإنشاد . بحول الله ..

وعند انقضاء ذلك عظم لجب الذكر ، وتجاوت به الجهات ، وأداه صدى البناء الحديثة ، وساق فيه المهرة اللقيف ، وحصل في النفوس الانفعال ، فابتذرت حياها الخشوع والتصدع من خشية الله إلى أن غلبت الموجد ، ثم كانت الإفاقة ، واغمامت عند ذلك السماء بدخان العنبر الشجري ، فظللته غمامة ، ثم سكب ماء الورد شأب غصون الأئس ، حتى قطرت السبال ، واستنقعت الأذيال ، واندفع المزمزم كما تم الترتيب ، وهو المخصوص بالمداعى الملكية ، المتميز عهدئذ بمزية الإعراب وقراءة القريض المعروف بالحميني ، موصل إلى أهل جلده بكل مطرب من الفناء ، وكلما مر بمعنى مشير للوجد لبته الصوفية والفقراء ، بين واجد ومتواجد ، يحدوهم مشيختهم فيحمى الوطيس ، ويتدارك الرقص ، ويغلب الوجد ، ويعلو الصراخ ، والمسمع يواصل القصائد المنظومة في مدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والإشادة بميلاده ، وذكر معجزاته ، ثم التخلص إلى مدح السلطان وذكر خلاله ، وإطراء تحفيه بهذه الدعوة ، جمه العد ليلتئذ ما يناهز ربع المئة مما يلد على عراقه هذا الصنع في العروبة ، ومحلله من اللسان ، وكمون البلاغة بين أطلاله ، منهم المجيد ، والمتصف بما دون ذلك شأن أولي الصنائع ومعاطي المدركات .

(1) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ج 3 ص 275 - 279

سقوط غرناطة (1)

وفي ثاني عشري جمادي الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمراق والمراق من ناحية جبل شلير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المراق ، وقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات. ثم اشتد الأمر في شهر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم ، وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهد ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقذوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة . أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة . استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورياعهم وعقارهم ، ومنهم إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات . ولا يزيدون على المغرم المعتاد ، وترفع عنهم المظالم والمغرم المحدث ، ولا يطلع نصراني للسرور ، ولا يتطلع على دور المسلمين . ولا يدخل مسجداً من مساجدهم . ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد ، ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها ، وتحديد بناء

قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوَّف بها. وأحاط خبراً بما يرومه ، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتلال في ارتحاله لبر العدو ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المربة أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له. فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش ، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء ووباء.

ثم إن النصارى نكثوا العهد. ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كَتَبُوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة. ثم تعدوا إلى أمر آخر. وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً. ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن مَنْ قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن ينتصر فينجو من الموت. وبالجملية فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة. وامتنع قوم من التنصر. واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك. وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً. إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقبض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام

سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكته الإسلام بالأندلس ، ومحيت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنبيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها للملكة في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطريرك غرناطة ابن فرج [ابن إسماعيل] بن يوسف بن نصر بن قيس ، الأنصاري ، الخزرجي ، رحمهم الله تعالى جميعاً.

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه ، متلفاً على ما خلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن ، وعهدي بذريته بفاس سنة 1027 ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(1) المتري : نفخ الطيب 4 / 524

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

القسم السادس



العصر الموريسكي
إلى غاية الهجرة الكبرى

العصر الموريسكي

يتناول هذا القسم من النصوص الفترة الحاسمة من تاريخ الاندلس الاسلامية :

ظروف وملابس سقوط غرناطة.

الهجرة الاندلسية إلى اقطار المغرب العربي وماترتب عن هذه الهجرة.

وهكذا اعطينا كنماذج الاطار النظري للهجرة من خلال ما أورده أحمد الونشريسي ،
ومختلف المبررات التي يعطيها لوجوب الهجرة.

وفي القسم الثاني شهادة لاحد الاندلسيين الذين عاينوا سقوط غرناطة ، وكيف صور
هذه النكسة.

وفي قسم آخر خصصناه لاقوال المورسكيين الذين هاجروا إلى المغرب ، حيث يصورون
مأساتهم ومالقهو بأرض العدو.

كما أوردنا مارواه ابن ابي دينار حول هذه الهجرة ، وكذا نماذج لما أحدثته هذه الهجرة
من آثار اقتصادية واجتماعية.

(أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى
ولم يهاجر ، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر)

نص رقم 1

وكتب إليّ الشيخ الفقيه المعظم الخطيب الفاضل القدوة الصالح البقية ، والجملة
الفاضلة النقية ، العدل الأَرْضَى أبو عبد الله بن قطية ، أدام الله سموه ورقيه ، بما نصه :

الحمد لله وحده. جوابكم ياسيدي رضي الله عنكم ومتع المسلمين بحياتكم في نازلة ،
وهي أن قوماً من هؤلاء الأندلسيين الذين هاجروا من الأندلس وتركوا هناك الدور والأرضين
والجنان والكرمات وغير ذلك من أنواع الأصول وبذلوا على ذلك زيادة كثيرة من ناض المال ،
وخرجوا من تحت حكم الملة الكافرة وزعموا أنهم فروا الى الله سبحانه بأديانهم وأنفسهم
وأهلهم وذرياتهم وما بقي بأيديهم أو أيدي بعضهم من الأموال ، واستقروا بحمد الله سبحانه
بدار الاسلام تحت طاعة الله ورسوله وحكم الذمة المسلمة ندموا على الهجرة بعد حصولهم بدار
الاسلام وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة وأنهم لم يجدوا بدار الاسلام التي هي
دار المغرب هذه صانها الله وحرس أوطانها ونصر سلطانها بالنسبة الى التسبب في طلب أنواع
المعاش على الجملة رفقا ولا يسراً ولا مرتفقاً ، ولا الى التصرف في الأقطار أمناً لاثقاً ،
وصرحوا في هذا المعنى بأنواع من قبيح الكلام الدال على ضعف دينهم وعدم صحة يقينهم في
معتقدهم ، وأن هجرتهم لم تكن لله ورسوله كما زعموا ، وإنما كانت لدنيا يصيبونها عاجلاً
عند وصولهم جارية على وفق أهوائهم ، فلما لم يجدوها وفق أغراضهم صرحوا بدم دار الاسلام
وشأنه ، وشتم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبه ، ويمدح دار الكفر وأهله والندم على
مفارقتهم ، وربما حفظ عن بعضهم أنه قال على جهة الانكار للهجرة الى دار الاسلام التي هي
هذا الوطن صانه الله : إلى هاهنا يهاجر من هناك ، بل من هاهنا يجب الهجرة إلى هناك ! وعن
آخر منهم أيضاً أنه قال : إن جاء صاحب قشتاله الى هذه النواحي نسير اليه فنطلب منه أن
يردنا الى هناك يعني الى دار الكفر ، وعن بعضهم أيضاً أنهم يرومون إعمال الحيلة في الرجوع
الى دار الكفر معاودة للدخول تحت الذمة الكافرة كيف أمكنهم ، فما الذي يلحقهم في ذلك

من الاثم ونقص رتبة الدين والجرحه ؟ وهل هم به مرتكبون المعصية التي كانوا فروا منها ان قنادوا على ذلك ولم يتوبوا ولم يرجعوا الى الله سبحانه منه ؟ وكيف من رجع منهم بعد الحصول في دار الاسلام الى دار الكفر والعياذ بالله ؟ هل يجب على من قامت عليه منهم بالتصريح بذلك أو بمعناه شهادة أدب ؟ أو لا حتى يتقدم اليهم فيه بالوعظ والانذار ؟ فمن تاب الى الله سبحانه ، ترك ورجي له قبول التوبة ، ومن قنادى عليه أدب ، أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم وما اختاره ؟ فمن ثبتته الله في دار الاسلام راضياً فله نيته وأجره على الله سبحانه ، ومن اختار الرجوع الى دار الكفر ومعاودة الذمة الكافرة فهو يذهب الى سخط الله ، ومن ذم دار الاسلام منهم تصريحاً أو معنى ترك وما عول عليه ؟ بينوا لنا حكم الله تعالى في ذلك كله ، وهل من شرط الهجرة ان لا يهاجر أحد الى دنيا مضمونة يصيبها عاجلاً عند وصوله جارية على وفق غرضه حيث حل بلداً من نواحي الاسلام ؟ أو ليس ذلك بشرط ؟ بل يجب عليهم الهجرة الى دار الكفر الى دار الاسلام ، الى حل أو مر أو وسع أو ضيق أو عسر أو يسر بالنسبة الى أحوال الدنيا ، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد مثلاً ، والخروج من حكم الملة الكافرة الى حكم الملة المسلمة الى ما شاء الله من حل أو مر أو ضيق عيش أو سعته ونحو ذلك من الأحوال الدنيوية ، بياناً شافياً ، مجرداً مشروحاً كافياً ، يأجركم سبحانه ، والسلام الكريم يعتمد مقامكم العلي ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجبت بما هذا نصه :

الحمد لله تعالى وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بعده .
الجواب عما سألتكم عنه ، والله سبحانه ولي التوفيق بفضل ، أن الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَفَا الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ** . أخرجه البخاري والموطأ وأبو داود والنسائي . وقد روى أشهب عن مالك : لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير الحق . قال في العارضة :

فإن قيل فإذا لم يوجد بلد إلا كذلك ؟ قلنا يختار المرء أقلها إثماً ، مثل أن يكون بلد فيه كبير وبلد فيه جور خير منه ، أو بلد فيه عدل وحرام وبلد فيه جور وحلال خير منه للمقام ، أو بلد فيه معاص في حقوق الله فهو أولى من بلد فيه معاص في مظالم العباد . وهذا الأنموذج دليل على ما رواه . وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فلان بالمدينة وفلان بمكة وفلان باليمن وفلان باليمن وفلان بالعراق وفلان بالشام امتلأت الأرض والله جوراً وظلماً انتهى . ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية لعنه الله على معاقليهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن والمال ، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع قال الله تعالى : **إِلَّا الْمُسْتَظْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَظْعِمُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ** وكان الله عفواً غفوراً . فهذا الاستضعاف المعفو عمن اتصف به غير الاستضعاف المعتذر به في أول الآية وصدرها وهو قول الظالم أنفسهم كنا مُسْتَظْعِفِينَ في الأرض ، فان الله تعالى لم يقبل قولهم في الاعتذار به ، فدل على أنهم كانوا قادرين على الهجرة من وجه ما ، وعفا عن الاستضعاف الذي لا يستطيع معه حيلة ولا يهتدى به سبيل بقوله فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وعسى من الله واجبة . فالمستضعف المعاقب في صدر الآية هو القادر من وجهه . والمستضعف المعفو عنه عجزها هو العاجز من كل وجه ، فإذا عجز المبتلى بهذه الإقامة عن الفرار بدينه ولم يستطع سبيلاً إليه ولا ظهرت له حيلة ولا قدر عليها بوجه ولا حال ، أو كان بمثابة المقعد أو المأسور أو كان مريضاً جداً أو ضعيفاً جداً فحينئذ يرجى له العفو ويصير بمثابة المكروه على التلفظ بالكفر ، ومع هذا لا بد أن تكون له نية قائمة أنه لو قدر وتمكن لهاجر وعزم صادق مستصحب أنه ظفر بمكنة وقتاً ما فيها هاجر . وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام حسباً تضمنته الآيات والأحاديث الواردة قال الله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ إِلَى قَوْلِهِ وَمَنْ يَقْتُلْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** .

وقال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلَوْنَكُمْ حَبَالاً وَدُؤاً مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. وقال تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ وَتُحَذِّكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ. وقال تعالى : وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ. وقال تعالى : بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ابْتَغُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً. الى قوله وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا. وقال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً.

وقال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ. وقال تعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ.

وقال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّيْتُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ظَالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا. وقال تعالى : تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. والظالمون أنفسهم في هذه الآية السابقة إنما هم تاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه

قوله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فظلمهم أنفسهم إنما كان بتركها وهي الإقامة مع الكفار وتكثير سوادهم وقوله توفاهم الملائكة فيه التنبيه على أن المويخ على ذلك والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة ، وأما من تاب عن ذلك وهاجر وأدركه الموت ولو بالطريق فتوفاه الملك خارجاً عنهم فيرجى قبول توبة وإن لا يموت ظالماً لنفسه ، ويدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً .

فهذه الآيات القرآنية كلها أو أكثرها ماسوى قوله ترى كثيراً منهم إلى آخرها نصوص في تحريم الموالة الكفرانية . وأما قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فما أبقت متعلقاً إلى التطرق لهذا التحريم . وكذا قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

وتكرار الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق وتيرة واحدة مؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق إليه ، فإن المعنى إذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك ، فتتعاقد هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجتماعات القطعية على هذا النهي ، فلا تجدد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالة الكفرانية مخالفاً من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحرим الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها ، ومن خالف الآن في ذلك أورام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين اليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ومسبق بالاجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله .

أحمد بن يحيى النشرسي ، المعيار المعرب ، 2 : 119 - 124

توقف المدد عن أهل غرناطة والكلام في الصلح

وما زال حال البلد يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل شهر المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة. ودخل فصل الشتاء والثلج نازل بالجبل ، وقطع الطريق من البشارة فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة ، واشتد الغلاء ، وأدرك الجوع كثيراً من الناس ، وكثر السؤال ، والعدو ساكن في بلده ومحلته ، وقد منع الفحص كله ، ومنع المسلمين من الحرث والزراعة ، وقطع الحرب في هذه المدة بين الفريقين ، فلما دخل شهر صفر من عام التاريخ اشتد الحال على الناس بالجوع وقلة الطعام وأدرك الجوع كثيراً من الناس الموسرين ، فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان ومن له نظر بغرناطة وساروا إلى أميرهم محمد بن علي فأعلموه بحال الناس وما هم عليه من ضعف وشدة الجوع وقلة الطعام ، وإن بلدهم بلد كبير لا يقوم به طعام مجلوب ، فكيف ولم يجلب إليه شيء ، وإن الطريق الذي كان يأتيهم عليه الطعام والفواكه من البشارة انقطع ، وإن أنجاد فرسانهم هلكوا وفنوا ، ومن بقي أثخن بالجراحات ، وقد امتنع عنهم الطعام والزرع والحرث ، وإن رجالهم هلكوا في تلك الملاحم ، وإخواننا المسلمون من أهل عدوة الغرب لم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا ، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً ، والمدد يأتيه من بلاده ، ونحن لا مدد لنا ، وهذا فصل الشتاء قد دخل ، ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت ، وهو قد قطع عنا الحرب ، وإن تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل ما نطلب منه ، وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع ما يلحقنا نحن من الضعف ، والقلة فلن يقبل منا ما نطلبه منه ، ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ، ولا على بلدنا فإنه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عوارتنا ، ويستعين بهم علينا. فقال الأمير محمد انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم ،

فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم ، وزعم كثير من الناس أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم وبين ملك الروم التنازل عليهم الكلام في إعطاء البلد ، إلا أنهم خافوا من العامة ، وكانوا يحتالون عليهم يلاطفونهم فحين أتوهم بما أضمرؤا عليه عفوهم من حينهم ، ولأجل ذلك قطع الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلماً مع العامة ، فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغباً فيه ، فأنعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه.

شروط الصلح

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم : يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة ، ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريد من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته ويحمله في مراكبه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين ، ومن أراد الإقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر. وكتب لهم بذلك كتاباً وأخذوا عليه عهداً ومواثيق في دينه مغلظة على أن يوفى بجميع ما شرطوه عليه.

صاحب قشتالة يدخل غرناطة

فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة ، فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته ، وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة ، فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى ، لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة و تسعين وثمانمائة أقبل ملك الروم بجيوشه حتى

قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهوناً من أهل البلد ليضمن بذلك ، فأعطوا خمسمائة رجل منهم وأتعددهم بمحلته ، فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير ، وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً الى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه ، وقدم في البلد قواداً وحكاماً ويوابين ، وما يحتاج اليه من الأمور وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والنصاري كذلك ، ولما سمع أهل البشارة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصاري أرسلوا بيعتهم الى ملك النصاري ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس فإننا لله وإنا اليه راجعون.

ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ومؤنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين اطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه وبقي الجند خارج البلد ، وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار الى محلته فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشبيدها وتحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ودار فيه ، في نصر من قومه وحشمه ، فلما اطمأن في البلد سرح لهم الجواز وأتاهم بالراكب الى الساحل ، فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصاري ، وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فيرفعهم النصاري في البحر محترمين مكرمين مؤمنين.

وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقرهم بذلك وليثبطهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على الجلوس مع النصارى.

الأمير أبي عبد الله في اندرش ثم جوازه الى العدو

ثم إن ملك الروم أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشارة فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله واتباعه ، فنزل قرية اندرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمداً إلى العدو ، فأمره بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة ، واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز ، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة الغرب ، ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله ، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون ، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ، ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الأندلس ، فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الإقامة والدجن ، ولم يجوز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال.

أكراه المسلمين على التنصر

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً الى أن نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم الفروضات ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الآذن من الصوامع ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الأرياض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم

الى التنصر وأكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين ، ولم يقدروا على الهجرة واللحق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم ناراً ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون أولادهم ويناتهم يعبدون الصليبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أثم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ، ولا على نهيبهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيالها من فجعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً انه على كل شيء قدير.

ثورة المدجنين

وقد كان بعض أهل الأندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش ويلفيق فجميع عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم ، الا أن ناساً في غربيية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه وردده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد.

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة الغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه ، ولم يطمح أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ؛ وانطفئ من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون

وينتخب المنتخبون ، فإننا لله وأنا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لأمره ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين.

(مؤلف مجهول ، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ص 125 - 131)

(تشدد الونشريسي في إلزام الأندلسيين بالهجرة بعد سقوط
غرناطة)

نصه وفتح 3.

وكتب إلي الفقيه أبو عبد الله المذكور أيضا بما نصه :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله. جوابكم ياسيدي رضي الله عنكم ومتع المسلمين بحياتكم في نازلة ، وهي رجل من أهل مريلة معروف بالفضل والدين تخلف عن الهجرة مع أهل بلده لبحث عن أخ له فقد قبل في قتال العدو بأرض الحرب ، فبحث عن خبره إلى الآن فلم يجده وأيس منه ، فأراد أن يهاجر فعرض له سبب آخر أنه لسان وعون للمسلمين الذميين حيث سكناه ولمن جاورهم أيضاً من أمثالهم بغربة الاندلس يتكلم عنهم مع حكام النصراني فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيراً منهم من ورطات عظيمة بحيث إنه يعجز عن تعاطي ذلك عنهم أكثرهم ، بل قل ما يجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر ، وبحيث إنه يلحقهم في فقدته ضرر كبير إن فقدوه. فهل يرخص له في الإقامة معهم تحت حكم الملة الكافرة لما في إقامته هناك من المصلحة لأولئك المساكين الذميين مع أنه قادر على الهجرة متى شاء ؟ أولا يرخص له إذ لا رخصة لهم أيضاً في إقامتهم هناك تجرى عليهم أحكام الكفر ، لاسيما وقد سمح لهم في الهجرة مع أن أكثرهم قادرين عليها متى أحبوا ؟ وعلى تقدير أن لو رخص له في ذلك فهل يرخص له أيضاً في الصلاة بشيابه حسب استطاعته ؟ إذ لا تخلو في الغالب عن نجاسة لكثرة مخالطته للنصارى وتصرفه بينهم ورقاده وقيامه في ديارهم في خدمة المسلمين الذميين حسبما ذكر ؟ بينوا لنا حكم الله في ذلك مأجورين مشكورين إن شاء الله تعالى والسلام الكثير يعتمد مقامكم العلي ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجبت به نصه :

الحمد لله تعالى وحده. الجواب والله تعالى ولي التوفيق بفضلله ، أن إلهنا الواحد القهار ، قد جعل الخزية والصغار ، في أعناق ملاعين الكفار ، سلاسل وأغلال يطوفون بها في الاقطار، وفي أمهات المدائن والأمصار ، إظهار لعزة الاسلام وشرف نبيه المختار. فمن حاول من المسلمين عصمهم الله ووفرهم انقلاب تلك السلاسل والأغلال في عنقه فقد حادٌ ورسوله وعرض بنفسه إلى سخط العزيز الجبار ، وحقيق أن يكبكه الله معهم في النار ، كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ فالواجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر السعي في حفظ رأس الايمان ، بالبعد والفرار عن مساكنة اعداء حبيب الرحمان ، والاعتلال لاقامة الفاضل المذكور بما عرض من غرض الترجمة بين الطاغية وأهل ذمته من الدجن العصاة لا يخلص من واجب الهجرة ولا يتوهم معارضة ماسطر في السؤال من الاوصاف الطردية لحكمها بالواجب إلا متجاهل أو جاهل معكوس الفطرة ، ليس معه من مدارك الشرع خبرة ، لأن مساكنة الكفار ، من غير أهل الذمة والصغار ، لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار ، لما تنتجه من الأدناس والاوزار ، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار.

منها أن غرض الشرع أن تكون كلمة الاسلام وشهادة الحق قائمة على ظهورها عالية على غيرها منزهة عن الازدراء بها ومن ظهور شعار الكفر عليها. ومساكنتهم تحت الذل والصغار تقتضي ولا بد أن تكون هذه الكلمة الشريفة العالية المنيفة سافلة لا عالية ومزدرى بها لا منزهة ، وحسبك بهذه المخالفة للقواعد الشرعية والاصول ومن يتحملها ويصبر عليها مدة عمره من غير ضرورة ولا أكره.

ومنها أن كمال الصلاة التي تتلو الشهادتين في الفضل والتعظيم والاعلان والظهور لا يكون ولا يتصور الى بكمال الظهور والعلو والنزاهة من الازدراء والاحتقار. وفي مساكنة الكفار ، وملابسة الفجار ، تعريضها للاضاعة والازدراء والهزاء واللعب. قال الله تعالى وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ، وحسبك بهذه المخالفة ايضاً.

ومنها إيتاء الزكاة. ولا يخفى على ذي بصيرة ، وسريرة مستنيرة ، أن إخراج الزكاة للامام ، من أركان الاسلام ، وشعائر الانام ، وحيث لا إمام فلا إخراج لعدم شرطها ، فلا زكاة لفقد مستحقها. فهذا ركن من أركان الاسلام منهذ بهذه الموالاة الكفرية ، وأما إخراجها لمن يستعين بها على المسلمين فلا يخفى أيضاً ما فيه من المناقضة للمتعبدات الشرعية كلها. منها صيام رمضان ، ولا يخفى أنه فرض على الأعيان ، وزكاة الإبدان. وهو مشروط برؤية الهلال ابتداء وانقضاء ، وفي أكثر الأحوال إنما تثبت الرؤية بالشهادة ، والشهادة لا تؤدي إلا عند الإيمنة وخلفائهم ، وحيث لا إمام لا خليفة فلا شهادة الشهر إذ ذاك مشكوك الأول والآخر في العمل الشرعي.

ومنها حج البيت ، والحج وإن كان ساقطاً عنهم لعدم الاستطاعة لأنها موكولة اليهم ، فالجهاد لإعلاء كلمة الحق ومحو الكفر من قواعد الاعمال الاسلامية ، وهو فرض على الكفاية وعند مسيس الحاجة ، ولا سيما بمواضع هذه الإقامة المستول عنها وما يجاورها ، ثم هم إما ضرورة مانعة منه على الإطلاق كالعازم على تركه من غير ضرورة ، والعازم على الترك من غير ضرورة كالتارك قصداً مختاراً ، وإما مقتحمون نقيضه بمعاونة أوليائهم على المسلمين إما بالنفوس وإما بالاموال فيصبرون حينئذ حربيين مع المشركين ، وحسبك بهذه مناقضة وضلالة.

وقد اتضح بهذا التقرير نقض صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وجهادهم وإخلالهم بأعلاء كلمة الله وشهادة الحق وإهمالهم لإجلالها ، وتعظيمها وتنزيهاها عن ازدراء الكفار ، وتلاعب الفجار. فكيف يتوقف متشرع أو يشك متورع في تحريم هذه الإقامة مع استصحابها لمخالفة جميع هذه القواعد الاسلامية الشريفة الجليلة ، مع ما ينضم اليها ويقترن بهذه المساكنة المقهورة مما لا ينفك عنها غالباً من التنقيص الدنياري وتحمل الذلة والمهانة ، وهو مع ذلك مخالف لمعهود عزة المسلمين ورفعة أقدارهم وداع إلى احتقار الدين ، واهتضامه ، وهو أمور أيضاً تصطك منها المسامح.

منها الإذلال والاحتقار والاهانة ، وقد قال عليه السلام : تَا يَتَّبِعِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، وقال : الْبِدُّ الْعَلِيَّ خَيْرٌ مِنَ الْبِدِّ السُّفْلَى.

ومنها الازدراء والاستهزاء ولا يتحملهما ذو مروءة فاضلة من غير ضرورة.

ومنها السبب والاذاية في العرض ، وربما كانت في البدن والمال. ولا يخفى مافيه من جهة السنة والمروءة.

ومنها الاستغراق في مشاهدة المنكرات ، والتعرض لملازمة النجاسات ، وأكل المحرمات والمتشابهات.

[نهى عمر بن عبد العزيز عن الإقامة بالأندلس]

ومنها ما يتوقع مخوفا في هذه الإقامة ، وهو أمور أيضاً : منها نقض العهد من الملك والتسلط على النفس والاهل والولد والمال.

وقد روي أن عمر بن عبد العزيز نهى عن الإقامة بجزيرة الأندلس مع أنها كانت في ذلك الوقت رباطاً لا يجهل فضله ، ومع ماكان المسلمون عليه من القوة والظهور ووفور العدد ، لكن مع ذلك نهى خليفة الوقت المتفق على فضله ودينه وصلاحه ونصيحته لرعيته خوف التقرير ، فكيف بمن ألقى نفسه وأهله وأولاده بأيديهم عند قوتهم وظهورهم وكثرة عددهم ووفور عُدَدِهِم اعتماداً على وفائهم بعهدهم في شريعتهم ، ونحن لا نقبل شهادتهم بالاضافة اليهم فضلاً عن قبولها بالاضافة اليها ، وكيف نعتد على زعمهم بالوفاء مع وقع من هذا التوقع ومع مايشهد له من الوقائع عند من بحث واستقرأ الأخبار في معمر الاقطار.

ومنها الخوف على النفس والاهل والولد والمال أيضاً من شرارهم وسفائهم ومغتاليهم ، هذا على فرض وفاء دهاقينهم وملكهم. وهذا أيضاً تشهد له العادة ويقر بها الوقوع.

ومنها الخوف من الفتنة في الدين. وهب أن الكبار العقلاء قد يامنونها ، فمن يؤمن

الصغار والسفهاء وضعفة النساء إذا انتدب إليهم دهاقين الأعداء وشياطينهم.

ومنها الخوف من الفتنة على الأبطاح والفروج. ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضيء من كلاب الأعداء ، وخنازيرهم البعداء ، فيغرها في نفسها ويغترها في دينها ويستولى عليها وتطاوعه ويحال بينها وبين وليها بالارتداد والفتنة في الدين ، كما عرض لكنة المعتمد بن عباد ، ومن لها من الأولاد. أعاذنا الله من البلاء ، وشماتة الأعداء.

ومنها الخوف من سريان سيرهم ولسانهم ولباسهم وعوائدهم المذمومة إلى المقيمين معهم بطول السنين ، كما عرض لأهل آبله وغيرهم ، وفقدوا اللسان العربي جملة. وإذا فقد اللسان العربي جملة فقدت متعبداته. وناهيك من قوات المتعبدات اللفظية مع كثرتها وكثرة فضلها.

ومنها الخوف من التسلط على المال بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية إلى استغراق المال واحاطة الضرائب الكفرية به في دفعة واحدة في صورة ضرورة وقتية أو في دفع. إما استناد إلى تلفيق من العذر والتأويل لاتستطاع مراجعتهم فيه ولا مناظرتهم عليه ، وإن كان في غاية من الضعف ووضوح الوهن والفساد ، فلا يقدم على ذلك خوفاً من أن يكون سبباً لتحريك دواعي الحقد وداعية لنقض العهد والتسلط على النفس والأهل والولد ، وهذا يشهد له الوقوع عند من بحث بل ربما وقع في موضع النازلة المستول عنها وفي غيره غير مرة. فقد ثبت بهذه المفاصل الواقعة والمتوقعة تحريم هذه الإقامة ، وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة ، من جهات مختلفة متعاضدة مؤدية إلى معنى واحد ، بل قد نقل الأئمة حكم هذا الأصل إلى غيره لقوته وظهوره في التحريم ، فقال امام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه : إن آية الهجرة تعطي أن كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغير فيها السنن ويعمل فيها بغير الحق فضلاً عن الخروج والفرار من بلاد الكفرة ويقاع الفجرة. ومعاذ الله أن تترك لأهل التثليث أمة فاضلة توحد ، وترضى بالمقام بين أظهر الانجاس الأرجاس وهي تعظمه وتمجده ، فلا فسحة للفاضل المذكور في اقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور ، ولا

رخصة له ولا لأصحابه فيما يصيب ثيابهم وأبدانهم من النجسات والأخباث ، إذ العفو عنها مشروط بعسر التوقي والتحرز ، ولا عسر مع اختيارهم للاقامة ، والعمل على غير استقامة. والله سبحانه أعلم ، وبه التوفيق ، وكتب مسلماً على من يقف عليه من أهل لاإله إلا الله العبد المستغفر الفقير الحقير الراغب في بركة من يقف عليه وينتهي إليه عبيد الله أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي وفقه الله.

أحمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب ، 2 : 137 - 141

في قدومنا الى بلاد المسلمين وما اتفق لنا عند خروجنا من النصارى

نصص رقم 3

اعلم . رحمك الله تعالى . أن البلاد التي على حاشية البحر من بلاد الأندلس ، وأيضا فيما لهم في بلاد المسلمين ، أن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغربا شيئا كثيرا . كل ذلك لثلا يذهب أحد أو يجوز عليهم الى بلاد المسلمين ، وهمنى كثيرا في كيفية الخروج من بينهم ، وركبت البحر في بلد يسمى شنت مربا ، وكان لي صاحب من بلدي من أهل الخير والدين ومشى معي مهاجرا الى الله وبلاد الاسلام وسبل نفسه وأهل القارب لا يشكون فينا بأننا منهم ، فقطعتنا البحر في يومين ونزلنا في بلد يسمى بالبريجة هو للنصارى وليس بينه وبين مدينة مراكش الا نحو الثلاثة أيام للماشي المتوسط ، وتعجب من المنع الذي في بيان سورها ، هو أساسه على حجر صلد ، وسقفه ثلاثة عشر ذراعا ولا يبالي بكور المدافع من اتقانه وغلظه ، حتى شاهدت ثلاثة من الفرسان بخيلهم يدفعون خيلهم جملة على السور ولا يخافون الوقوع منه ، ولما أن دخلنا سألنا القبطان : ما سبب قدومكم ؟ قلت له : وقع لنا شيء من التغيير مع أناس بيلا الاندلس وجئنا الى حرمتكم ، قال : مرحبا بكم ، قلت أحب منك أن تأذن لنا في رجوعنا الى بلادنا مهما أردنا ، قال : أذنت لكما ونزلنا عندهم واشترت حصانا من أحسن الخيل ، وصرت من فرسانهم ، وكنت أحب اشتري آخر لصاحبي ولم يتيسر . وتلك البريجة في ركن من الأرض والبحر دايرها من الجانبين ، ولا يخرج أحد من البلد حتى تتقدم الفرسان ، ويقتسمون ، ويجوزون من البحر الى البحر من الجانب الآخر البساتين مع البريجة ، وليس لاحد من النصارى أن يجوز الحد الذي تكون فيه الفرسان بحساب النوبة للحرس ولما رأيت ذلك قلنا نخرج من البريجة ونجلس بين البساتين ونستخفى فيه الى الليل ، ونذهب الى مدينة أزموور . هي للمسلمين . على ثلاثة فراسخ من البريجة ، وقلت لصاحبي اذا قدر الله علينا أن النصارى يتصلون بنا فواحد منا يستعمل نفسه أن الجن أصرعه ويخرج من فمه بحديد شيئا من الدم لعلنا ننجو . ان شاء الله . بذلك الكيد .

فخرجنا الى بين البساتين واختفيناهناك ثم ان صاحبي مشى الى بستان قريب من الموضع الذي كنا فيه وبقي هنالك الى قبل غروب الشمس بقليل ، وأنا في أشد تغيير ، والفرسان تأتي الى البلد ، ثم جاء صاحبي ، قلت له : ما السبب حتى قعدت الى هذه الساعة؟ قال : كنت أتكلم مع صاحب بستان حتى عزم على الخروج منه ، جئت من عنده ، فبينما كنت بالغيط أدبر كيف العمل اذ سمعت البواب يَزْمُرُ مَزْمَاراً له ينادي الناس قبل سد الباب ، فاشتغلت اقرا سورة (يس) و (الزمر) في زيادة. قلت لصاحبي : هذا الزمُّر هو علينا ، قال لي: اعمل حيلة الأصراع ، لان الناس جاءت الينا قلت له : لأعمل ذلك مما كان عندي من الغيط والتغيير عليه ، قال : أنا أعمل ، قلت : أفعل وأنا أتكلم عليك معهم. فأخرج شيئاً من الدم ، ورمى بنفسه في الأرض ، فخرجت الى جهت الرجال وأنا أشير اليهم أن يأتوا إلي ، فلما وصلوا قالوا " ما السبب في جلوسكم الى هذه الساعة والبواب ينادي عليكم ، أما تخاف من المسلمين أن يأخذوكم أسارى ؟ قلت في نفسي : ما نفتش الاهم ، قلت لهم : بعثت صاحبي يشتري خيارا ، ولما تعطل جئت في طلبه حتى وجدته في هذه الحالة ، ما استطعت حمله وحدي لانه يضطرب في الارض ، فوصلوا الى ناحيته ورأوه بالدم في وجهه وعنقه وهو يضطرب بيديه ، قالوا : هذا يموت وكان من الذين جاءوا صاحب البستان الذي كان معه صاحبي في الكلام ، ووصل الخبر للقبطان بأمرنا ، وظنوا وقالوا : اننا هاربون الى المسلمين ، وأمر أن ينظروا هل الحصان في الدار ؟ قالوا : هو فيه وحوائجهم أيضا ، قال : لو كان يهربان لم يتركا الحصان ، وهذا أمر نزل بهما ، والتفت جميع الناس بحضرة القبطان ، والرجال الذين كانوا عندنا قالوا : ان هذا يموت ، واتفقوا أن يمشي واحد منهم ينادي القسيس ليثبته ويستقرره من الذنوب يمشي مغفورا منه الى الجنة ، فمشى واحد وأعلم القبطان بالامر ، فجاء القسيس وهو على بعد منه يثبته ، قلت للقسيس : أظن أنه مصروع من الجن فاقرأ عليه أول ما ذكر يوحنا في الانجيل ليذهب عنه الجن ، فقرأ عليه من الانجيل ، وذهب الجن والشيطان ، وظهرت للقراءة البركة والبرهان ، وشهرت هنالك ولاية القسيس ، وضحك منه الجن مع ابليس ، وبرأ المريض في الحين ، واخذه اثنان منهم كل واحد من تحت ابطه ، وصار يمشي معهم حتى صعد على

حايط نار وهما معه ، فأطرح نفسه على واحد منهما عند هبوطه منه حتى كاد أن يوقعه.

ودخلنا البلد وجميع الناس مع القبطان وحكو له كل ما طرا ، وأن المريض بعد أن كان يموت برا ببركة ما قرا عليه القسيس ، ومشينا الى الدار وجاء من أكابرهم ينصحونني أن لا نتركه يركب الحصان ، ولا يطلع على السور لئلا يصرعه الجن ، ثم جاء الطبيب وكانت له صنائع غير الطب كثيرة ، فكان يصقل السكاكين ، ويركب الرماح ، وأظنه يخلق ، وبيطار الخيل ، فقال الحكيم : ما هذا الذي أصابه فحكينا له ، وبقي متحيرا ماذا يأمرنا به من العمل للعليل ، فقال : اجعل عليه حوايج لعله يعرق ، فشكرته على حكنته ووضعنا الحوايج عليه ، فلما أن ذهبوا جميعا ولم يسمع المريض أحد أخرج راسه من تحت الحوائج وقال : كيف حالنا ياسيدي ؟ قلت له غط رأسك ما عندما الا الخير . ان شاء الله . ، وذهب النوم عنا في الليلة كلها ويوم آخر تبين لنا أن الله تعالى لطف بنا ، وبقي المريض سالما ونحن ندبر كيف العمل لنقضي الغرض حتى نخرج من بين الكفار . قلنا : لو كان واحد منا وحده كان يمكن الهروب والخروج بأن يخفي ويهرب والحال الاثنان صعب ، وكانت سفينة عازمة على الرجوع الى بلاد الاندلس ، قلنا نرمى القرعة من يرجع منا في السفينة ، فرميناهما وجاءت في ، وكانت الناس تتكلم بنا تقول : اني كنا نريد الهروب الى بلاد المسلمين . فمشيت الى القبطان وقلت له أحب أرجع الى بلاد الاندلس في هذه السفينة ، واذا استغرضت شيئا من تلك البلاد فاعطني زماما به ابعثه اليك ، قال : وصاحبك يمشي معك : قلت له : أراد القعود هنا وأنت ترد بالك عليه ، لانه غريب . فخرجت عشية وأوجدت ما يحتاج من الطعام في السفر ، فوجدت بقرب باب قاريا صغيرا ، فقال : أركب ، فاعطيته الطعام والحوايج وقلت له إذا خرج التاجر الذي كان يمشي من البريجة نركب القارب الصغير لنببلغنا إلى السفينة الكبيرة ، فجلسنا هنالك ندعو الله تعالى أن يتعطل التاجر حتى ينسد الباب ، ثم قالوا لصاحبي : ادخل عند سد الباب قلت لهم : دعوه معي حتى يخرج التاجر ، قالوا : نعم ، يقعد ، فأظلم الليل الى أن صلينا العشاء الآخرة ، ثم دعونا الله ان يرشدنا ويسترنا من أعدائنا . قلنا : هذا وقت الخير فنذهب . ان شاء الله . الى

أزمور ، قلت لصاحبي : مظهر لك أن نصنع في ذهابنا ، قال : كيف مظهر لك ، قلت له :
يا صاحبي ، الطريق القريب هو من هنا إلى ازمور ، قلت : ومن الممكن أنا اذا شرعنا في
الطريق ربما يخرج التاجر الذي هو يمشي في السفينة ، واذا طلبوا علينا لم يجدونا ، ويتبعونا
كما هي من عادتهم ويدركوننا بالخييل ، قال : كيف العمل ؟ قلت : هذا طريق أزمور هو هذا
الشمالي على حاشية البحر ، قال : نعم ، قلت : نمشوا على حاشية البحر اليمنى الى غد - ان
شاء الله تعالى - نمشوا الى ازمور على بركة الله فمشينا ، وبعد ساعة أو اقل سمعنا مكحلة
لعلي نفيق من النوم ان كنا نائمين ، فمشينا الليل كله في بلاد الاسد الى انشقاق الفجر أخلوا
المدفع الكبير وهي علامة عندهم اذا ادخلوا ذلك أنه لا يتخلف أحد عن الخروج من البلاد .
وعلمنا أنهم ماخرجوا الا في طلبنا ، فاتفق أن ندخلا في وسط شجرة كبيرة ونجلس هنالك الى
الليل وكنا نسمع حس البارود الكثير ثم يثسوا منا وولوا خائبين ، وسبب رجوعهم أن قائد
أزمور لما سمع حس المدفع الكبير عند الصبح علم أن أحدا من النصارى هرب من عندهم فأمر
في الحين الفكاك أن يمشي الى البريجة ليتكلم مع القبطان في شأن أسير كان عنده ، ويأتي
بالخير ، فلما مشى التقى بالنصارى في الفحص . وسأله ترجمان القبطان عن نصرايين هل
رآهما ؟ قال له نعم ، هما عندنا من الصبح . فلما بلغ الخير للقبطان وهو مع جنده ، فكان
يقبض بيده شعر لحيته ، وينتفها ويرمى في الارض ، والفكاك قال لهم ذلك ليأسوا ويرجعوا
فقنظوا ، وولوا خائبين . ونحن جلسنا بين الاشجار إلى الليل وكان الحر الشديد ، ونحن
بالعطش سائرين فوجدنا عينا من ماء عذب فشرينا ، وبتنا الى الصبح ، وكنا سرنا في الليل
كثيرا قبل وجود الماء . وبعد ذلك بزمان التقينا بمراكش برجل من أولاد الولي سيدي على بن أبي
القاسم ، وسألنا عن حالنا وهروينا من البريجة الى جهة طيط . هو بلد خال كان للمسلمين .
وذكرنا له عين الماء الذي وجدناه في الليل ، فقال للناس الحاضرين : تلك البلاد نعرنها كلها
وليس فيها ماء على وجه الارض الا في الآبار الغارقة . وبعد أن تمنعنا بالماء وصلينا الصبح
مشينا في طلب أزمور وبسبب الصبح لم تر الشمس حتى كانت في وسط السماء ، ثم سرنا
نطلب على الماء ونجد آبار غارقة يابسة ، ثم استظلينا بشجرة كبيرة بعد العصر ، وسمعنا حس

البحر ، ولينا اليه لعلنا نجد ماء فلم نجد شيئا في حاشية البحر للشرب. ثم مشينا على طريق وكنت أظن أنه ماشي الى أزموور. فبعد نصف الليل بلغنا الى بساتين البريجة ، ثم جزنا وتركناهما من ورائنا ، وسرنا من البريجة ، ثم صعدنا على جبل ورأينا المسلمين يحصدون الزرع ولما قربنا منهم جاءوا الينا بأسلحتهم وخيلهم ، فلما وصلوا الينا قلنا لهم : نحن مسلمون ، فامسكوا عن الحرب ، وفرحوا بنا فرحا عظيما ، وأعطونا الخبز والطعام الذي لم نره من يوم الجمعة قبل الزوال الى يوم الاثنين عند الضحى . ثم بلغنا ال أزموور فأقبل علينا قائدها ويحثنا كثيرا في أمور دين المسلمين ، وقال لي : اكتب بالعربية في هذه الورقة ؟ قلت له : ما أكتب ؟ قال : الذي تحب ، فكتب ما لهنمني الله تعالى ، وشكرته على قضاء الحاجة وخلاصنا من الكفار ودعوت بالخير للقائد محمد بن ابراهيم السفيناني على ما أحسن الينا ، وقبض الورقة ، وأظن أنه بعثها للسلطان مولاي أحمد - رحمه الله - ، وكتب له أمره أن يمشي بحضرته في عيد الاضحى ، وأن يحملنا معه ، فلما أن بلغنا في دكالة الى سوق كبير أمر القائد بخديمه أن يركب معي الى السوق ، فلما أن دخلنا فيه جاء المسلمون يسألون الخديم عني ، قال لهم ، هو مسلم ، فجاءوني من كل جانب وهم يقولون لي : شهد ! شهد ! وأنا ساكت حتى ألحوا علي وكثروا في ذلك ، قلت : اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. قالوا : والله أنه قالها خير منا ، ثم مشوا وأتوني بتمر وغير ذلك مما كانوا يبيعونه وفضة دراهم. قلت لهم : لا أطلب منكم شيئا من ذلك ، فلما ولينا عند القايد قال لي : مظهرلك ؟ قلت : الحمد لله اذ لم ترعدوا في هذه الناس ، لان في بلاد النصرارى لم نر فيها في الاسواق الا أعداء لنا يمنعونا من الشهادتين جهرا ، والمسلمون يحرضونني عليها وفرحوا جميعا حين سمعوا مني ذلك. وقد شبعت ما صابنا من خوف النصرارى ومارأينا من التعب في الطريق الى أهوال يوم القيامة ، ووصلنا الى المسلمين للدخول في الجنة . نسأل الله العظيم أن لا يحرمنا منها وجميع المسلمين أجمعين ببركة سيدنا محمد أفضل الصلاة والتسليم .

(احمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 37 - 41)

في بلوغنا الى مدينة مراکش وما كان السبب حتى مشيت الى بلاد الفرنج

نص رقم 5

ولما أن بلغنا الى محلة السلطان مولانا أحمد ابن مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني وكان يقرب المدينة بنحو الستت أميال بسبب الوباء العظيم الذي نزل بتلك البلاد ، وكان عيد الأضحى في اليوم الآتي من بلوغنا ، وخرج السلطان في جنود - لم نطن ذلك - وعجيني حال الرماة فحزامهم هو أفضل وأحسن وأزين من حزام النصارى بكثير . وأما العرب الذين جاءوا وحضروا مع قوادهم فكانوا تسعا وعشرون ألف فارس وكذا مائة ماعدا السبيحية ، وفرسان المدينة والفراة ، والجند كثير . وبعد ذلك دخلنا مراکش ، هي مدينة كبيرة ، وفواكهها كثيرة ، وعنبها ليس في الدنيا مثله . عرضها احدى ثلاثون درجة ونصف . وطولها تسع دراج ، لانها قريبة من الجزر الخالدات المسماة الآن بقنارية ، ومنها ابتداء الطول ويعد أن دخل السلطان من المحلة وكان ذلك عام سبع وألف ، وانعم علينا ، واذن لنا في الدخول الى حضرته في يوم الديوان ، ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترته أن أقول بحضرته العلية بصوت جهير سكت جميع الناس الحاضرون كأنها خطبة . فرح السلطان وقال كيف يكون ببلاد الاندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام ، لانه كلام الفقهاء ، وفرح بذلك كافة الاندلس القدما ، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد الى أن مات مولاي أحمد . رحمه الله . في مولد النبي صلى الله عليه وسلم . من سنة اثنتي عشر وألف . وقامت القوام والهراج في المغرب كله ، ثم ثبت في المملكة مولانا زيدان ابن السلطان مولاي أحمد . رحمهما الله تعالى . وفي أيامه أمر السلطان النصراني ببلاد اشبانية . اعني بلاد الاندلس المسمى بقلب الثالث . من اسمه . باخراج جميع المسلمين من بلاده ، وابتداء ذلك كان لسنة ثمان عشرة وألف . وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف . وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء ، ودخل كثير منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر . وجاء الى مراکش أندلس منهويون من الفرنج من أربع سفن . وبعث رجل أندلسي من بلاد فرجة يطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجلا من المنهويين ويمشى بهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج ، واتفقوا انني نمشي بهم وأعطاني السلطان كتابه ، وركبنا البحر المحيط بمدينة أسف .

(احمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 43 - 44)

ولما ان دخلنا البحر سافرنا الى أن تركنا بلاد المغرب عن يميننا ، ثم عبرنا في البحر المحيط إلى جهة القطب الشمالي ، وتركنا أيضا بلاد الأندلس عن يميننا ، وبلغنا الى بلاد الفرنج الى مرسى هبردي غرسي . معنى ذلك الاسم مرسى البركة . بعد ثلاثين يوما من خروجنا ، وبتنا في السفينة بنية الخروج في البر في غد ، وتلك الليلة على طولها نرى في النوم اني كنت نتلو سورة (الاخلاص) ، وبعد أن نزلنا في البربان لي أن قرأة (قل هو الله أحد) كان لي تثبيتا على التوحيد ، والأمر من الله تعالى به اذ كنا نازلين ببلاد الشرك ، ثم مشينا الى مدينة روان ، وجاء الينا تاجر كنت عرفته في مراکش اسمه فرط ، ولطول مكتته ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غاية ، وبدا يتكلم في دين المسلمين ، ويشكر دينه . وقال : المسلمون في دينهم مباح الزنا والسرقة قلت : هذا باطل ، قال : بل صحيح لأنني سمعت علماءكم يقولون ان بعضا سأل نبيكم ، قال : المومن يزني ؟ قال له : يزني ، قال : والمومن يسرق ؟ قال : يسرق ، قال أيضا : المومن يكذب ؟ قال له : المومن مايكذب . قلت له : المون الذي مايكذب فلا يسرق ولا يزني ، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق مايساوي ربع دينار تقطع يده شرعا ، واذا زنا المحصن يرحم الى أن يموت . ثم زاد في مدح دينه الى أن قال : سيدنا عيسى . عليه السلام . كان ابن الله ، وابن انسان ، وانه مات ليخلص الذنب الأول عن سيدنا ءادآم . عليه السلام . ، قلت : أقول لك في الجواب شعرا نسبه بعض للقاض عياض ، وهو هذا :

- | | | |
|--------------------------|---|-------------------------|
| عجبا للنصارى في نبيهم | ✱ | والى أي والسد نسبوه |
| أسلموه الى اليهود وقالوا | ✱ | انهم بعد صلبه قتلوه |
| فان كان مايقولون حقا | ✱ | فاسألوهم أين كان أبوه ؟ |
| فان كان راضيا لآذاهم | ✱ | فاشكروهم لاجل ماعذبه |
| وان كان ساخطا لآذاهم | ✱ | فاعبدوهم لانهم غلبوه |

فبهت التاجر ولم يعرف مايقوله.

وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش ، وكان راهبا ثم أسلم ،
وسمي برمضان ، ثم مشى الى بلاد السودان ، ومات بها . والله أعلم . وقال لي : ان السلطان
مولاي أحمد . رحمه الله تعالى . أمر باحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى ،
فقال له ماذا تقولون في سيدنا عيسى . عليه السلام . ؟ قا : إنه أحد الثلاثة في الالهية أو
كما قال : وانه مات ليخلص العالم من الذنب الأول الذي عمله أبونا آدام . قال له السلطان :
أنا اضرب لك مثلا حتى ترى الغلط الذي أنتم عليه ، فقدّر أنني أمرت أن من يدخل في هذا
البستان الذي بدارنا السعيدة نقتله ، واتفق أن واحدا ممن علم بالمنع دخل البستان وعصاني ،
فلما صح ذلك عندي أمرت الخدام أن يأتوني بابني ، فلما أحضروه قلت لهم : اقول لأجل
دخول فلان في الجنان الذي نهيت عن الدخول فيه ، قال للراهب : هذه مسألتكم على زعمكم
أن عيسى ابن الله وقتل ، وهل يقول بمثل هذا ... من الراهب ، وبهت ولم يجد مايجاب
به ... هذا الكلام لم يبق لكم ماتقولون ، قال لي الراهب : بقي لي جواب ، قلت له : ماذا
هو ، قال لي ... فما بعد الحق الا الضلال . وقد وقع لي كلام في مدينة روان مع قاضي القضاة
بعد أن زوته ، وكان يعرف اللسان العجمي الأندلسي ، فسألني عن مسألة في ديننا لأنهم
كانوا مختلفون (كذا) فيها أعني أصحاب الباب وكان القاضي على مذهبه وبين النصارى
الذين يكفرون به ، وبكل ما يقول ماعدا التثليث ، لأنهم متفقون فيه . وذلك أنه قال لي : اذا
مات المرء هل تصل اليه حسنة من عند غيره ؟ فقلت له : قال نبينا . صلى الله عليه وسلم .
« اذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به الناس ، أو ولد
صالح يدعوه له » ففرح وانشرح لانه موافق لاعتقادهم ، والذين يكفرون بالباب من النصارى
يقولون : انه لا يصل للميت دعا ولا صدقة ولا شيء من الدنيا بعد موته . ثم قال القاضي :
أنتم التركيون تصنعون فعلا قبيحا يقتلكم جميع أولاد السلاطين إلا واحد أو اثنين ، قلت ذلك
لصلاح المسلمين ، لأن كل من هو ابن سلطان يحب مملكة أبيه ، فإذا أصاب ... والمملكة

عظيمة ومنيعة ، فيقوم معه كثير وتكون بسبب ذلك تفرق الكلمة ، وتكون الفتنة ، وقد يشاهد في النحل أمر عجيب ، وهو أنه إذا افرخ وكثر فتخرج من الجبج ، وتدخل في جبج آخر فارغا ، وعندهم فيها بين النحل سلالة سلاطين ليكون سلطانها ، وتقتل جميع من هو من ذلك الجنس ، وهذا مشاهد يعلم ذلك كل من يخالط النحل ، وهذا الهام رباني.

ففرح القاضي وأظهر صحبة ومودة ، ونفعني نفعا جيدا في الأحكام.

(أحمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 45 - 47)

وأما ما ذكرته في هذا الباب مما جريت به للامير في شأن الاسباب التي حملت لسلطان النصرارى على اخراج الاندلس من بلاده ، فنذكر هنا شيئا ، ولم نذكر في النسخ التي سبقت لهذا المختصر.

اعلم ان سلطان البلاد المسمى بقلب الثاني ، من اسمه ، اعني ممن سمي من السلاطين بقلب. وبينت هذا لاني طالعت بعض كتب التواريخ للمسلمين فيما وقع لهم من الحروب مع سلطان البلاد المسمى بالفنش ، ولم يبنوا ايهم كان ، لان ببلاد الاندلس كان فيها اكثر من اثنا عشر سلطانا من سمي بالفنش ، إلا أنهم يذكرون كل واحد بحسابه من الاسم ، مثل أن يقولوا الفنش الرابع ، أو الثامن أو العاشر. والمؤرخون المسلمون لا يذكرون درجة للاسم. وهذا قلب الثاني امر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يُزَمُّوا جميع الاندلس صغارا وكبارا ، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل. ولا علم احد السر في ذلك.

ثم بعد ذلك بنحو السبع عشر سنة عملوا زماما آخر مثل الاول . كما اعلموني بمراكش . ولم يدر احد السر في ذلك حقيقة. ولاكن قال لسان الحال انهم ارادوا يعلموا هل كانوا في زيادة أم لا ؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة امروا بقرب ذلك بإخراجهم. وكتب السلطان قلب الثالث . من اسمه . كتابا لقربيه ، وخليفته بمدينة بلنسية يامره ان يشرع في اخراج الاندلس وترجمت نسخة من البراءة للسلطان مولاي زيدان ابن السلطان مولاي احمد بمراكش. وكان تاريخ الكتاب . والله اعلم . في أول عام ثمان عشر والف من الهجرة.

قال فيه :

«مَرَكْشُ ذَا قَرَسِنَا ، قَرِينَا ، وَخَلِيفَتُنَا فِي سُلْطَنَتِنَا بِلَنَسِيَه . سلام.

قد علمت ماصنع ، وعمل مع النصارى الجدد الاندلس أهل تلك السلطنة ، وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض ، والارشاد لاثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا. ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا لانه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة. والغر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعاملنا عليهم ، قد ذكره الينا رجال وصلحاء ، وانه لزمنا اصلاح ذلك الامر ، لنرضي به الله ، ونزل غضبه من أجل هذه الامة ، وافتوا فيهم انه يجوز لنا من غير شك أن نعاقبهم في انفسهم وأموالهم ، لان الاستمرار على سوء افعالهم ختم وحكم عليهم انهم منافقون ، واعداء للمقام الالهي والانساني. وهب اننا قادر على أن نُجْزِيَهُمْ ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم وَلَوْ مَتَّيْهِمْ. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طروق الحلم واللين ، وترك المواخاة. ويسبب ذلك امرنا باجتماع المحفل الذي حضرت فيه مع العلماء والاكابر في تلك المدينة لعلني نجد سبيلا لترك اخراجهم من مملكتنا. ونحن في هذا نتحققنا ، وصح من وجوه ، انهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ، ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم ، وأنهم عندهم مائة وخمسون الف رجلا مسلمون مثل الدين ببلاد المغرب الافريقية. وايضا بعثوا لاعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب ، وأنعموا انهم يعينُهُمْ بسفونهم. وأما سلطان اصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس ، لأنه كان يشغله ، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها. وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نروُ نفوسنا في الامر الذي لا يخفى. وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا ، ودفع مايعرض لها اتفق نظرننا . بعد أن دعوت الله وامرت بالدعا طامعا ، ومتوكلا في تأييده ونصره لما يجب لمجده وفضله . على اخراج جميع الاندلس الذين هم في تلك السلطنة لانهم اقرب للغرر وللانحياز بذلك امرنا بإشهار هذا الامر وينادى به .

فأولا يعرف منه أن جميع الاندلس التي في تلك المملكة رجالا ونساء ، بأولادهم في ثلاثة أيام من شهرة هذا الامر بالبلاد التي هم ساكنون ، أن يخرجوا ويمشوا ليركبوا البحر في الموضع الذي يؤمر به ، وأن يحملوا من العروض والاثاث ما يستطيعون عليه ، ليركبوا في

السفن والاغربة التي هي موجودة لحملهم الى بلاد المغرب ، وينزلونهم من غير مضرة لاحد في النفوس والاموال ، ويعطونهم ما يحتاجون اليه من الطعام ماداموا فيها . ومن اراد أن يحمل نفسه ما يقدر عليه فليفعل . ومن يتعدى عن هذا الأمر فليقتل في الحين .

وأن كل من يوجد بعد ثلاثة أيام التي ينادى بالامر خارجا عن بلده ، يجوز لكل من لقيه ان ينهب ما عنده ، ويسلمه للحكام وان امتنع يجوز له قتله .

وأن كل من سمع النداء لا يخرج من بلده الى غيره حتى يمشي مع من يقودهم الى ركوب البحر .

وأن كل من يدفن شيئا من امتعته ان لم يستطع الرفود معه ، أو يحرق شيئا من الزرع أو الأشجار ، أن يقتل على ذلك ، وامرنا جيرانه بتنفيذ الحكم فيهم .

ولما يصلح بالبلاد في معاصر السكر ، والروز ، وسقي البلاد ، ليعلموا السكان الجدود امرنا بقعود ست من الاندلس بأولادهم الذين لم يتزوجوا في كل بلد يكون من مائة دار ، والامر في ذلك لسيدهم ، فهو لمول كل بلد ، ويكون من الفلحين القدماء الذين ظهر عليهم القرب والميل لديننا ، ويرجى فيهم الثبات عليه .

وإن الرماة والنصارى القدماء لا يأخذون شيئا من أموالهم ، ولا يقربوا الى نسائهم وأولادهم ، ولا يكتم منهم احدا في داره ، ومن يفعل ذلك يجعل في مقدف الاغربة ست سنين ويزداد على ذلك ما يظهر لنا .

وليعلموا أن السلطان مامراة إلا اخراجهم من بلاده الى بلاد المغرب ، فلا يضرهم احد بوجه من الوجه ، وانه ينفق عليهم ، ويحملهم في سفنه ، وإذا بلغوا ، فليرجعوا عشر منهم ليعلموا لغيرهم . وكبراء الاغربة والسفن فليعملوا بهذا الأمر .

وإن الصبيان الذين يكونون أولاد نصارى لا يخرجوا ، ولا لامهاتهم معهم ، وإن كانت

أندلسية. وإن كان أبوهم اندلسي وأمهم نصرانية فَتَقَعُودُ المرأةُ بأولادها التي من ستت فأقل ، وهو يذهب ويخرج.

وشهر هذا الامر ونودي به في الثاني والعشرين من شهر شتنبر من عام تسع وست مائة وألف من ميلاد سيدنا عيسى . عليه السلام . انتهى.

وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية ، فأمر بالخروج للذين كانوا بالاندلسية وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا. وبعد أن اكتروا السفن . وهم في واد اشبيلية . بعث السلطان أمرا عكس الاول ، وقال : أن كل من اكترى سفينة يمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان من اقل من سبع سنين من الاولاد والبنات ، واخرجوا كل من كان في عشرين سفينة. واخذوا لاهل الحجر الاحمر نحو الف من الاولاد. وكل من جاز على طنجة ، وسبتة ، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين. والله تعالى قادر على اخذ الحق منهم في الدنيا على يدي من فضله الله واختاره من سلاطين المسلمين.

آحمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 110 - 113 .

وأما الخاتمة التي وعدت بها بعد الفصول الثمانية ، فأقول والله . سبحانه . ! المأمول :

قد كثر الإنكار علينا ، معشر أشراف الأندلس ، من كثيرين من إخواننا في الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى . ! بقولهم : من أين لهم الشرف ، وقد كانوا ببلد الكفار . دمرهم الله . تعالى . ! ولهم مؤن من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام ، وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله . تعالى . ! ... إلى غير ذلك من الكلام الذي لاتطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحببي فيهم .

فأقول ، وبالله . تعالى . ! . التوفيق ، والهادي إلى أقوم طريق : مع أني صغير السن ، حين دخولنا هذه الديار ، عمرها الله . تعالى . ! . بالإسلام وأهله بجاء النبي المختار . صلى الله عليه وسلم ! ، فقد أطلعني الله . تعالى . ! . على دين الإسلام بواسطة والدي . رحمة الله . تعالى . ! . عليه ، وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع أني كنت اذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتي ، فيعلمني والذي دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معا ، وسني حين حُملت الى مكتبهم أربعة أعوام .

فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأني أنظر الآن إليه مملسا من غير طفل ولا غيره ، فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني ، حرفا حرفا ، عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فإذا سميت له حرفا أعجميا ، يكتب لي حرفا عربيا فيقول لي حينئذ : « هكذا حروفنا ! » حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصاني أن أكتب ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي وجميع قرابتنا ، وأمرني أن لا أخبر من الخلق ، ثم شدد علي الوصية ، وصار يرسل والدتي إلي ، فتسألني وتقول : « ما الذي يعلمك والدك ؟ » فأقول لها : « لا شيء ! » فتقول : أخبرني بذلك ولا تخف ، لأنني عند الخبر بما يعلمك ! » فأقول لها :

« أبدا ! ما هو يعلمني شيئا » ، وكذلك كان يفعل عمي وأنا أنكر أشد الإنكار ، ثم أروح إلى مكتب النصاري وآتي الدّار ، فيُعَلِّمُني إلى أن مضت مدة ، فأرسل إلي من إخوانه في الله الأصدقاء ويسألونني ، فلم أقر لأحد قط بشي . مع أنه . رحمه الله . تعالى ! . قد ألقي نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه ، فيحرق لامحالة ؛ لكن أيده الله . سبحانه وتعالى ! بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين .

وقد كان والدي . رحمه الله . تعالى . ! . ، يلقني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للأصنام ، وذلك أنه قال لي : إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت الأصنام ، فاقرأ في نفسك سرا قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سْتَمِعُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْتَلْبِثُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . » و « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » وغير ذلك من الآيات الكرّسة ، قوله . تعالى ! . : « وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرِّمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرِّمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . »

فلما تحقّق والدي . رحمه الله . تعالى ! . أنني أكتّم أمور دين الإسلام عن الأتارب فضلا عن الأجانب ، أمرني أن أتكلّم بإفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع .

فلما رأى حزمي مع صغر سني ، فرح كثيرا غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبابه وإخوانه في دين الإسلام ؛ فاجتمعت بهم واحدا واحدا وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخبار من جيان مدينة ابن مالك إلى غرناطة وإلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله . تعالى ! . للإسلام ، فتلخص لي من معرفتهم أنني ميزت منهم سبعة رجال كانوا كلهم يحدّثونني بأمور غرناطة ، وما كان بها في الإسلام حينئذ وما أقوله بعد وقتله قبل ؛ فسندى عال لمكون ماثم إلا واسطة واحدة بيني وبين أيام الإسلام بها ؛

فباجتماعي بهم ، حصل لي خير كثير ولله المنة ! وقد قرؤوا كلهم - رحمهم الله ! - على شيخ من مشايخ غرناطة - أعادها الله للإسلام ! - يقال له الفقيه الأوطوري رحمه الله - تعالى ! - ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحا ولما لله فاضلا زاهدا ورعا عارفا سالكا ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهدة مأثورة ، قد قرأ القرآن في الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها وهو ابن ثمانية أعوام ، وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء ، حسب الإمكان ، لأن الوقت ضاق في السر والإعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم ، مع صغره .

ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها لمن أراد به وبيع ما عنده وإتيانه لهذه الديار الإسلامية ، أبقاها الله - تعالى ! - عامرة بالإسلام إلى يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها وإلزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام .

فلما تحرك لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاء إليها حينئذ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة ، وكذلك للجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم منهم لذلك ، نقض العهد فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ومنعهم قهرا عن الخروج والدخول بإخوانهم وقرابتهم لديار الإسلام ؛ وقد كان العدو يظهر شيئا ويفعل بهم آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مرارا ملوك الإسلام حينئذ كملك فاس ومصر ، فلم يقع من أحدهما ولا من غيرهما إلا بعض مراسلات ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا !

ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غضبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئا فشيئا مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرارا وقتالهم إيّاه ، إلى أن قضى الله - سبحانه ! - ما قد سبق في عمله ؛ فبقينا بين أظهرهم وعدو

الذين يحرق بالنار من لاحت عليه إمارة الإسلام ويعذّ به بأنواع العذاب ؛ فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون !

حتى جاء النصر والفرج من عند الله - سبحانه ! - وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته - صلى الله عليه وسلم ! - فخرج منا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية مظها دين الكفار - أبعدهم الله ! - فذهب بعض إخواننا إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فاجتمع بالوزير المعظم المرحوم مراد باشا أحد وزراء حضرة السلطان الأعظم والحقان الأفخم المرحوم برحمة الله - تعالى ! - السلطان أحمد خان نجل آل عثمان ، نصرهم الله - تعالى ! - وأيدهم ورحم سلفهم الصالح ! آمين ! ، وأخبره بما حلّ بإخواننا الأندلس من الشدة والضيق بفرائضه وغيرها .

فكتب الوزير المشار إليه - رحمة الله - تعالى ! - عليه ، لصاحب فرانصة ، دمرها الله - تعالى ! - بإذن من السلطان ، نصره الله - تعالى ! - وهو يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلس وخدام آل عثمان - نصره الله - تعالى ! - محمولين في أغريته ويوجّههم إلى بلاد الإسلام في سفن من عنده بما يحتاجون إليه .

فلما قرىء الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيس ببريس دار مملكته وسمعه من كان عنده مرسلا من قبيل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فليبو الثالث أرسل الى سيده وهو يخبره بالواقع بأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره إلى فرانصه وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنه من الأندلس وغيرهم ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين وأذن لمن من الأندلس بأن لا بأس عليهم وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه فيبلغهم الى حيث شاؤوا من بلاد الإسلام العزيز المنصور .

فلما أحس بهذا الأمر عدوّ الله فليبو صاحب الجزيرة الخضراء ويقال لها اسبانيا ، دخله الرعب والخوف الشديد ، فأمر حينئذ ، فجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم

الرأي وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ؛ فبدأ الشأن في أهل بلنسية ، فأخذوا الرأي وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروط في شأنهم وكيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية والإستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس .

فهذا لطف عظيم ورحمة من المولى الكريم حيث قلب قلب العدو ؛ وعلى هذا الإستحفاظ الكبير فضل منه ، سبحانه وتعالى ! .

نعم ! أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر - أبعد الله - تعالى ! . في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلس حين أراد إخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيد ماقدّمناه آنفا من أمر السلطان أحمد المنصور بالله ، نجل آل عثمان ، نصرهم الله - تعالى ! . آمين وتكلم الفائدة ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس فأقول وبالله التوفيق !

قال الملك الكافر ، أبعد الله - تعالى ! . وزلّله ! . آمين ! . في أوامره : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من « يكدّر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكته التي تعيش عيشا رغدا صالحا ، والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس الذين هم مولدون من الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وقمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا ، ورأينا عيانا أن كثيرا منهم أحرقتهم بالنار لإستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا ، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية ، وقد تيقنيت

ذلك من إخبارات صادقة وصلت إليّ ، ومع هذا أن أحدا منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت ، بذلك ، يقينا أن كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين واحد ونيّتهم واحدة ، وظهر لي أيضا ولأرباب العقول والمتدينين الصالحين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت معهم أن من إبقائهم بيننا ينشأ فساد كبير وهول شديد بسلطتنا وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من إبقائهم بمملكتي ، أردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا وديننا ، ورميهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسلمين» .

انتهى المراد بأكثر لفظه ، ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها ؛ فانظر . رحمك الله ! كيف شهد عدو الدين الملك الكافر بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ، مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوايح المسلمين وإماراتهم وملازمة القيام بدين الله مئين من السنين .

فأي علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ، ومن استنجاههم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المؤمنين ، حضرة السلطان أحمد نجل آل عثمان ، نصرهم الله . تعالى ؛ ؛ فهذا غلبة الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدي أبو القشاش . نفعا الله . تعالى ! . به دينا وأخرى ، في بعض مكاتبه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم ، حين قدومهم الى هذه الديار ، أدامها الله للإسلام ؛ فقال لي : « وسلم لي على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار ، فإنه لا يحبكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق » انتهى بلفظه .

ويؤيد كلام الأستاذ . رحمه الله ! . الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه كحديث سلمان الفارسي . رضي الله عنه ! . ، وحديث علي ، رضي الله . تعالى ! . عنه ، وهو قوله . صلى الله عليه وسلم ! . : « لَا يَبْغِضُ الْعَرَبَ إِلَّا مُنَافِقٌ » وغيرهما !

وكما جاء في شأن قريش لثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والأوس وغيرهما ،
تغليباً ، فضلاً عمن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعبّاس وغيرهم - رضي
الله عنهم! - من بني هاشم ، كما سيأتي ذكرهم - إن شاء الله - تعالى! - مع ما تقدم ؛ والله -
سبحانه! - أعلم ، وبه التوفيق!

فخرجوا كلهم سنة سبع عشرة وألف ؛ ووجد في دفاتر السلطان الكافرة - أبعده الله -
تعالى! - آمين! - أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستماية ألف نسمة كبيراً
وصغيراً ؛ فكانت هذه الواقعة إحدى معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم! - ومنقبة عظيمة
وفضيلة عجيبة لجماعتنا الأندلس ، زادهم الله شرفاً بمه! ؛ وأمر أيضاً الملك الكافر بإخراج
من كان مسجوناً في مملكته ، وكلّ من أمر أيضاً بإحراقه ، فأخرجه وعفا عنه وزوّده وأرسله
إلى بلاد الإسلام سالماً.

ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة ، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين
والنفس والمال ؛ فسبحان ربّ السماوات وربّ الأرض الذي إذا أراد أمراً قال له كن! فكان!
فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ومن فضيلة ما أشرفها ومن كرامة ما أجملها ومن نعمة ما
أكبرها! فما سُمِع من زوّل الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة ؛ ولا ريب أن هذا من كرامة النبي -
صلى الله عليه وسلم! - الذي أكرمه الله ربنا سبحانه! - بمثل ما أكرم به كافة الرّسل والأنبياء ،
عليهم الصلاة والسلام! وما أحسن قول الإمام البصيري - رحمه الله - تعالى! - في همزته : .

تَتَبَّاهَى بِكَ الْعُصُورُ وَتَسْمُو * بِكَ عَلَيَاءُ بَعْدَهَا عَلَيَاءُ

فلا شك أن جملة أعصار الدنيا من أولها إلى آخرها تتباهى به - صلى الله عليه وسلم! -
وبأتمته وتتنوّر به وتعلو ، ولانور للأنبياء والرّسل - عليهم الصلاة والسلام! - دون نوره ولا
باب لكافة الخلق دون بابه ؛ فهو باب الله الأعظم وسرّ وجود جميع الموجدات ؛ فلا يعرفه أحد
من المخلوقات ، ونهاية العقول عن معرفته ؛ وما أحسن قوله (البصيري) أيضاً ، رحمه الله -
تعالى!

فَمَلَأَ الْعِلْمَ فِيهِ أَنَّهُ بِشَرٍّ * وَأَنَّهُ خَيْرٌ خَلَقَ إِلَهُ كُلَّهُم

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلَ الْكِرَامُ بِهَا * فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِم

والحاصل أنه . صلى الله عليه وسلم ! . هو عين الوجود والسبب في كل موجود ولولاه لم تخرج الدنيا من العدم.

نعم ! سقت هذا الكلام السابق استطرادا ، لأحتج به وبالذي يأتي على الذين أنكروا على من ظهر شرفه منا ، معشر الأندلس السابق تعيين بعض من جاء إلى المغرب من الأشراف ، وكذلك من جاز إلى الجزيرة الخضراء أيام الفتح وبعده ، مسترسلا في مئين من السنين ، مع أنه لا يحتاج إلى دليل على ذلك .

وقد وقع الفتح لجزيرة الأندلس الخضراء . وهكذا سماها النبي . صلى الله عليه وسلم ! . في بعض الأحاديث الشريفة ، وسمعت بعضها من شيخنا الأستاذ رحمه الله . تعالى ! . ويشرنا به وصنع لنا ضيافة كبيرة عظيمة بأنواع الأطعمة النفيسة وجمعنا عليها قرب قدومنا إلى هذه الديار العلية ، ثم بعد الأكل ، قال . رحمه الله . تعالى ! . : « أتعرفون يامعشر إخواننا من الأندلس لماذا فعلت بكم مارأيتم اليوم من الإطعام والفرح ؟ » قالوا : « لا ! » فقال : « فعلت هذا سرورا وفرحا لكم ، لأنه بلغني أن النبي . صلى الله عليه وسلم ! . توجه بوجهه الكريم نحو الجزيرة الخضراء فسلم عليكم صلى الله عليه وسلم ! . وأنتم في أصلاب أجدادكم وأخبر . صلى الله عليه وسلم ! . بالجزيرة الخضراء وبما كان فيها من الجهاد والفتح والإسلام ؛ فهنيئا لكم ! هنيئا لكم ! هنيئا لكم ! ثلاث مرات . »

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فأقول : . وقع الفتح الأول سنة تسعين من هجرته . صلى الله عليه ما ذكره صاحب الاكتفاء

خاتمة كتاب الانوار النبوية ، في آباد خير البرية لمحمد بن عبد الرفيق الاندلسي .

« وبعد يقول العبد الفقير الرأجي عفو الله وغفرانه وحلمه وعافيته ورحمته في دينه وآخرته إبراهيم الشهير بالعجم بالمرباش ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي من نولش من اقليم غرناطة ؛ ثم انتقل منها بعد القيامة الى قرب مدينة غرناطة ؛ وفيها كان انتشائي ومسكني ، الا أن أمر سلطان النصارى جميع الأندلس الذين تأخروا عن الخروج الأول بالإل[ار]تحال إلى بعض البلاد من بلاده الخارجة عن سلطنته غرناطة ، وذلك قبل التاريخ هذا بنحو الثمان[ي] وال[ال]أربعين سنة ؛ وسكننا بمدينة إشبيلية ، وتولعت بالسفر في البحر المحيط ؛ فسافرت فيه مرارا ، ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالقيلونية بالأعجمية ، التي تأتي بالفضة من الهندو المغربية البعيدة ؛ فكانت تمشي عمارة كما هي من عاداتهم ، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية ؛ وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة وتارة يأتون[ان] بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة ، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهم لما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه اعتنوا به .

وكننت أجالسهم وأحفظ مايتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع ، وجميعهم لا يظنون أنني أندلسي ؛ وفي الزمن الذي أمر (فيه) سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس ، من بلاده ، كنت مسجوناً من أجل ماوقع لي مع بعض النصارى على أمور راجعة الى دعوى النفس بالشجاعة ؛ وكان لي من أكابرهم من يعتني [بني] ويصاحبني ، حتى خلصني الله من السجن ؛ فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس ومنعوني من ذلك ؛ فعملت بينة بأنني من الأندلس لأخرج معهم ؛ ولم ينفعني شيء من ذلك ؛ ثم أنفقت دراهم في الرشوات وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس - حرسها الله ! -

فوجدت فيها كثيراً من الأصحاب والأحباب والأندلس ؛ وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي - رحمه الله ! - وقدمني على مايتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية ومايتي

مكحلة ومايتي سكيننا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر ؛ وركبنا بأصحابنا في سفينة لم تبحر إلا نحو الستة [ال] أشهر ؛ ومات ، رحمه الله ؛ ؛ وبعد موته بقليل ، ولينا إلى تونس بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء ، حتى أشرفت على الهلاك ؛ وبعد أن برئت ، ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة ، وهي على حاشية هذا البحر الصغير ؛ والتقىنا بأحد عشر غرابا ، وذلك في نصف شهر أغشت ، والبحر ساكن ولا شيء من الريح ، ووقع [ت] الحرب الشديد[ة] ومات من الجانبين خلق كثير ، ودام الطراد الكبير ، حتى لم يبق منا إلا القليل وأسرونا ؛ وصح أن من الكفار أعدائنا مات في ذلك اليوم أكثر من ستمائة رجل ؛ وكان فيهم أكثر من عشرين من أكابرهم ، وأنا مثقل بالجراح ، ثم فرج الله علي من الأسر بعد السبع [ال] اسنين .

ثم وليت إلى تونس ، والأمير يوسف داي أمرني بالتعود في حصن حلق الواد [ي] ، ونحن من أهل الجيش في المراتب ؛ وفيها كملت معرفة آلات المدافع بالإشتغال بيدي فيها وبالقراءة في كتب الفن ؛ ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل ، عزمت على تصنيف هذا الكتاب ، لأن كل مدفع له قيمة مال [وتلقى] تعباً في إيجاده ، ثم يوكل على تسخيرهِ والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الأولى أو الثانية ، والموكل عليه الذي يعمره قريب من الهلاك ، فحملني على تصنيفه النصيح له ولمن وكله عليه .

أسأل الله أن يقبل النية ، إنها أبلغ من العمل ، وأن ييسر لي من يعمره من الكلام الاسينول ، وهو الكلام العجمي المتعرف الأندلسي ؛ وما قصدت به نفعاً دنياوياً بل الإخلاص لله لنكتب منه نسخاً ونبعثها - إن شاء الله ! - لبعض المواضع من بلاد المسلمين ، ونذكر فيه ما يحصل النفع من وجوه ، للمدافعين القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدروا وتكلفوا من خدمة أمراء المسلمين ؛ وُجِّلَ لهم الأجر عند الله - سبحانه ! - بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين .»

مقدمة كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع . وقد ترجمه من الاسبانية إلى العربية
احمد الشهاب الحجري .

الفصل الثاني :

في فعله (أبي الغيث القشاش) مع الأندلس وماخالقهم به . رضى الله . تعالى ! .
عنه ! .

« قال العبد الفقير الى الله المنتصر : لما جاء الأندلسيون الى تونس ، كنت أنا بتونس
برسم الزيادة ، وكنت ذات يوم خارجا من باب يثر بشرقي جامع الزيتونة ، فلقيت كبراء
الأندلس ومشايخهم : وفي أيديهم ورقة كاغظ وهم يفتشون على من يقروؤها لهم ،
فصادفوني ! فقال : « أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث ؟ » فقلت لهم : « نعم ! » ،
فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب :

الحمد لله !
والصلاة والسلام على رسول الله !

إلى ساداتنا الأندلسية خصوصا منهم سيدي فلان وسيدي فلان (إلى أن سمي من
أكابرهم عشرة رجال) .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

أما بعد ! فلا مزيد . بحمد الله . تعالى ! . إلا خيرا وما يسركم ! وأنا داعي لكم بخير !
وماذكرتم لنا على أنني استخير الله . تعالى ! . لكم ، فاستخرت لكم أولا عند والذي ،
والثاني ليلة عند استاذي سيدي محمد حذيفة ، صاحب رسول الله . صلى الله عليه وسلم ! .
والثالث ليلة عند والذي ، فرأيت لكم خيرا ! والمهدية مشتقة من الهدى ! وأنتم كما قال
الشاعر :

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا ! * كَأَنَّكُمْ يَبْقَى الْأَرْضِ أَمْطَارُ !
وَتَنْظُرُ النَّاسُ مِنْكُمْ مَنظَرًا حَسَنًا * كَأَنَّكُمْ فِي رُؤُوسِ النَّاسِ أَبْصَارُ !
وَإِنْ جَاءَ رَكْبٌ حَلَّ أَرْضَكُمْ * كَأَنَّكُمْ فِي رِحَالِ الْقَوْمِ عَطَارُ !
لَا أُوحِشُ اللَّهَ عَيْنِي مِنْ جَمَالِكُمْ * يَأْمَنُ بِهِ فِي الْحَشَا وَالْقَلْبِ تَذْكَارُ !

والسلام عليكم ورحمة الله . تعالى ! . وبركاته .

من العبد الفقير أبي الغيث

ثم أخذوا الورقة من يدي ، وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ رضي الله . عنه ! .

ولما أن جاء الأندلس إلى تونس ، ضاقت بهم المحاجج والطرقا والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون إلى الشيخ وإلى سباطه ؛ وجرى معهم الشيخ - رضي الله عنه ! . كالريح المرسلة في إطعام الطعام وكسوة العريان ، حتى إنني أحصيت ما يخرج لمؤنتهم اثني عشر (كذا) مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق ، والكسكسو ، شيء يابس مسفوف وشيء مسقي (كذا) وزوج أحمال من الحروب لعلف الدواب بخلاف اللبن واللحم [و] رأسين بقر كل يوم ! هذا على حساب العام كامل (كذا) ضيفهم الشيخ رضي الله عنه ! .

ولما كثر الأندلس بتونس ، وعمرُوا إقليمها ودواثرها وعمرُوا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا ، صاروا يأتون من كل بلدانهم لزيارة الشيخ سيدي أبي الغيث القشاش . رضي الله عنه ! . ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا ، وكل حزب يجعل له نقيباً ، والنقيب هو شيخ الفقراء ، ويعطيه علماً أخضر ويوصيه بطاعة الله . تعالى ! . وطاعة النقيب ، وهو المقدم عليهم ، ويقول لهم : « يا فقراء ! الله الله في دينكم ! واجتهدوا في ذكر الله . تعالى ! . وطاعته ، وفي طاعة مقدمكم ، وكونوا إخواناً على سرر متقابلين » .

وكان الأندلسيون ممثلين لأمر الشيخ . رضي الله عنه ! . سامعين له مطيعين في كل

أمر ؛ وكان يحسن إليهم . رضي الله عنهم ! . يواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم ويقضي
حوائجهم في كل ما يحتاجون إليه فيه ؛ وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبد الرفيع
الأندلسي . رضي الله عنه ! .

المنتصر بن أبي الحية القفصي ، نور الارماش في مناقب القشاش ، الفصل الثاني :

« وفي هذه السنة (1017 / 1608) والتي تليها ، جاءت الأندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمرُوا حيث شاؤُوا ، فاشترُوا الهناشير ، وبنوا فيها واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن.

ومن بلدانهم المشهورة ، سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركبي والجديدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها ، والعالية والقلعة وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا.

فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين ، وصاروا يعدون من أهل البلاد ».

(محمد بن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص 204.

الفهرس

تقديم : 3

القسم الأول : عصر الولاية والإمارة

عصر الولاية والإمارة	6
I - عصر الولاية	6
II - عصر الإمارة	9
نصوص حول عصر الولاية	13
I - نصوص سياسية	13
II - نصوص اقتصادية - اجتماعية	17
نصوص حول عصر الإمارة	22
I - نصوص سياسية	22
II - نصوص اقتصادية - اجتماعية	27

القسم الثاني : عصر الخلافة

عصر الخلافة	39
نصوص سياسية	44
نصوص اقتصادية - اجتماعية	69

القسم الثالث : عصر الطوائف

94	عصر ملوك الطوائف
96	نصوص سياسية
111	نصوص اجتماعية - اقتصادية

القسم الرابع : عصر المرابطين والموحدين

132	المرابطون
133	نصوص سياسية
150	نصوص اجتماعية
159	الموحدون
160	نصوص سياسية
182	نصوص اجتماعية
182	- الفصل في المحتسب
185	- الفصل الثاني
194	- الفصل الثالث

القسم الخامس : عصر بني نصر

213	عصر بني نصر
-----	-------------

القسم السادس : العصر الموريسكي

إلى غاية الهجرة الكبرى

250	العصر الموريسكي
-----	-----------------

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس